

محمد سعيد العرابي

حياة الزايفي

الطبعة الثالثة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

حقوق الطبع محفوظة للـ مؤلف

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شـعـن محمد علي مبـنـر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وإياه أستعين

فاتحة الكتاب

محمود محمد شكر

إِنْ كُنْتُ لَسْتُ مَعِيَ ، فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِيَ
يَرَاكَ قَلْبِي وَإِنْ غُيِّبَتْ عَنْ بَصَرِي
الْعَيْنُ تَبْصُرُ مِنْ تَهْوَى وَتَفْقِدُهُ
وَنَظَرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ

رحمك الله « أبا السامى » (١) ورضى عنك ، وغفر لك ما تقدم من ذنبك ،
وجزاك خيراً عن جهادك ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

كتب « سعيد » - لا أخلى الله مكانه وخطى عنه السوء - هذا الكتاب الذى

(١) كذلك كانت كنيته . واسم ابنه البكر : محمود سامى الرافعى ، وإنما سماه
كذلك تشبهاً له باسم الشاعر محمود سامى البارودى ، وإليه كان ينظر فى صدر أيامه .

يسعى بين يديه ، يردُّ به إلى الحياة حياةً استدبرت الدنيا وأقبلت على الآخرة بما قدّمت من عمل ؛ وثَمَّ الميزانُ الذى لا يخطئ ، والناقد الذى لا يجوز عليه الزيف ، والحاكم الذى لا يقدر فى عدله ظلم ولا جور ، والبصير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، قد استوت عنده دُجَّةُ السر ونهارُ العلانية . وقد فرغ الرافعى - رحمه الله - من أمر الناس إلى خاصة نفسه ، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم ، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفاناً تطوى على الرمم ، لا أثواباً تُلقَى على الميت لتشره مرة أخرى حديثاً يُؤثر وخبراً يُروى وعملاً يتمثل وكأنَّ قد كان بعد إذ لم يكن .

وهذا كتابٌ يقدمه « سعيدٌ » إلى العربية وقراءها ، يجعله كالمقدمة التى لا بد منها لمن أراد أن يعرف أمر الرافعى من قريب .

لقد عاش الرافعى دهرًا يتصرف فيما يتصرف فيه الناس على عاداتهم ، وتُصَرِّفه أعمالُ الحياة على نهجها الذى اقتسرتَه عليه أو مهدته له أو وطأت به لتكوين المزاج الأدبى الذى لا يعدمه حتى ولا يخلو من مسَّه بشرٌ .

وأنا - بما عرفت الرافعى رحمه الله ودنوت إليه ووصلت سبباً منى بأسباب منه - أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقصى من أخبار الرافعى كثيراً إلى قليل بما عُرف عن غيره من فرط من شيوخنا وكتابنا وأدبائنا وشعرائنا ؛ وتلك يدٌ لسعيد على الأدب العربى ، وهى أخرى على التاريخ ؛ ولو قد يسَّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقاً وفيّاً ينقله إلى الناس أحاديثَ وأخباراً وأعمالاً كما يسَّر الله للرافعى ، لما أضلَّت العربية مجدَّ أدبائها وعلماؤها ، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسرارِ الأساليب وعلمُ وجوه المعانى التى تعتلجُ فى النفوس وترتكضُ فى القلوب

حتى يؤذن لها أن تكون أدبا يصطفى وعلمًا يتوارث وفناً يتبلجُ على سواد الحياة فتسفر عن مكنونها متكشّفة بارزة تتألق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب الفرج ودواعي السرور وما قبلُ وما بعدُ .

والتاريخ ضربان يترادفان على معناه ، ولكل فضل : فأوله رواية الخبر والقصة والعمل ، وما كان كيف كان وإلى أين انتهى ؛ وهذا هو الذي انتهى إلينا من علم التاريخ العربي في جملته ؛ وعمود هذا الباب صدقُ الحديث ، وطولُ التحري والاستقصاء والتتبع ، وتسقُط الأخبار من مواقعها ، وتوَحَّى الحقيقة في الطلب حتى لا يختلط باطلٌ بحق . وأما التاريخ الثاني فإيجاد حياة قد خرجت من الحياة ، وردّ ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح ؛ وضمُّ متفرق يتبعثر في الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للتأمل ، وهذا الثاني هو الذي عليه العمل في الإدراك البياني لحقائق الشعراء والكتاب ومَن إليهم ؛ ومع ذلك فهو لا يكاد يكون شيئاً إلا بالأول ، وإلا بقي اجتهدا محضاً تموت الحقائق فيه أو تحيا على قدر حظ المؤرخ والناقد من حسن النظر ونفاذ البصيرة ، ومساغِه في أسرار البيان متوجها مع الدلالة مقبلاً مذبراً ، متوقياً عثرةً تكبُّه على وجهه ، متابعاً مَدْرَجَة الطبائع الإنسانية - على تباينها واختلافها - حتى يُشرف على حيث يملك البصر والتمييز ورؤية الخافي وتوهم البعيد ، ويكون عمل المؤرخ يومئذ نكسة يعود بها إلى توهم أخبار كانت وأحداث يخالها وقعت ، ويجهد في ذلك جهداً لقد غنى عنه لو قد تساوقت إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمعت لديه وأُلقيت إليه كما كانت أو كما شاهدها من صحِّبه واتصل به ونفذ إلى بعض ما ينفذ إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان .

وبعدُ ، فإن أكثر مانعرفه من أدبٍ وشعر في عصور الاندحار التي مُنيت بها العربية يكاد يكون تلفيقاً ظاهراً على البيان والتاريخ معاً ، حتى ليضل الناقدُ ضلال السالك في نفق ممتد قد ذهب شعاباً متعانة متنافرة في جوف الأرض ؛ ثم جاء العصر الذي نحن فيه فأبطلت عاميته البيان في الأدب والشعر من ناحية ، ودلسهما ما أُعري به الكثرة من استعارة العاطفة واقتراض الإحساس من ناحية أخرى ؛ فإني لأقرأ للكاتب أو الشاعر وأتدبر وأترقب وأترقب ... وإذا هو عيبة ممتلئة قد أُشْرِجَتْ على المعاني والعواطف فلو قُطع الخيط الذي يشدها لانقطعت كل شاردة نافرة إلى وطنها هاربة تشتد ؛ وبمثل هذا يخوض المؤرخ في ردغة مستوحلة يتزلّق فيها ههنا وثمّ ، ويتقطع في الرأي وتهالك الحقائق بين يديه حتى يصير الشاعر وشعره والأديب وأدبه أسماً متخرقة بالية يمسح بها المؤرخ عن نفسه آثار ما وحل فيه !

وقد ابتلى الأدب العربي في هذا العصر بهؤلاء الذين أوجفت بهم مطايا الغرور في طلب الشهرة والصيت والسماع ، فخبطوا وتورطوا ظلماً سالكها مغترّ ، وقد كان احتباسهم وإمساكهم عما نصبوا وجوههم له ، واصطبارهم على ذل الطلب ، وممارستهم معضّل ما أرادوه ، وتأنيبهم في النية والبصر والعزم عسى أن يحملهم على استثارة ماركبه الإهمال من العواطف التي تعمل وحدها إذا تنسمت روح الحياة ، واستنباط النبع القديم الذي ورثته الإنسانية من حياتها الطبيعية الأولى ثم طمت عليه أدران المدينيات المتعاقبة .

والشعر والأدب كلاهما عاطفة وإحساس ينبعان من أصل القلب الإنساني ؛ هذا القلب الذي أثبت من داخل بين الحنايا والضلوع ليكون أصفى شيء وأطهر

شئ وأخفى شئ ، وليس كل عمل من قريب ليصفيه ويظهره ويسدل عليه من روحه شففاً رقيقاً لا يستر بل يصف ما وراءه صفة باقية بقاء الروح ، ويبرئها من دنس الوحشية التي تطويها في كفن من بضائع الموتى ؛ فأما شاعر أو أديب قال فإنما بقلبه وجب أن يقول ومن داخله كُتِبَ عليه أن يتكلم ، وإنما اللسان آلة تنقل ما في داخل إلى خارج حَسْب ؛ فإن كلفها أحد أن تنقل على غير طبيعتها في الأداء - وهي الصلة التي انعقدت بينها وبين القلب على هذا القانون - فقد أوقع الخلل فيها ووقع الفساد والتخالف والإحالة والبطلان فيما تؤدّيه أو تنقله .

وقد نشأ الرافعي من أوليته أديباً يريد أن يشعر ويكتب ويتأدب ، وسلخ شبابه يعمل حتى أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها فكان عالماً في العربية يقول الشعر ، ولو وقف الرافعي عند ذلك لدرج فيمن درج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصروه ، ولو أنه استنام إلى بعض الصيت الذي أدركه وحازه واحتمله في أمره الغرور لحف من بعد في ميزان الأدب حتى يرجح به من بعد مَنْ عسى أن يكون أخف منه ؛ ولكن الرافعي خرج من هذه الفتن - التي لفت كثرة الشعراء والأدباء والتقمّتهم فضعتهم فطحنتهم ثم لفظتهم - وقد وجد نفسه واهتدى إليها ، وعرف حقيقة أدبه وما ينبغي له وما يجب عليه ، فأمر ما أفاد من علم وأدب على قلبه ليؤدى عنه ، وبرئ أن يكون ك بعض مشاهير الكتاب والشعراء ممن يُطيح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل القرطاس وللقارئ من قنابله بعد ذلك ما يتشظى في وجهه وما يتطاير ؛ لهذا كان الرافعي من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تُتخذ حياتهم ميزاناً لأعمالهم وآثارهم ؛ ولذلك كان كتاب « سعيد » عن حياته من الجلالة بالموضع الذي يسمو إليه كل مبصر ، ومن الضرورة بالمكان الذي يلجأ إليه كل طالب

عرفت الرافيى معرفة الرأى أول ما عرفته ، ثم عرفته معرفة الصحبة
فما بعد ، وعرضت هذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد إلا خيراً مما
كنت أرى ، وتبدت لى إنسانية هذا الرجل كأنها نعمة تجاوب أختها فى ذلك
الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبنى واجبه ، لأن القلب هو الذى
كان يعمل بينى وبينه وكان فى أدبه مسُّ هذا القلب ؛ فمن هنا كنت أتلقى كلامه
فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثلُ منى بالأدب وأقوم على العلم وأبصر
بمواضع الرأى .

وامتياز الرافيى بقلبه هو سر البيان فيما تداوله من معانى الشعر والأدب ؛
وهو سرُ حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء ، وسر إحسانه فى مهنتها وتديرها
وسياستها كما يحسن أحدهم مهنة المال ورَبِّه والقيامَ عليه ؛ وهو سر علوه على
من ينخشُّ فى الأدب كالعظمة الجاسية تنشبُ فى حلق متعاطيه ، لا يُبقى عليه
من هوادة ولا رفق ، وبخاصة حين يكون هذا الناشب من تسامى على حين
غفلة يوم مَرَج أمرُ الناس واختلط ، أو كان مرهقاً فى إيمانه مُتهدماً فى دينه ؛
إذ كان الإيمان فى قلب الرافيى دماً يجرى فى دمه ، ونوراً يضىء له فى مجاهل
الفكر والعاطفة ويسئى له ما أعسر إذا تعاندت الآراء واختلفت وتعارضت
وأكذب بعضها بعضاً .

هذا ، وقد أرخيت للقول حتى بلغ ، وكنتُ حقيقاً أن أغور إلى سرّ البيان
واعتلاقه من العاطفة والهوى فى قول الشاعر والكاتب والأديب لأسدِّد
الرأى إلى مرماه ، وقد يطولُ ذلك حتى لا تكفى له فاتحة كتاب أو كتابٌ
مفرد ؛ فإن البيان هو سرُّ النفس الشاعرة مكفوفاً وراء لفظ ، وما كان ذلك
سبيله لا يتأتى إلا بالتفصيل والتمييز والشرح ، ولا تُغنى فيه جملة القول شيئاً
من غناء . وحقيقٌ بمن يقرأ هذا الكتاب أن يعود إلى كتب الرافيى بالمراجعة

فيستنبأها التفصيل والشرح ، وبذلك يقع على مادة تمدّه في دراسة فنون
الأسلوب ، وكيف يتوجهُ بفنّ الكاتب ، وكيف يتصرف فيه الكاتب بحسب
من قلبه لا يخطئ أن يجعل المعنى واللفظ سابقين إلى غرض متواطئين على معنى
لا يجوز أن فيجوزانه أو يقعان دونه .

رحمة الله عليه ، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكره ، ونزع إليهم بحينه ،
وفالج أهل عصره بالبيان حين استعجمت قلوبهم وارتضخت عريتهم لُكنة
غير عربية ، ثم صار إلى أن أصبح ميراثاً نتوارثه ، وأدباً نندارسه ، وحناناً
نأوى إليه .

رحمة الله عليه !

محمّد شاكِر

تمهيد

سمعت اسم الرافي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً لا يكاد يفهم ما يلقي إليه ؛ فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي ؛ فُحِبَّ إليَّ من ذلك اليوم أن ألقاه ... ورأيت لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلاً كبعض من أعرف من الناس ، وكان جالساً وقتئذ في قهوة على الطريق وبين يديه صحف يقرأها ؛ فوقفت هنيهة أنظر إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الماثل أمامي هو الشخص الذي أعرفه في نفسي ...

وقرأت له أول ما قرأت ، نشيده المشهور « اسلمى يامصر ... » ، ثم دفع إليَّ صديق من أصدقائي كتاب « رسائل الأحزان » .

كنت يومئذ في بكرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدحم بالأمانى وقلب مملوء بالثقة ، ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست في دنيا الناس ، ويجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطوياً على آلامه !

واستهواني عنوان الكتاب الذي دفعه إليَّ صاحبي ، فتناولته أقلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها ، (١) ؛ فإذا شعرتُ عذب يخالط النفس وينفذ في رفق إلى القلب ؛ فأخذت أعيدها مرة

ومرة : فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة . وحَبَّبَ إلى هذا الشعرُ الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية ؛ لعلنى أستدرك ما فاتنى من معانيه وأدخر لنفسى قوة من سحر بيانه وصدق عاطفته . وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر : أفهمه بفكرى ووجدانى ، وأنظر فيه بعينى وقلبى : فإذا الكتاب يكشف لى عن معناه ...

وأحببت الرافعى من يومئذ ؛ فرُحْتُ أتتبع آثاره فى الصحف وفى الكتب ؛ لا يكاد يفوتنى منها شئ ، وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ؛ ولكنى لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين ...

كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٢ وقد قصدت إليه فى داره مع وفدٍ ثلاثةٍ نسأله الرأى والمعونة فى شأن من شئون الأدب ؛ فلقينَا مرحباً مبتسماً وقادنا إلى مكتبه ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفى تلك الغرفة التى تتنزل فيها عليه الحكمة ويُبدقُ الوحي جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث لا نكاد نشعر أن الزمن يمر ...

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب فوقه تحجبه عن عيني محدثه ، وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب فى غير ترتيب ولا نظام ، تطل من بين صفحاتها قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد أو أن له عند بعض موضوعاتها وقفات سيعود إليها ، وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراسة لا يبدو من خلفها لون الجدار ...

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة . وطال بنا المجلس حتى خشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهمنا بالانصراف ، فإذا

هو يطلب إلينا البقاء ، ويرجونا ألا نغبّ مجلسه ؛ وعرفت الرافعى عرفاناً تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفنى هو أيضاً فأصفانى عطفه ومودته .

وجلست إليه فى الزورة الثانية وبين يديه صحف ، فدفع إلى صحيفه منها كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة للشاعر خليل مطران بك ، فطلب إلى رأيى فى القصيدة ؛ ولم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركنى فى لذة عقلية وجدها فى هذا الشعر ، فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ، وتناول الصحيفة منى ليرى اختيارى ورأى فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرنى ، ولكنى - والحمد لله - نجحت فى الامتحان قدراً من النجاح !

وتكرر هذا الاختبار وهو لا يحسبنى أدرك ما يعنى ؛ على أن إدراكى هذا قد جعلنى من بعد أكثر تدقيقاً فى اختيار الحسن مما أقرأ . وأولانى ثقته على الأيام ، فكان على أن أقرأ أكثر ما يهدى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يعنيه أن يقرأ منها ، وأدع مالا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته وكنت أنا أكثر رجاء بذلك !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى ، وكأن روحاً حبيبة تُطيف بى وترف حولى بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ ولكنى لا أرى ، ولكنى لا أسمع ، ولكنى هنا وحدى ، تنغشانى الذكرى فتخيّل إلى ما ليس فى دنياى ...

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية ، لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان ، لقد كان هنا قلم يصصر صريراً فيه رنات المثانى وفيه أنات

الوجع ، وفيه همسات الأمانى وفيه صرخات الفزع ، فيه نشيج البكاء وفيه موسيقى الفرح ... كُفّت الصوت ، ومات الإنسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر مازال حيا ينبض ؛ لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء !

وجاءني نعي الرافعي في جريدة « البلاغ » ، بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ فغشيتني غشية من الهم والألم سلبتني الفكر والإرادة وضبط النفس فلم أكد أصدق فيما بيني وبين نفسي أن « صادق الرافعي » الذي ينعاه الناعي الساعة ، هو الرجل الذي أعرف ويعرف الناس ، ودار رأسي دورة جمعت لي الماضي كله بزمانه ومكانه في لحظة فكر ، وتتابعت الصور أمام عيني تنقل إلى خيال هذا الماضي بألوانه وأشكاله ومجاسله وسمره وأحاديثه ، من أول يوم لقيت فيه الرافعي إلى آخر يوم جلست فيه إليه ...

وعدت إلى النعي أقرؤه وفي النفس حسرة والتياغ ، فما زادتني قراءته شيئاً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعي قد مات !

حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصب انصباباً في نفسي ، وأن صوتاً من الغيب يتناولني من جهاتي الأربع يهتف بي ، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفني ساعتئذ لتملي عليّ شيئاً أو تتحدث إليّ بشيء ، وكأنّ عينين تطلان عليّ من وراء هذا العالم المنظور لتأمراني أمراً وتلهمني الفكر والبيان ، هما عينا الرجل الذي أحبته حباً فوق الحب ، وأخلصت له وأخلص لي إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس ، ثم نزع الشيطان بيني وبينه ففارقه وفي نفسي إليه نزوع وفي نفسه إليّ ، فلم ألقه

من بعدُ إلا رسماً في ورقة مجللة بالسواد . . . !^(١)
وعرفت منذ الساعة أيّ واجب علىّ لهذا الراحل العزيز .

* * *

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له في حياته واجباً ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ماعاش ينهبها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضى هو مقامه منها غريباً معتزلاً عن الناس ، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف ، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكترون ؛ وهو ماض على سنته سائر على نهجه ، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حيطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ، ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف في وجهه ؛ كأن ذلك « فرض عين » عليه وهو على على المسلمين « فرض كفاية » ؛ وأحسبه قال لي مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من

(١) كان بيننا مغاضبة باعدت بيني وبينه بضعة أشهر ، بعد فراغي من إخراج الطبعة الأولى لكتاب « وحى القلم » آخر كتبه ، وقد أنكر منى - رحمه الله - أن أجفوه ، وشكأنى إلى الصديقين الكريمين : أحمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، ثم لم يقدر لنا أن نلتقي بعد الخصام حتى بغمة الموت .

القرآن بسوء التأويل ؛ « من تراه يابني يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعى ؟ » (١) وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التى هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً فى بطون الكتب حيناً وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسرارهِ فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجدُّ على الإسلام معانٍ لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل « تطوُّر الفكرة الإسلامية » فى هذا العصر . فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعى ، فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ، ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر إلى أعماق هذا الدين يزواج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة فى هذا العصر . ولقد يكون فى العربية اليوم كتَّاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لما كان يقوم له الرافعى : لا يترخص فى دينه ، ولا يتهاون فى لغته ، ولا يتساحق لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يرده من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت ؟ ...

لقد حاول كثير من مؤرِّخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر ، وقالوا كاتب ، وقالوا أديب ، وقالوا عالم ، وقالوا مؤرِّخ . ولكنهم

(١) كان الذى كتب إليه فى ذلك صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر ، وكان كاتب المقال الذى يعنيه بالرد ، هو السيد حسن القاياتى ، وكان يحرق وقتئذ فى جريدة « كوكب الشرق » وسنتناول موضوع هذا المقال بعد ، وانظر فيما يلى : الفصل الذى جعلنا عنوانه « فترة جمام » .

لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن يقال . لقد كان شاعراً ، وكاتباً وأديباً ،
وعالمًا ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر
والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية
المسلمة في هذا الزمان ، لينبها إلى حقائق وجودها ، وليردها إلى مقوماتها ،
وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتي تعتز بها
ولا تعمل لها .

يرحمه الله ! لقد عاش في خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ،
وصل بها حاضرها المائل بماضيها البعيد ؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون
ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب ، وفصل بعنوانه في
مجد الإسلام !

لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير
زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ، يُذكر الأُمَّة
العربية الإسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .
لقد خفت الصوت ، ولكنه خلف صداه في أذن كلِّ عربي وفي قلب كل
مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام !

* * *

وبعد ، فإذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف ؟ هل يعرف الناس
الإديوان الرافعي ، وكتب الرافعي ، ومقالات الرافعي ؟ ولكن الرافعي الذي
يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك ، فإذا يكتب عنه الكتّابون غداً
إن أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية ؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمري في كتبه ومقالاته فاعرفته العرفان
الحق ، وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته ، وخلطته بنفسى وخلطنى
(٢ - حياة الرافعي)

بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسه من قبل ومن بعد
أفتراني بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤدى به بعض ما على من
الدّين للعربية وللفقيد العزيز ؟

. إننى لأحس عبثاً ثقيلًا على عاتقى لا طاقة لى بأن أحمله وليس على أحد غيرى
أن يقوم به . ولقد كتبت منذ عامين - قبل منعه - شيئاً عن الرافعي يعرفه إلى
قراء مجلة « الرسالة » ، فما أحسبني لقيت في ذلك من الجهد إلا بمقدار
ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛ على أن الرافعي كان يومئذ حياً ، وكنت
أحذر أن يغضب أو ينالني منه عتب ؛ فكيف بي اليوم والرافعي بعيد في العالم
الثاني ، والكلمة . للتاريخ ، ووسائل العلم من قرينة ؛ ورسائل الأدباء تترى
تستجزني الوعد وتقتضيني الحق الذي على للأدب والعربية ، وصوت الفقيد
العزيز يهتف بي حيثما توجهت . « إن لى عليك حقاً وإن للأدب عليك ...! » .
ولكنى ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفني الشعور بالعجز ، فأكاد أوقن أنه
لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه ، ولكن الرافعي قد مات
أيها الحبيب العزيز الذي ما زال من كثرة ذكره كأننى منه على ميعاد ...
معذرة إليك !

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعي ؛ فلا ينتظر أحد منى - في هذا
الكتاب - أن أتكلم عن الرافعي الشاعر ، أو الرافعي الكاتب ، أو الرافعي
الأديب ، أو الرافعي الفيلسوف ؛ فما يتسع له يومى ، وما يرضيني عن نفسه
ولا ينفعني بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التي اجتمعت في حياة
إنسان ؛ ولكنى سأكتب - هنا - عن الرافعي الرجل الذي عاشته زمناً ، ونعمتُ

بصحته ، و خلطته بنفسى ، وتحدث قلبه إلى قلبى ، وتكشفت روحه وروحي ؛ سأكتب عن الرافعى الذى عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت : محاولاً أن أجمع شتات حياة تفرقت أخباراً وأقاصيص ونوادير على لسان معاصريه ، أو غابت سرّاً فى صدور أهله وخاصته : أما الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف : فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب ، وسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلّ أن أوفق فى البلوغ إلى ما قصدت . وإنّى لأتهم نفسى من كثرة ما أحب الرافعى أن أتخيف الأدب لو بدا لى فى هذا التاريخ أن أقول : هذا رأي . ولكنى سأقول : هذا ما رأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات ، فسيبلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعى منذ قريب إنساناً حياً بعواطفه وأمياله وحبّه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا على اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشراً ؛ فإنما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يحابى ولا يحتسب ، وستمرّ بى فى تاريخ الرافعى حوادث وأسماء سأصفها وأعرّف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأيا كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذى شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمة ، فلا يشكر ولا يتعّب ؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه . . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ما هو آت ؛ وما أحب أن يقول لى أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هذا الذى أكتب رأى أراه ، ولكنه رؤية رأيها أو رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعها .

إن التاريخ الأدبي للرافعى يبدأ من سنة ١٩٠٠ ، وتاريخ ميلاده قبل ذلك
بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتى بالرافعى إلا سنة ١٩٣٢ ؛ فما كان من هذا
التاريخ فسأرويه من غيب صدرى أو مذكراتى وعلى تبعته ، وما كان من قبل
فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأذنين وخطأته منذ صباه ، أو كان مما قصه
على أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه .
فهذه مصادر على أقدمها بين يدى هذا الحديث ، ليعرف قارئه أين مكانه من
الصدق ومنزله من الحق ؛ على أن الذاكرة خون ، وما يميز على فكر
الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط
فى معلوماته شيئاً بشئ ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعى ورأى أنى
تصرف فيه بنقص أو تغيير أو تبديل ، فليجعلنى عنده بمنزلة من حسن الظن ؛
والله أسأل أن يجنبنى الخطأ ، وأن يوفقنى فيما أنا بسبيله .

محمد سعيد المرزبان

القاهرة فى { ربيع الأول سنة ١٣٥٧
مايو سنة ١٩٣٨ }

صورة

كان الرافعى رجلا كبعض من ترى من الناس ؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليلح له امتيازاً فى الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقرية .
بل لقد يشك الناظر إلى وجهه فى أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام !

وجه مسوح مستطيل ، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمره أهل مصر ،
فى وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله فى شفثيه ؛ وله عينان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس ، فما ترى لهما بريقاً فى عينيك ولا تسمع لهما همساً فى نفسك ؛
وجبهة عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعاً ما ، ثم تبرز مقوسة قليلاً إذا اقتربت من فروة الرأس ؛ وأذنان فيهما كبراً ما ولكنهما لا تؤديان عملاً ولا تقلان إليه معنى ، ومن ذلك كان قليل التلفت فى مجلسه ؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه متنفخ من أسفله . وكأنما صنعت له شفثاه ابتسامته الدائمة ، فلا ترى فيه مغلقاً أبداً إلا رأيته كأنما يحاول أن يحبس ابتسامته هاربة ، وتحمل شفثه شارباً كثيفاً أشبط ، تحيفته الأيام من أطرافه فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ...

وصوت عال رفيع "ببرات" ليس له لون ولا معنى ، تسمعه على أى أحواله كما تسمع صراخ الطفل : له عذوبته وقطريه ، ونغمته الحزن ونغمته الفرح عنده سواء !
وقائمة رياضية متناسبة بريئة من الفضول ، لا يشينها طول ولا قصر ، ولا سمن ولا نحافة .

وكان أشبط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين عريض المنكبين غليظ العنق قوى الكف والساعد ؛ مما كان يعالج من تمرينات الرياضة .
تلقاه في الطريق في يده عصاً لا يعتمد عليها ولكنه يهزها في يمينه إلى أمام ووراء ، ويتأبط يسراه عديداً من الصحف والمجلات والكتب ، ماشياً على خيد الطريق لا يميل ، واسع الخطو لا يتمهل ، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهيم باجتياز الطريق .

تلك صفاته الجسمية التي واراها التراب كما لاتزال في ذاكرتي ، أما صورته العقلية ، أما حياته ، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال ؛ فذلك ما سأجلوه في الفصول التالية إن شاء الله .

نسبه ومولده

الرافعي سوري الأصل ، مصري المولد ، إسلامي الوطن : فأسرته من « طرابلس الشام » يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ؛ وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجدته والأكثرون من بني عمه وخثولته منذ أكثر من قرن وهو في وطنيته « مسلم » : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : وطني ؛ فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنتم لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية ... » ، أو « الوطنية السورية ... » ، أو « الوطنية العراقية ... » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه داري من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم : هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر ، ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد .

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعي وبعض الأدباء في مصر^(١) ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه في وطنيته ، أعني مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه في ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ؛ ثم يقول : أفترأهم يتهمونني في مصريتي لأنني في زعمهم غير مصري وفي مصر مولدي وفي أرضها رفات أبي وأمي وجدتي ، أم كل عيبٍ عندهم في الوطنية أنني صريح النسب ؟ ... وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟ ومن أين مقدّمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

(١) هو الكاتب سلامه موسى .

ورأس أسرة الرافعى هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعى الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فى نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقہ فى الدين . وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعى ، قدمها فى سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية فى مصر بأمر من السلطان العثمانى فى الأستانة : وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الإمام أبى حنيفة فى القضاء الشرعى بمصر . ولم يُعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة و غلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس فى مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة ^(١) ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبى حنيفة ، حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم فى وقت ما أربعون قاضيا فى مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعى ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها فى بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية . وقد تخرج فى درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعى أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب فى مصر . ومن تلاميذهما الأدين المرحومان الشيخ محمد البحر اوى الكبير والشيخ محمد بنحيت مفتى الدولة السابق .

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس فى مصر أحد من ولده ومع ذلك تستطيع أن تحصى من آل الرافعى فى مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعى كثيرة الولد فاما منهم إلا من له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ، وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعى (والد المترجم) يملكون الآن واحداً وسبعين ولداً وبناتاً ، وقد مات المترجم وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولده منها أحد عشر ولداً وفتاة ، اقترط منهم واحدة فى سنتها الأولى وخلف عشرة !

ولما توفى المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الخفزية فى مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعى ، فدعاه الخديو عباس إلى تولّى وظيفة الإفتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرّج وخشية ، فلم يجد فى نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل فى الخصومات بين الناس ... فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفى نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يثول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته ... وتمت مراسيم التولية وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتى الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الخوذى ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فإذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى فى شئون العباد ... واستجاب الله دعاءه ... !

وأبو الأستاذ الرافعى هو المرحوم الشيخ عبد الرازق الرافعى ، كان رئيساً للحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعى . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرازق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفى طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه ، وفيها مات ودفن ، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعد فى بيت أبيهم ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لا يعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبعون عنها جولا . ولقد حاولت وزارة العدل (الحقانية) أكثر من مرة أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسعى سعيه لإنهاء هذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذى فيه رفات أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى (١) .

(١) كان للرافعى صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة ، وكان الرافعى إذا أمّ مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ =

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة في الدين وشدة في الحق ،
ما برح يذكرهما معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثاً ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي
من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في متجر جاره
وصديقه المرحوم حسن بدوي الفطاطري ، في شارع درب الأثر ، ودرب الأثر
يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففي عصر يوم من رمضان ،
كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينمط
الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى
اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطي أن يسوقه إلى « القسم »
لينال الحدة على إفطاره في رمضان في شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل
ولا شفاعة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم في (زقة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ
حدّه بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ، ولكن الشرطة ما كانوا
ليخالفوا أمر قاضي المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام ،
وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون ، وأحسب أن هناك
صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب

= مجلسه تحت (القبة) فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وعيناه مسبلتان ؛ فإذا
فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضي وماتزال شفاته
تتحركان بكلام . . . وكان بيت آل الرافعي القديم في طنطا قريباً من مسجد السيد
البدوي ، في حارة سيدي سالم ، وهي حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوي
أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ بضع مئات من السنين ، وكانت إلى عهد قريب
هي تجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوي واللادين به .

الشافعي ؛ وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة ، فقال : لأدرى ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول ما عرف من هذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم » :

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته ؛ ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتد به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كآبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على أنه كان قد اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي ، وكانت إقامته في بهيم من قرى مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير من سنة ١٨٨٠م^(١) ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها في دار أبيها .

وكانت أم الرافعي تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كآه فقدحها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت في أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا .

(١) لانعرف للرافعي (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد التي بماف خدمته في وزارة العدل (الحفانية) هي لآخيه المرحوم محمد كامل الرافعي ، وقد كنت أحسب مولده في سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يذكر فيها أن تاريخ ميلاده في يناير سنة ١٨٨٠ فيها أخذت هنا

علم وثقافة

لأسرة الرافعي ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بأنوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفا لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه. والقرآن والدين هما المادة الأولى في هذه المدرسة العريقة التي تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١). وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئا من القرآن ، ووعى كثيرا من أخبار السلف ، فلم يدخل المدرسة إلا بعد مجاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة في مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضيا إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، فسال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل .

ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدي خليل مفتش بوزارة المعارف (٢) ، وكان يدرس له العربية ، وكان الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة ، فكان الأستاذ مهدي يسخر منه قائلا : يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيري وغير الله يقرأ خطك ، وقد ظل خط الرافعي رديئا إلى آخر أيامه .

(١) كان الرافعي يتخذ في بيته امرأة قارئة حافظة . تقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن في وقت فراغهم من المدرسة وتقيم السننهم في تلاوته .

(٢) توفي سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعى وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبني مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم - وما أكثر ما كان يصحبني إليه إذا هبط القاهرة - وجلس وجئت معه في جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقى نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعى يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للرافعى حديث محدثه كتابية في ورقة ، وإنا كذلك والحديث يتشعبُ تشعبه ويلسرب في مساربهِ ، واجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعى واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدي خليل ، يبدو من طونه وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعى يطأطن له وينحن يهيم أن يقبل يده : ثم عاد إلى مجلسه فقال عليّ يقول في همس : ، هذا أستاذى مهدي خليل ... ، وكان في صوته رنة هي أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه "يسر" إليه ... ومضى الأستاذ مهدي غير عابئ ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يُغن السؤال عن هذا الزائر الذى نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعى طول اليوم .

وفي السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية - وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية - أصابه مرض مُشَفِّ أثبتته فى فراشه أشهراً - وأحسبه كان التيفويد فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثراً كان حبةً فى صوته ووقراً فى أذنيه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء 'توقر' أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى

يُلمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو ... فإن صوته ليتضاءل شيئاً بعد شيء ، حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعها الأخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فَعقد عقدة في جبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معا ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ضمت في حلقه حسنة تجعل في صوته رنيناً أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحييت أن تكون قهقهة ...

وكانت بوادر هذه العلة أتت أصابت أذنيه هي السبب الذي قطعه عن التعليم في المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد براجمها بنفسه وكان هو فيها المعلم والتلميذ .

وحظ الرافعي من الشهادات العلمية مثل حظ أبيه ، فإن الشيخ عبد الرزاق الرافعي على علمه ونضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للحكمة الشرعية في كثير من الأقاليم - لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر مانشب خلاف على بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ، فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لنير غرض تسعى إليه إلا أن يستكمل براجمه في جدال بعض العلماء .

وكان لأبي الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشماتاً من نواذر كتب النخبة والدين

والعربية ؛ فأكب عايتها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيهِ ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . . . وكان له من علته سبب يباعده بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى 'مجالسة أحد . . . وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه . . . وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية . . . وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث . . . وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس ، ففضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس . . . وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث . . . وقال لنفسه : إذا كان الناس يُعجزهم أن يُسمعونى فليُسمعوا منى . . .

وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجزُ بوسائله ليكون أديباً من أدباء العربية فى غد . . . !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه هى دنياه التى يعيش فيها : نائمها ناسه ، وجوؤها جوؤه ، وأهلؤها صحابته وخلانها ، وعلماؤها رُواتها ، وأدباؤها سُمّارها ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فمألفهم ؛ فنشأ بذلك نشأة السلف : يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفّه أفراحهم ، وتترأى له أحلامهم ومُنَاهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم - فإن حظه من العامية المصرية

كان قليلا ، وكان عليه أن يسألني أحيانا أو يسأل غيري من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يقع له من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك ، وكان يمزح معي أحيانا ويقول : « فلتكن أنت لي قاموس العامية . . . » .

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما في سورية ، وكان لم يسمع أكثر ماسمع في طفولته إلا منهما - فإن لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما يسمعون صوت أو كلمة على أن أصلهم سوري ، ولكنه كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النجمة على هذا الأصل وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم يجد على الراجح معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقل من القليل^(١) ، فنذ انتهى من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قويا ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء : على أنه كان يأسف أحيانا على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها في وقت فراغ : وهيات أن يجد مثل الراجح فراغا من وقته !

هذه ثقافة الراجح وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل على هذا الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

(١) كانت اللغة الأجنبية في مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هي الفرنسية ، ولم تدخلها الإنجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم .

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلاً يحببه ويستمتع لما يقوله ، ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول محدثه : « تعال نقرأ ... » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمتع الضيف ، فلا يكفّ عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمرّ في القراءة ...

وفي القهوة ، وفي القطار ، وفي الديوان ، لاتجد الرافعى وحده إلا وفي يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الإياب (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها في الطريق . وفي القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الإمام عليّ ، وكان لم يبلغ العشرين بعد ...

في الوظيفة

في أبريل سنة ١٨٩٩ عُين الرافي كاتباً بمحكمة طلمخا الشرعية ، بمرتبة شهرى أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية : وما كان الرافي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعى ؛ فتشأ بذلك نشأة الدلال في وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عميل أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى ، ولمكانته هو أيضاً ... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ ... هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم ...

وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة : فيها مغداه وإليها مراحه في كل يوم ، يتأبط حقيبته فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التذكير إن جاء في الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يُعينه على العيش ، ليفرغ لنفسه ويُعيدّها لما تهبأت له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافي في طلمخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا : وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهداً

وأكثر أجراً : وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعي في طنطا وإيتاي البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ،
وتاريخه في الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته
الأدبية ؛ ففي طنطا عرف الكاظمي شاعر العراق الكبير واتصل به وانهقدت
بينهما أواصر الود على ما سيأتي تفصيله : وفي إيتاي البارود تفتحت زهرة
شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى « جسر كفر الزيات » فيما بين
إيتاي البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينه الغطاء ليرى
ويحس ويشعر ويكون « شاعر الحسن » من بعد ؛ وفي طنطا كان نضجه وتماه
وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك
الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ؛ ولكنني أعرف أن روحاً رفاقة
كانت تُطيف به في تلك الأيام فتتزعج من وجوده الذي يعيش فيه لتحلق به
في أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها ، فتوحى
إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً ينقّس
به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره في الأدب ، وإليه كان آخر
ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

✱ ✱ ✱

وعرف حبيبته الأولى « عصفورة » فتعلم الحب ، ولكنه لم يتعلم مما
يسمع في مجالس الشبان كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التي يتداولونها
في مجالسهم فيتعلون الحب منها فناً له قواعد مرسومة وغاية محتومة ... ولكنه
استمع إلى وحي الحب أول ما سمع في همسات روحه ، وخليجات وجدانه ،

وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه فراح يفتقده ، وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى ... فهام بالحسن يُنشده شعره وينشد فيه مثاله الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة : أنت التى ...؟ فلا يستمع إلى جواب ، والصوت البعيد دائب يهتف فى أذنيه : إنى هنا ، إنى هنا يا حبيبى فاقصد إلى ...

لم يكن يحب إنسانة بعينها ينادىها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ، وفى كل طلمعة مشرقة بريقاً من فتنها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى الحببية النائمة فى قلبه وفى أمانه ... فضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عنيف النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر ...

لم ينس الرافعى إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رقت به سائحة من سوانح الماضى تُذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدى الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعى ، فإن للحب فى تاريخه فصلاً ضافى الذبول كثير الألوان متعدد الصور له مكانه المفرد فى غير هذا الباب ؛ ولكنى أتحدث عن الرافعى فى بكرة الشباب ، فما لى مندوحة عن الإمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعى فى بكرة الشباب .

عاش الرافعى لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيدته أغلال النظام الحكومى - كان إلى ذلك دقيقا فى عمله الرسمى دقة تبلغ الغاية ؛ وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شئ مما يُسند إليه ، حتى آل أمره إلى أن يكون المرجع فى هذا العمل لكتّاب المحكمة جميعا يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر فى تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتّاب المحاكم فى مختلف البلاد ، ثم لوزارة العدل نفسها وهى المرجع الأخير ، تكتب إليه فى زاوية مكتبه من محكمة طائفا تسأله الرأى فى حسبة أو إشكال أو شئ مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبذره فى منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه كل العبء من هذه الناحية فى محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن (يحال إلى المعاش) ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضى فى طلبه إلا رجاء موظفى المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان فى صلته بموظفى المحكمة الذين يشركونه فى عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيت مرة فى صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى وزارة العدل ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ فى تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص فى الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيهاً ؛ والرافعى يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به

أخلاق الرافعى : على حين لم يكن على الرافعى فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعاتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يحدد منزلته أو ينال منه أى نيل : وكان 'يسرف فى ذلك إسرافا يدعو إلى الشك أحيانا فى تواضع الرافعى وكرم خلقه وحسن تصرفه . من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدى عمله فى المحكمة - وعمله أن يحقق أخطاء الرافعى - كان الرافعى 'يلزم المفتش أحيانا أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه فى حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثانى من المكتب . وكنت فى إحدى هذه المرات جالسا إلى جانب الرافعى - وكان يستدنىني إليه ويشركنى فى عمله حين أذهب لزيارته فى الديوان - فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشد الرافعى ذراعى بعنف وهو يقول : . . . اجلس يا أخى . . . ووجه إليه المفتش سؤالا ، فالتفت الرافعى إلى قائلا : « من فضلك ، تولّ عن جوابه فإنه فى حاجة إلى معلم مثلك ! » .

لم يكن اعتداد الرافعى بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ فى كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأسباب يأتى تفصيلها .

وكان من تقاليد المحكمة كلما نُقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ ولكن الرافعى كان يتخلف عن وفد الموظفين ويظل وحده فى مكتبه ، فإذا فرغ القاضى أو النائب من استقبالهم مضى إلى مكتب الرافعى فى حجرته ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا

الاتفاق الذى هيا لهما هذا التعارف ... ثم يذهب إليه الرافعى بعد ذلك فى مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية - ومحكمة طنطا هى جزء من ديوان المديرية - لم تكن صلته بالرافعى صلة المدير الحاكم بموظف صغير ، فكانت بين الرافعى وكثير من المديرين صلات من الود والصدقة فوق ما يُعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلا واحدا كان أقرب قرابة إلى الرافعى من أهله ومن خاصته ومن تلامذته ... ، هو المرحوم (محمد محب باشا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعى ومحب باشا أثر كبير فى أدبه سنتحدث عنه فيما بعد .

لم يكن للرافعى ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحيانا كان يذهب فى التاسعة أو فى العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يُتم ما أمامه من عمل على الوجه الذى يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس فى هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل فى غيبته ، وقد لا يعود ...

وكان هذا منه يفضى زملاءه فى العمل ، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون خمه ؛ ويبلغه ما يتحدثون به فيبرز كتفه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزيمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح فى المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة ... ١

وحدث ذات مرة والرافعى فى صدر شبابه ، أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافعى ، فلما

سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ماتحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوهُ إليه ، فلم يجدهُ الرسول في مكتبه ، فغضب الرئيس وثارَت ثأرتُهُ ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي ؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان ، فهُز منكبه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء ؛ ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة العدل يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح ، على شدة اتصال عمله بالجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأى ... وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة !

وأرسلت وزارة العدل مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفي ناصف بك . ولم تكن بين الرافعي وحفي ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذي يجمع بينهما في أسرة أبولون ... وإلا ... وإلا كلمة قاسية كان الرافعي كتبها بأسلوبه اللاذع عن « شعراء العصر » في سنة ١٩٠٥ ، ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفي ناصف ذيل الشعراء ... وجاء حفي ناصف إلى الرافعي خيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال الرافعي : « قل لهم في الوزارة : إن كانت وظيفتي هنا للعمل ، فليؤخذوني بالتقصير والخطأ فيما يسند إلي من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال في الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بجبل حتى يحين موعد الانصراف ؛ فلا على إن تمرت على هذا التعب ... قل لهم في الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار ... » !

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا

صاحبه ومضى ؛ فلما كان فى خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة العدل يقول :
إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعينهم الوزارة بهذه القيود ...
إن للرافعى حقاً على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية . إن فيه قناعة
ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه ، دَعُوهُ يعيش كما
يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتن ويدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء
أن يدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخى فى غير هذا المكان !

وبلغ التقرير وزارة العدل ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد
المحكمة من بعد أن يغدو الرافعى ويروح لا سلطان لأحد عليه وله الخيرة فى
أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى
موضعه ذلك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعى لم تكن بينه وبين حفى ناصف صلة ما . ولكن حفى
تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا ، فتقاربا وتوثقت بينهما
أواصر الود ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛
فلا يمضى أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفى
والرافعى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعى وحفى من
التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ،
وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة
السكر ، وإن كانت فكاهة حفى أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ
القلب ، وفكاهة الرافعى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس .
ولعل روح الفكاهة فى الرافعى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم
حافظ إبراهيم من صلة الود والإخاء .

حدثني المرحوم جورج إبراهيم - صديق الرافعي وصفه منذ حدثته - قال:
لقد كانت الصلة بين الرافعي وحفنى أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا
يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان فى قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى
مجلسهما أحياناً . فكنت أرى حفنى يتواضع للرافعى ويتصاغر فى مجلسه ،
على مقدار ما يتشامخ الرافعى ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له الرأى
فى القضايا التى لم يدرسها حفنى بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعى !
ظل الرافعى فى وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله
الأدبية ، وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود
والبساط الممدود .. وما زاد مرتب الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الذائع
الصيت فى الشرق والغرب ، الموظف الصغير فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ،
على بضعة وعشرين جنيهاً فى الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة
فى وظائف الحكومة ...

على أن الرافعى كان له مرتب آخر من عمله فى المحكمة ، هو ثمن ما كان
يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه فى مكتبه
لعمل رسمى ؛ وكانت ضريبة فرضها الرافعى من طريق الحق الذى يدعيه كل
شاعر على الناس ، أو فرضها أصحاب الحاجات على أنفسهم التماساً لرضاه !
ليت شعرى ! أكان على الرافعى ملام أو معتبة أن يفعل ذلك ... ؟

شاعر الحسن

كَلِمَتِ الرَّافِعِيِّ بِالشَّعْرِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ ، فَمَا كَانَ لَهُ هَوًى إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا
كَبَعْضِ مَنْ يَعْرِفُ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ خَيْرًا مِمَّنْ يَعْرِفُ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ ...
وَكَانَ وَاسِعَ الْأَمَلِ ، كَبِيرَ الثِّقَةِ ، عَظِيمَ الطَّمُوحِ ، كَثِيرَ الْإِعْتِدَادِ بِنَفْسِهِ ؛ فَمِنْ ثَمَّ
نَشَأَ جَبَارًا عَرِيضَ الدَّعْوَى طَوِيلَ اللِّسَانِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ... وَبِهَذِهِ الْكِبَرِيَاءِ
الْأَدَبِيَّةِ الطَّاعِنَةِ ، وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ الْأَدَبِيِّ الْكَبِيرِ ، وَبِمَا فِي أَعْصَابِهِ مِنْ
دَقَّةِ الْحَسِّ وَسُرْعَةِ الْإِسْتِجَابَةِ لِمَا تَفْعَلُ بِهِ - بِكُلِّ أَوَّلِكَ تَهَيَّأَ لِأَنْ يَكُونَ كَمَا
أَرَادَ ، وَأَنْ يَبْلُغَ بِنَفْسِهِ هَذَا الْمَكَانَ بَيْنَ أَدْبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَإِذَا كَانَ الرَّافِعِيُّ قَدْ بَدَأَ شَاعِرًا كَمَا أَرَادَ ، فَمَا كَانَتْ لَهُ خِيَرَةٌ فِي الْمَذْهَبِ الَّذِي
آلَ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِ ، وَلَكِنَّا نَوَازِعُ الْوَرَاثَةَ ، وَعَوَامِلَ الْبَيْئَةِ ، وَدَوَافِعَ الْحَيَاةِ الَّتِي
كَانَتْ تَضْطَرُّبُ بِهِ وَتَذْهَبُ بِهِ مَذَاهِبَهَا .

لَمْ يَكُنِ الرَّافِعِيُّ يَقْدِرُ فِي أَيَّامِ نَشْأَتِهِ الْأُولَى أَنَّهُ سَيَنْتَهِي مِنَ الْأَدَبِ إِلَى هَذِهِ
الْغَايَةِ ، وَأَنْ الْحَيَاةَ سَتَرْدُهُ مِنَ الْهَدَفِ الَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الشَّعْرِ إِلَى هَذَا
الْهَدَفِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ فِي دِيْوَانِ الْأَدَبِ وَالْإِنْشَاءِ . وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنْ خَاصَّتِهِ
وَأَصْدِقَائِهِ لَيَعْرِفُ أَنَّ الرَّافِعِيَّ الشَّاعِرَ الشَّابَّ الَّذِي تَوَزَّعَتْهُ الصَّبَابَةُ ، وَفَتْنَتُهُ
الْحَيَاةُ ، وَتَقَاسَمَتْهُ لَذَاتُ الصَّبَا ، وَتَعَنَّاهُ الْهَوَى ، وَتَصَبَّاهُ الْحُبُّ وَشَعْرُ
وَالشَّبَابِ - سَيَكُونُ مَكَانَهُ فِي غَدِهِ هَذَا الْمَكَانَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَالذُّودِ عَنِ
الْعَرَبِيَّةِ وَالصِّيَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ وَمَا كَانَ هُوَ يَأْمَلُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ إِلَّا أَنْ
يَكُونَ شَاعِرًا تَصِيرُ إِلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الشَّعْرِ مَنْزِلَةٌ تُحْمَلُ ذِكْرَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ
مِنْ شُعْرَاءِ عَصْرِهِ .

ومضى الرافعى يسعى إلى غايته فى الشعر وقد تزود زاده من الأدب القديم،
ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلاً من شعراء عصره
يتند إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودى وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له
زعامة الشعر ، على مفارقة تاجه وفى يده ضو لجانه ، قد قوى واستحصد واستوى
على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان فى الشباب
والحدائث ، وكان جديداً فى السوق ، قد فتنه الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ
الرافعى ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر
وشعر ؛ فقرر فى نفسه أنه هو وهو ... وأنهما فى منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن
يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى فى ميدانه ، لا يكاد
حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعى : أنا وأنت ... وما فاته أن حافظاً يغالبه
بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانته من الأستاذ الإمام
وتمنزلته عند البارودى زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ، فراح الرافعى
يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودى ، وعقد آصرة
بينه وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدث فى المجالس ، وينشر فى الصحف ،
ويذيع اسمه بين الناس ، وانتهز نهضة فذهب يستطيل بأنه « شاعر الحسن » وبأن
حافظاً لا يقول فى الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما
من صفو المودات ، ولم تحن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعى وحافظ
صديقين حميمين ، منذ تعارفا فى سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله
فى سنة ١٩٣٢ .

ليس من همى أن أتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن ،

وشاعرية وشاعرية ؛ فقد يبدو لى هنا بُعد ما بين المنزلتين فى الموازنة بين الرافعى وحافظ فى الشعر ؛ وما يهمنى فى هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ، فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبتته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

فى إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعى وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعى يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمى ، ونشرت له الصحف غداة مقدّمه قصيدة عينية من بحر الطويل ، قرأها الرافعى فاستجادها ورأى فيها فنا ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فملكك نفسه وبلغت منه مبلغاً ، وقرر لساعته أن يسعى إلى التعرّف به ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعى يومئذ كاتباً بحكمة طامحاً ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمى فى القاهرة وهو يُمنى نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعى ويُجدى على أدبه . وكان فى الكاظمى - رحمه الله - أنفة وكبرياء ، فأبى على الرافعى أن يلقاه وردّه ردّاً غير جميل ، إذ كان الرافعى يومئذ نكرةً فى الأدباء ، وكان الكاظمى ما كان فى علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلّته وفقره ؛ واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعى وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمى ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعى مؤمناً بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنداز والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزاني والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها فى التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعى

بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في أوداد وأحب حتى لم يكن بينهما حجاب ،
وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء
المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ،
وتصادقا صداقة النظراء ، حتى إنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس
في سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعي يقول فيه : « ... ثق أنني أسافر مطمئنا
وأنت بقيت في مصر » .

هؤلاء الثلاثة : البارودي ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل من أعرف ممن
تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره . أما شوقي ، وصبري ، ومطران ، وغيرهم
من نشأوا مع الرافعي في جيل واحد ، فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة
تمتد إلى أيامه الأولى ، وما سمعت منه - رحمه الله - حديثا يُشعر بصلة خاصة
كانت تربطه بواحد منهم في حياته ، فلعل عند غيري من أهل الأدب علما
من العلم يُكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة .



بدأ الرافعي يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره في الصحف
وفي مجلات السوريين التي تصدر في مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى
ذلك الوقت في أيديهم ، فمجلة الضياء ، والبيان ، وأثرها ، والزهور ، والمقتطف ،
وسركيس ، والهلل ، وغيرها - كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية :
كالبيستاني ، واليازجي ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس ، وغيرهم ؛
وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفى والتاريخ . أما أدب
الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب المرحوم جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن

الرافعي في أول عهده بالشعر : قال :

« بدأت صلتى بالمرحوم الرافعي قريبا من سنة ١٩٠٠ : كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمي معروفا لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعي أو أسمع به ؛ وكان لأخيه الوجهه سعيد الرافعي متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت يوما أشتري شيئا من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شجرة : فلما صرت إليه ، لقيتُ هناك فتى نحىلا في العشرين من عمره ، يلبس جلبابا ، جالسا إلى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رآني الفتى حتى ناداني فدعاني إلى الجلوس ، ثم قال لي : أتعرف أنى شاعر ؟ قلت : لا ، لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعي ، وهذه الكراسات كلها من شعري . وعرض عليّ بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلا : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجودَه وأمزق الباقي ، وسأطبع ديواني بعد قليل فتعرفني !... »

قال : « وعرفت الرافعي من يومئذ ، وقويتُ بيننا الصلة حتى صرتُ أدنى أصدقائه إليه : يقرأ عليّ شعره ، ويستمع إلى رأيي فيه ، ويستشيرني في أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثتُ حتى أعجبت به وأحللته من نفسي أرفع محل من الحب والتقدير . »

* * *

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه في المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقائه يومئذ صفوة من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب جورج إبراهيم ، والصيدليان : نسيم يارد ، وإلياس عجان ،

والطبيب تودرى ؛ وكانوا يتخذون مجلسهم عادة فى وقت الفراغ فى صيدلية « كوكب الشرق » بطنطا .

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعى يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء فى حينها ، وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحى . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكاليل الشاء . والرافعى غيور شمس ، فما هو إلا أن رأى مارأى حتى عقد العزم على إصدار ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التى أحدثت كل هذا الدوى ، فإن على الرافعى أن يحاول جهده ليلبغ بديوانه ما لبغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسروا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ !

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعى فى الموعد الذى أراد بُعَيْد ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فَحَلَّ فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ؛ وهى ، وإن كانت أول مانعرف مما كتب الرافعى ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوى الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحى ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ إبراهيم اليازجى على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعى على كتابتها .

قال الأستاذ جورج إبراهيم :

« لما هم الرافعى أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى فى جلبابه والحر شديد ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألتنى أن أهيم له مكانا رطبا يجلس فيه ليكتب المقدمة ،

فجلس في غرفة من الدار ، ثم تخفّف من لباسه ... واقعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتبّها للكتابة ؛ فحذّرتَه أن تنال منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي ... فينشط رأسي ... ثم استمرّ في مجلسه يكتب وليس معه ولا حواله من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدّمة في ساعات ...

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخةً منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي ، والشيخ اليازجي يومئذ أديب العصر وأبلغ منثى في العالم العربي ، وكان الرافعي حريصا على أن يسمع رأي اليازجي في شعره وأدبه . ومضى زمان ولم يكتب اليازجي ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدّمته بالنقد أو التقريظ ، واحتفل به « المؤيد » احتفالا كبيرا فنشر مقدّمته في صدره ، والمؤيدُ يومئذُ جريدةُ العالم العربي كله .

قال : « واستعجبتُ أن يهمل أستاذنا اليازجي هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعي لذلك غما شديدا ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد لا يُغني عن كلمة يقولها اليازجي ؛ فذهبتُ أسأله ، فقال لي : أنت على ثقة أنّ هذه المقدّمة من إنشاء الرافعي ؟ قلت : هو كتبها بعيني فما أشك في ذلك . قال اليازجي : وأنا ما أبطأتُ في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانّها من كتب العربية ... قلت : ياسيدي ، إنه ليس بشيخ ، إنه قتي لم يبلغ الثالثة والعشرين ... » .

وكتب اليازجي بعد ذلك في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء في تقرّظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي :

«... وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهبا عزيزا في البلاغة . وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، في كلام تضمن من فنون أنجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه ... » .

ثم انتقد اليازجي بعض ألفاظ في الديوان ، وعقب عليها بقوله :
« ... على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ، لأن المرأة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضنا بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجليين في هذا العصر ، ومن سيحللون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر » (١) .

بلغ الرافعي بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذي أراد ، واستطاع بتير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر في سنة ١٩٠٤ الجزء الثاني من الديوان ، وفي سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفي سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ، متصرفا في فنونه ، ذاهبا فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفا إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعي الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره

(١) لا يعني أن أقل هنا ما كتب أهل الأدب في الرافعي ، وإنما أثبت هذه القطعة بخصوصها لما كان لها في نفسه من تأثير بليغ .

براقا تتلمع أضواءه وترمى أشعتها إلى بعيد ، ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول :

«... أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحق به الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل» .

وكتب المرحوم الزعيم مصعبني كامل باشا يقول :

«... وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان» .

وكتب حافظ ، وقال البارودي ، ونظم الكاظمي ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعي الشاعر . وظل هو على مذهبه ذلك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذي كان يرمى إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة في الأدب سنتحدث عنها بعد .

ليس كل شعر الرافعي في دواوينه ، وليس كل ما في دواوينه يدل على فنه وشاعريته : فالجيد الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر ؛ وقد كان في نية الرافعي لو أمهلت المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه ، ثم يخرج منها وما لم ينشر ديوانا واحدا مهذبا مصقولا ، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين ؛ ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقي عمله تراثا باقيا لمن يشاء أن يسدى يدا إلى العربية يُتم بها صنيع الرافعي .

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ، ولكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة .

شعراء عصره

قدّمت الحديث عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم أو جرى معهم على سنن ، وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهمت غيره الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة ، بعقد الأواصر وإنشاء المودات والدعاية لنفسه ؛ ثم بينت ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟ على أن الباحث لا يقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي "شاعر في أول هذا القرن وأوله حافل بثلة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ، فمالم يبلغ تأثير الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هذا أضحى من المعنى نفسه أن يتحدث عن شعراء عصره ، وما حديثه هذا إلا طريف من التلميح إلى أن يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه ، وأنه لم يكتف عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويبدأ من هو الرافعي ويعلم أنه وشدته في النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما ذكره الرافعي في التلميح .

لأنه كان من شعراء عصره ، ومن الخصومات الأدبية أشهر شهرة من الخصم مع الرافعي ، فالتلميح به في النقد ، فالتلميح به في النقد ، وبين الرافعي

والعقاد ، وبين الرافعى وعبد الله عفيفى ، وبينه وبين غير هؤلاء - هى خصوصية مشهورة مذكورة فى موضعها من تاريخ الأدب العربى فى هذا الجيل ، مشهورة مذكورة فى موضعها فى تاريخ النقد فى العربية .

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعى الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه فى النقد ، شدة حبيته إلى الكثير ، وألبت عليه الكثير : على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعى فى النقد فليقرأ مقال الرافعى « شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ » .

نشر الرافعى مقاله ذاك فى عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع () وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه من الدعاية لنفسه فقد جعل نفسه فى الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعى من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب : الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ ، والرافعى ...

والطبقة الثانية على الترتيب :

صبرى ، وشوقى (١) ، ومطران ، وداود عمون ، والبكرى ، ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ، ثم ... حفى ناصف !

وفى الطبقة الثالثة :

الكاشف ، والمنفلوطى ، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبى ، ونسيم .

(١) لم يثبت الرافعى طويلا على هذا رأى فى ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه فى آخرته .

ثم الحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ،
ومحمد النجفي .

وقد افتتح الرافعي مقاله بما يأتي :

« قرأت في بعض أعداد « الثريا » كلمة عن « الأدب قديما وحديثا » فقلت :
كلمة مألوقة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غمر على الشعراء ، كان
رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما شدخ بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم
الشعر فأسر ، وأقرأ عنه فأسر ، فإلى لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون
في أسماء الشعراء كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر
أولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير !

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن
كنت أعلم أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمة كما لو كانوا أميين
لم يقرءوا فاتحته ، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف
الاسماء ؛ فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع ؛
على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحاب القليلين ، وفي سجل
بعض الجرائد والمجلات ، فليظني القارئ ما ضرب على رأسه الظن
وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ، وأقطع
عليه رأبي ، فإما وسعه فأكمل به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو عند
نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم
بالشعراء عادتنا المألوفة ، ..

ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبسا من شعره مستشهدا به
على ترتيبه في موضعه من طبقته .

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ .

« ... وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تستقيم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للبعى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون « شوقي » عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر - يعنى نفسه - كما أسمع عنه ، فإنى أكون قد ظلمته إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ^(١) ، ولذلك فإنى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان قتي أو كهلا ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظم في عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة « الجامعة » تقريرا مسهباً جداً للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم فى الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« وما أمتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزىة أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

(١) مقتضى حساب السنين على هذا القول ، أن يكون مولده سنة ١٨٨١ ، وقد

ذكرنا من قبل - نقلاً عن بعض ما كتب بخطه - أنه ولد فى سنة ١٨٨٠

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقي بك ثانياً الطبقة الثانية وهو هو ، شوقي بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية ، ولكننا نعجب أكثر منه إذا رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكلات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قَضَى أَرَيْحَى القوم ، وغيرها . ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن « صبرى وسلمان » كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمى فى العراق ، والبارودى فى سيلان ، وصبرى من مهذبى شعره على ما يقال ، وحافظ فى السودان ، والرافعى لم يقل الشعر بعد - على ما قيل لى ١ - وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية ، على نحو ما يذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »
وختم المقال بقوله :

« وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكننى أطلب إليهم أن يُخَفِّضُوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأى ، فليق كل فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »
وذيلته جملة « الثريا » بما يأتى :

ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالة بكر آلم يُنسج على منوالها بعد فى العربية ، حَرِيَّةٌ بأن تُصدَّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يرو عنك شدة لهجتها ، فكلمها حقائق ثابتة ؛ وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفـ

للجميع ؛ وما إخال أحدا يستطيع أن ينقض حرفا مما كتبه ، وإن هم
لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارا بأننى أنزلت كل شاعر فى
المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا : فانظر إلى ما قيل
وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبك مقالتي فانشرها وإلا فاضرب بها عرض
الحائط . وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ،
سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فإن الموضوع طلى شهى ، وفى إطلاقك
الحرية للكتاب ما ينشط بهم حرية الجولان فى هذا المضمار ،

قالت الثريا : وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب ، وبتنا نقدم
رجلا وتؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ؛ إن لم يكن
لشئ . فلكثرته ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء
مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير
متحملين تبعتها ؛ وللكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب
بكل ما يرد لها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم .

« ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهتّم ، ومن لا يظلم الناس يظلم^(١) »

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر : وقد تحدث
عنه المرحوم الرافعى مرة فى بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلمات عن
حافظ) وصف فيها أثره وما حدث من ضجة بين الشعراء فإيرجع إليه من شاء
وانظر الجزء الثالث من وحي القلم ، .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك
أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفا لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب
الرافعى لا يخفى على أحد من قرائه .

وقد كتب الرافعى فى كلماته عن حافظ أن هذا المقال نشرته الثريا سنة ١٩٠٣ وهو
سهو حقيقته ما ذكرت .

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسع ، قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح .

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعى فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى نشبت بين الرافعى ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا .

ثانياً : إنه ثبت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ، ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم ، أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء .

ثالثاً : إن فى هذا المقال لونا من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعى لنفسه ليلبغ الهدف الذى كان يرمى إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد ؛ فإن فيه شيئا من أخلاق الرافعى المزهو بنفسه ، المعتد بعلمه ، القوى بإيمانه ، المتعجم على مواطن الهلاك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء الغالقة على القمة : انزلوا إلى أو أضعذ إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء

عزقة ليس فيها عضو إلى عضو ، ولا يُسمع لكم صرخ . . . !

لقد كان الرافعى طويل اللسان من أول يوم . . . !

بين أهد

• إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله ، مسدد الخطا إلى الهدف
الذىرمى إليه ؛ فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتبها ! •

إننى لأعرف - فيمن أعرف - أحدا تنطبق عليه هذه الحكمة انطباقها على
حياة الرافعى : فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى وعرف طرفا من
حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها
فى بيته ؛ فإلى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء
الذى هياها لدراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله
عنهما شاغل مما يشغل الناس من شؤون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى فى الرابعة والعشرين من عمره ؛ ونزواجه قصة فيها طرافة
وفى مجال للفكر والنظر ؛ ومادمت قد أخذت على نفسى أن أكتب عن الرافعى
فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعى ؛ ولا
أحسبني بذلك أتجاوز ما لى من الحق أو أتعرض لعبث أو ملامة ، فقد خرج
الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء .

وزوج الرافعى مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقي المعروفة فى (منية
جناح - دسوق) وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب « البيان » (١) :
وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوقي هى أول السبب
فى هذا الزواج .

حدثني المرحوم الرافعي قال : ... كنت في الرابعة والعشرين ، وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقي نوعاً من المعرفة التي تربط بين شابين ترافقاً في الطبع ، واتفقاً في الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الإمام ، إذ كان من تلاميذه الأذنين « وكنا نلتقي أحياناً ؛ فسرني منه مأسره مني : وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين ؛ إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عزٌّ وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له - وكان لي - أصفي ما يكون الصديق للصديق ...

لم أكن أعرف له أخاً أو أختاً ، ولم يجر في بالي قط أن الصلة بيننا ستجاوز ما بيننا ، حتى كان يومٌ جلست فيه أتحدث إلى نفسي ، فكأنني سمعت صوتاً من الغيب يهتف بي أن صديقي عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجي ... وانتهت وأنا أسأل نفسي : أله أخت ؟ ياليت ... ! لو كان إنني إذاً من السعداء ...

« وكانت نفسي في الزواج ، فما هي إلا أن تحرك في نفسي هذا الخاطر حتى سعبت إلى صديقي عبد الرحمن ، وقلت له وقال لي ، وجرتنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبي : من لي يا أخى بالزوجة التي أريد ؟ ووصفتُ له الفتاة التي تعيش في أحلامي ؛ فلما فرغتُ من حديثي قال صاحبي : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هي هدية أقدمها إليك . قلت : من ؟ قال : أختي ! » .

قال الرافعي : « وغشيتني غشية من الفرح ، فما تلبثتُ حتى مددت إليه يدي فقرأنا الفاتحة ، وما وقع في نفسي وقتئذ أنني أمد يدي لأخطب عروسي لنفسي ، ولكنني أمدتها لأتعرف إلى العروس التي خطبتها على الملائكة وأثبتتُ نبأ الخطبة في لوح الغيب » .

وبني بأهله ، وعاشا هنا ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة - ثلث قرن -

لم يدخل الشيطان بينهما ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة ...

قال الأستاذ جورج إبراهيم : لقد حضرت عرس الرافعى ، وصحبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدتُ اضطرابه وخجلته . واستمعت إليه من بعدُ يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه ، فاشكا إلى مرة واحدة همأ ناله ، ومضى عام ... وجاءت ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافعى كان ينمّ على سر بطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد عزمْتُ على أمر ... سأطلق زوجى ! وراعنى هذا النبأ ونال منى ! قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إنّ إخوتها يحدون حقها في تركه أبىها لا يريدون أن تستمتع منها بشيء ... قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ! قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ ... مصطفى ، إنك جبار ، أو لا فاذكر أنّ الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعى : أو لا هذا ولا ذاك ، فاذكر أنّ أهل « طرابلس الشام » لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد ... فيمكن بعض أهلك يا صاحبي ...

قال : وأطرق الرافعى هنيهة ثم قال : أحسب أنني أفعلها ... ! ؟

قال : ولم يدخل الشيطان من بعدُ بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه ... ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضى شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

* * *

كان الرافعى يعيش في بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب ؛ وما كان منكورا لأحد من أهله أن

الرافعى ليس موظفاً كسائر الموظفين : عمله فى الخارج وحسب : بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضا عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان فى بيته كالمملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش فى جو من الاحترام والرعاية والطاعة فوق الأحزاب وفوق المنازعات : فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أى شغل أو تشغى على هدوئه وتُعكر صفوه : فكان خالصاً لنفسه ، منقطعاً لفنه وعمله الأدبى ، فدار كتبه له هو وحده ، وطعامه مهياً فى موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممد فى موضعه لساعته ، ونظامه الذى يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعى مضبوط .

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجته وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء . وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعى : إذ يتصاغر لهم ويناغيمهم ويدللهم ويبادلهم حبا بحب ، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالى أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ناصحاً برفق حين يحسن الرفق ، مؤدباً بعنف حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان .

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فإن واجباً على أن أتحدث هنا عن شئ من « حب الرافعى » ، أراه يتصل بهذا الموضوع :

فى فترة ما من حياة الرافعى - سيأتى الحديث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد - كان للرافعى هوى وغرام ، ووقع له فى هواه ما يقع للحبيبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه مادافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا ههما على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه .

وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريق وينلبنى على إرادتى ؟
إن فى بيتى امرأة أحبها وتحببى - والحب عند الرافعى لا يأتى الشركة - وإن لها
على حقاً ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى !
ماذا يكون من أمرى وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟
أقول لها : نعم قد ضيعتُ حقك وأعطيتُ من قلبى الذى لأملك لمن لا تملك ؟
ويلي ! إنها الخيانة والإثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، وأفضى إليها بخره وكشف لها عن نفسه
ثم قال : وأنت يازوجتى ، هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولكن ...
واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة ... ثم أذنت له ... وكتب الرافعى رسالته
الأولى إلى صاحبه التى غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطأوتها وأرسلت
بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبه فقرأته زوجته كما قرأت رسالته . وصار هذا دأبهما
من بعد ... لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه فى
ذلك ملامة ما دامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف فى الأدب العربى تم بها نقص العربية
فى فلسفة الحب والجمال ، هى « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » و « أوراق
الورد » ؛ ولكن أحدا لم يقرأ القصة الأخرى ... قصة هذا الوفاء وهذه التضحية
لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الكتب فى فلسفة الجمال والحب ... !

من الشعر إلى الكتابة

ملكة الإنشاء . إنشاء الجامعة المصرية . تاريخ آداب

العرب . إبحار القرآن . حديث القمر . شيوخة في الأدب

بلغ الراجعي الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ،
وجرت ربحه رُخاءً إلى الهدف المؤمل ، فامتد نظره إلى جديد ...

وأخذ يرّوض قلبه على الإنشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع
مقالات مصنوعة فتنته وملكت إعجابه ، قهياً لأن يُصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء
سماه « ملكة الإنشاء » ، يكون نموذجا للتأديين وطلاب المدارس ، يحتذون فنه
وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه . وأحسبه كان جاداً فيما وعد
لولا أمور نشأت من بعدُ وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين
قراءه حتى نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الراجعي بعدم نشر هذا الكتاب ؛
وحسبُ الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذي
لم يُنشر ، مقالات ثلاثاً نشرها الراجعي في الجزأين الثاني والثالث من ديوانه ،
وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلانا ونموذجا لكتابه ؛ فإن في هذه المقالات
الثلاث كل الغناء للباحث ، تدله على أول مذهب الراجعي في الأدب الإنشائي ،
وطريقته ونهجه ^(١) .

(١) تقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » ، وفي الجزء الثالث
ص ٨٠ « رسالة فكاهية » ، وفي ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع » .

إنشاء الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعى كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » ، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه . فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٧ كان قد مضى على الرافعى يومئذ عشر سنين فى مدرسته التى أنشأها لنفسه وكان فيها المعلم والتلميذ ، يدرس ويطلع ويتعلم لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالماً فى الأدب ، أو راوياً فى التاريخ ، أو أستاذاً فى فرع من فروع المعرفة ؛ وإنما كان يدرس ليتزود للشعر زادّه ، وليلبغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشئ . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلع إلى ما يقال هناك فى دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذى يتشوف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟

مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً فى الأدب يفتقر إليه الرافعى ، وما تحدث أساتذتها حديثاً فى الأدب لا يعرفه الرافعى . ماذا ؟ أهذا كل ما هناك ؟ ... وأيقن الرافعى من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ...

وطال انتظار الرافعى وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب ، وما استطاع الرافعى أن يقنع نفسه بأن فى الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ؛ فكتب مقالا فى الجريدة يحمل على الجامعة وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب فى الجامعة . ورن المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب فى (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة للفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعة أشهر .

وقرأ الرافعى دعوة الجامعة ، فمارضى ولا هداأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء مُغر لمثل الرافعى الأديب الناشئ ، والموظف (٥ - حياة الرافعى)

الصغير ، والزوج العائل : أبى وهيبة وسامى ومحمد ؛ ولكنه كان يطمع فى أكثر من مائة جنيه ، ويطمع فى أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة .

« إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم ، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فإذا طُبِع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر... ؟ »

« لم تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهورُ مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتبس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجامعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكفّ يهون على الرقاب ؟ ، (١) وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ؟ إنه فنٌ لم يتناوله أحد من قبل . وإن مراجع البحث لكثيرة ، وإن من وراء ذلك جهدا لا يطيقه إنسان ! وكتب الرافعى مقاله الثانى فى « الجريدة » ينعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبى على الدعوة التى دعت ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فصالة سبعة أشهر ، إنما مَسَّتْ بهم الحاجةُ إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه ، فالتسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة ... ومضى الرافعى يتجنى ويتدل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر . وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدة إلى سنتين ، والجائزة

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه .

إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .
ووجد الرافعى بذلك ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه ...

تاريخ آداب العرب

إن كثيرا من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعى بيدٍ على العربية أويروا له صنيعا في الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » ، وإنه لكتاب حقيق بأن يُذكر فيذيع فضل الرافعى على الأدب والأدباء .
انقطع الرافعى لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذى عينته الجامعة .

لم يكن الرافعى طامعا في جائزة الجامعة ؛ ولذلك لم يتقدم إليها قبل طبعه ، ترفعاً عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .
وكان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعى ، « سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقا مطبعيا » (١) .

وكانت مقالات الرافعى في « الجريدة » ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك في وضع ما وُضع من الكتب في هذا العلم .

وأعان الرافعى على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكنت ثلاث

بطنط ، كتب حافل بالنادر من كتب "عربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هي : مكتبة الرافعي ، ومكتبة الجامع الاحمدى ، ومكتبة القصبي (١) .

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير "العربية" الأديب المرحوم محمد محب باش من معونات أدبية ومادية ...

ليس من همي هنا أن أتحدث عن "قيمة الأدبية لكتاب الرافعي" تاريخ آداب العرب ، فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، ومامنهم أحد إلا له فيه رأى محمود وثناء مستطاب ، ومات له أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية يومذاك ، إذ قال فى مقال نشرته له « الجريدة » سنة ١٩١٢ : « ... هذا "كتاب الذى تشهد الله على أننا لم نفهمه ... » لكنه عاد فصّح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ . فاعترف بأنه لم يعجبه أحد من ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتقال "شعر وإضافته إلى المقدمة . كما فطن لأشياء أخرى قيمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب (٢) .

نال الرافعي بكتابه هذا مكانا ساميا بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتا غير قليل ، وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

(١) هي المكتبة التى أنشأها وجمعها المرحوم الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الاحمدى قبل المرحوم الشيخ الطواهرى الكبير .

وقد حدثنى عنها أبى ، كما حدثنى عنها المرحوم الرافعي ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادير المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية . وهى الآن محبوسة فى حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء ، من حجرات زوايا القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد ، لعدم عناية القائمين عليها وجعلهم قدرها ، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها ، فإن هناك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها ، وحسب العربية ما لقيت من أهملها فى عصور الجهل والانهطاط .

(٢) ص ٩٠ و ٩١ فى الشعر الجاهلى وص ١٩٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين

أسبوعا يخطب عنه في مجالس العاصمة (١) وقد كتب عنه مقالا ضافيا في الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا ؛ وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل . . . وأما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنني وأنا أقرأه أقرأ من قلم المبرد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظا سابعة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تؤدي ببعض أجزائها . . . » .

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان - وهو أشهر كتّاب العربية في ذلك الوقت - (٢) مقالة في صدر المؤيد جاء فيها : « لو كان هذا الكتاب خطأ محجوبا في بيت حرام إخراجة للناس منه ، لآستحق أن يُحجَّإ إليه ؛ ولو عُكِف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار ، لكان جديرا بأن يُعكف عليه ... » .

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب .

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع ، وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين ... !

وفي السنة التالية ، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ،

(١) عبارة الأستاذ لطفي السيد إلى الرافعي .

(٢) توفي في ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

وموضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم « إعجاز القرآن » ، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية ، وقد طبعه على نفقته المغفور له الملك فؤاد رحمه الله . ومات الرافعى وفى مكتبته أصول الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ، ومعها تعليقات كان ينوى إضافتها إلى الجزء الأول فى طبعته الثانية فعاجلته المنية ^(١) .

هل كان للرافعى خيرة فى المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ما شرع يكتب « تاريخ آداب العرب » ؟ .

وهل كان يعنى ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر ، إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء ؟

هل كان عن قصد ونية أن يتخلى الرافعى عن أماني الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويعوص على فرائدها ، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم ؟ ...

الحق أن الرافعى لم يكن له خيرة فى شيء من ذلك ، ولا كان يعنيه ، ولا توجهت إليه نيته ؛ ولكنه ألّف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابه إلى الناس ، لم يلبث أن ارتد إليه الصدى ما يقول الناس ؛ فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، وإذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتّاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذى يكتب

عن إعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ،
حديث قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطقُ بيبين . . . ووجد
الرافعي كأنما اكتشف نفسه !

وهنا بدأ الرافعي الكاتب الذي يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ
الرافعي الشاعر يتصاغر ويحتفي رويدا رويدا حتى نسيه الناس أو كادوا ،
لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغانيه العذاب ،
ثم ترك دنياهم إلى العالم الثاني ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ .

لقد عرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها بين أدباء الجيل ، وأن له
غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون
لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وأن ينفخ
في هذه اللغة روحاً من روحه يردها إلى مكانها ويرد عنها ، فلا يجترئ عليها مجترئ
ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف
عن دخيلته .

ونظر فيما يكتب الكتّاب في الجرائد ، وما يتحدث به الناس في المجالس ،
فرأى عربية ليست من العربية ، هي عامية متفاححة ، أو مُجمّعة مستعربة ، تحاول
أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألستهم ، فقرّر في نفسه أن هذه اللغة
لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب
الكتّاب وينشئ الأدباء ؛ وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلبه لذلك إلا أن يتزوّد
له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعي يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتّاب وأنشأ المنشئون
في مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المتقاة ، واللفظ

الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافي ؛ لتكون له عوناً على ما ينشئ من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية .

* * *

هذا سبب مما عدل بالرافعى عن مذهبه فى الشعر إلى مذهبه الجديد فى الأدب والإنشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعى يصرّح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى فى الشعر العربى قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرّة فى نفسه . هكذا كان يقول هو ، 'وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التى يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعى . والحق أن الرافعى بطبعه شاعر فى الصف الأول من الشعراء لا أعنى الشعر المنظوم ، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذى هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان - رحمه الله - بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنىّ المصنوع ، فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معانى السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلاً : « أسمعت هذا الشعر ؟ أرأيت شاعراً فى العربية يملك من قوّة البيان ما يجمع به كل هذه المعانى فى قصيدة منظومة . . . ؟ »

هذه العبارة التى كان يسمعها جلساء الرافعى كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعى : إن فى الشعر العربى قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن

نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ، ولا يُعجزه البيان في المنشور . نعم ، كان شعر الرافعى أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ...

أفترى في العربية شاعرا يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من «أوراق الورد» في قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويخل بالميزان ؟ .

لا أحسب أن الرافعى كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود في الشعر العربي من أسباب الضعف في الشعر : فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأي ، بل أحسبه في بعض نقدااته الأدبية أنكر مثل هذا القول على أديب من الأدباء وراح يتهمه بمحاولة النض من قدر الشعر في العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصريح به .

* * *

ذلك هو السبب الثانى الذى عدل بالرافعى عن الاستمرار في قرص الشعر معنياً به مقصوراً عليه .

لم يهجر الرافعى الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كلَّ هم ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعتة داعية من دواعى النفس أو من دواعى الاجتماع . وسنرى فيما سياتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما هس الحب قلبه واتقدت جذوته في أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعته نفسه ؛ وعند ما اتصل بـ يلاط الملك فؤاد - رحمه الله - سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

حديث القمر

قلت إن الرافعي بطبعه كان شاعرا ، ولكن شعره كان أقوى من أدواته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ، فنزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء ، لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجا في هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت في أول هذا الفصل أن الرافعي كان على نية إصدار كتاب مدرسى سماه « ملكة الإنشاء » يكون عوناً للمتأذين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء . فذلك بعض ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » ، من بعد .

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان في سنة ١٩١٢ ، عرف فيها شاعرة من شواعر لبنان ، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل في الحب ^(١) ؛ فلما عاد من رحلته ، وجد في نفسه حاجة إلى أن يقول فقال ، فكان حديث القمر !

وهو أول ما نشر الرافعي من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بي أن أصفه لقراء العربية ، فهو مشهور متداول وهو أسلوب رمزى في الحب ، على ضرب من النثر الشعري ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب قفى مصنوع لا أحسبه مما يُطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام ، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام في لفظ جزل وأسلوب بليغ .

(١) نتحدث عنها فيما بعد ، عند الحديث عن الرافعي العاشق .

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرارٍ فى الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم .

شيوخه فى الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعي فإنى أسأل نفسى : عمن أخذ الرافعي هذا المذهب فى الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامى والمحدثين ؟ هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثنى به الرافعي أو أخذت من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً فى هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظنى أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذه فى الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطورات الزمن هى ردتته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب بمذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكنى أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغاني ، وكان يُعجب بأدبهما ويُعجب لإحاطتهما بعجبا لا ينقضى وإعجاباً لا ينتهى ، وكان لا بد له حين يهتم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه فى فكره أو فى مذكرته - أن يفتح جزءاً من الأغاني ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترةً ماقبل الكتابة فى جو عربى فصيح .

وأحسبه إلى ذلك قد تأثر كثيرا في صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلتي « الضياء والبيان » .

ومما لا يفوتني إثباته في هذا المجال أن مجلة « الهلال » قد استفتت أدباء العربية يوما منذ سنوات ، في أي الكتب العربية تُعين الأديب الناشئ على مادته ؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي .

وسمعتة مرة يقول : إن كلبة قرأتها لفكتور هو جو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسى : قال لى الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهو جو تعبيرا جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسائها الملائكة بالليل » .

قال الرافعي : « وأعجبتنى بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حذوئى من بعد فى الإنشاء » .

أفيحق لنا بهذا أن نزعّم أننا عرفنا واحدا من شيوخ الرافعي فى الأدب والإنشاء ... !

فى سنوات الحرب

كان الرافعى - رحمه الله - شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقصر عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسـه الحياء . وقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيرا من المأسى الفاجعة يسأله أصحابه الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبا ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها ، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل .

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فلم يكن ضحاياها فى مصر بالجوع والمترية أقلّ عديدا من ضحاياها هناك فى الميدان . . . كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا ، فوجدته جالسا فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية . . .

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد مُحلت إلى الميدان لتخزن فى دار المئون وقتا ما ثم تقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رمادا فى الهواء . . .

ونظر الرافعى حواله فارتدَّ إليه البصر حسيـرا مما يرى ويسمع ، فاحتبس

الدمع في عينيه ، ولكن قلبه ظراً يتحدث بمعانيه .
ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ،
وتتشكل صورته ، وتحشد آثاره ؛ والرافعي دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل
ما يحمل من همّ الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض .

* * *

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالآلم ، يحس الإنسان كأنه شيء
له في نظام الكون إرادة وتدير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت
في طريقى ... ؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل : ربّ ، لم كتبت على هذا ... ؟
لماذا حكمت بذلك ... ؟ لماذا قدرت وقضيت ... ؟ ما حكمتك فيما كان ... ؟
ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن ... ؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفىء إلى الرضا ، فيعود
معتذراً يقول . رب ، لقد ظهر حُكمك ودقّت حكمتك فغفرة وعفوا ... !

وقفل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع
الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم
أبداً في حيرة وضلال .

في لحظة من تلك اللحظات ، أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر ، وفي
رأسه خواطر يموج بعضها في بعض ؛ ثم فأت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول :
« ربّ ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك ... ! » ، وأفاض الله عليه ورفع عن
عينه الغطاء .

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ،
ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ، ولكنه كان يتسم ،
وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ليتهم وليتي ... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله

فى شىء من أغلاط الناس !... كل شىء فى هذا الكون العظم ىجرى على قدر
منك وتدير حكيم ا .
ثم شرع يؤلف كتابه « المساكن » .

كتاب المساكن

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف
فى المنشور ، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء ، ويعرّف به الرافعى فى الصفحة
الأولى منه فىقول : هو كتاب « أردت به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من
أغلاط الناس ... »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :
« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعةً جديدة . . . فقد
والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتسندل على أركانه مرقا متهدلة ىمشى بعضها
فى بعض ، وإنه ليلفّقها بخيوط من الدمع ، ويمسكها برقع من الأكباد ،
ويشدّها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم ؛
وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية
أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور
من آلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنه
المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا

صورة « الشيخ على » الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش فى نعمة الرضا ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبة الحسنة الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلمها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه . . . من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع .

وأول أمر الرافعى فى تأليف « كتاب المساكين » أنه كان فى زيارة أصهاره فى « منية جناح » فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا رجل يعيش وحده ، ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوبا ، ولا دار تؤويه ، ولا حقل يغل عليه : يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول مايمسك رmqه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعاه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق . رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس وآمال الحياة . ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره ، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما فى نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة .

ويصف الرافعى الشيخ على فيقول :

« . . . هو حلیم لنفسه . غضوب لنفسه ؛ وكذلك هو فى الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفى كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو ، يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ؛ ويتحاشونه رافة ورحمة

ويتحامهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سليط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأنَّ ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يُمنَّع بطنه بالداء أو يُمنَّع ظهره بالعصا... وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة ، غير أن أمرهما مختلف جدا ، فلم تقهره الدنيا ؛ لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو ؛ لأنها لم تظفر به .

«... وهو رجل سُدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء . فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يُخرج الدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تُعَدُّوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كلَّ ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف ، وكلَّ ماردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ، وكلَّ ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف .

«... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا... وأنت إذا سطعت له بالجوهر الكريمة النادرة ، فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق ، وإن هوَّلت عليه بألوان الحز والديباج ، حسبك ما تقا لم ترقُظ نضارة البرسيم وألوان الربيع...»

هذا هو الشيخ عليّ الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح .

وقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ عليّ من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي (٦ - حياة الرافعي)

كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله . وإيمانه ذلك هو الذى كان يُفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام .

* * *

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى :
« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ،
وجوته كما للألمان جوته ، .
... هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التى حطت
على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ على الجناحى .

اغاني الشعب

اسلمى بناصر . نشيد الاسقلال . البحر المنفجر

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب للنشيد وطنى أو طائفى من الذبوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعى : فهو بذلك خلى أن نسميه « شاعر الأناشيد » وقد ولع منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية ، بفتن فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها : فى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعه « الوطن » التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمي يمجّدها قلبي ويدعو لها فى

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى ، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذى لم يسلكه قبله أحد ؛ فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده فى هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقى فى ذلك ينبوع ... » (١)

(١) شرح الرافعى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وهو باب من الدعاية التى كانت يدعوها لنفسه فى أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارئ حديث الرافعى عن نفسه فى هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه .

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني ، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرهما ، وأذاع في الصحف كثيرا مما نظم من « أغاني الشعب » .

وعرف الرافعي في نفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية في باب هو من الشعر في ذلك العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغاني الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانها ؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطا بعيدا ، وأنجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرهما في طي الكتبان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد .

وإذك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره ، فتؤمن غير مضمحل أن الرافعي هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزل . . . » ثم لم يقل أحد من بعده شعرا يترنم به في الحرب ؛ أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعي .

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة من حبابه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد .

وأشهر أناشيده : « اسلمني يامصر » و « إلى العلا إلى العلا بني الوطن » ،

و «حماة الحمى ...» ولكل نشيد تاريخ .

* * *

نهضت الأمة نهضتها الرائعة فى سنة ١٩١٩، ودوى صوت الشعب هاتفا : إلى
المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من
داخلها ، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأى واحد ، إلى هدف واحد ؛ وإذا
مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود فى وجوده يتمثل فى كل مصرى ،
ويستعلن على كل لسان فى مصر .

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر
عن أمانيتها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ،
وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ،
ويانها من معانى نفسه .

وتلفّت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذى يؤملون أن تتحدّث
الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وسُمّت لجنة النشيد جائزة وضربت أجلا ...
وتبارى الشعراء فى الافتتان والإجادة ، وتقدّم كل شاعر ببضاعته ، وتقدّم
الرافعى فىمن تقدّم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم
يتقدّما بشيء إلى لجنة النشيد : هما «شوقى» أمير الشعراء ، و «حافظ» شاعر النيل
أما حافظ فلأنه من المحكمين فى اختيار النشيد ، وأما شوقى ... فمن يدرى ؟

وكان على رأس «لجنة النشيد» الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر والى^(١) .
فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدّم الرافعى ، ويتقدّم الهراوى ؛

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ويتقدم عبد الرحمن صدقي ، ويتقدم غير هؤلاء من يقول الشعر ، ومن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقي وحافظ .

ونسأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك في المباراة ؛ فأما حافظ فأصرّ وأبى ، وأما شوقي ...
يا رحمه الله - لقد كان حريصا على أن يقول الناس في كل مناسبة ؛ لقد قال شوقي ...
ونكن ماذا يقول في ذلك اليوم ؟

وكان لشوقي نشيد أنشأه منذ عهد لتفتتح به «فرقة عكاشة» موسمها التمثيل ،
فإذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟
وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصر مكانكمو تبيّا فهبيا مهّدوا للمجد هيبا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن
جاءهم الجواب الصريح ، فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصا على أن يكون
النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ،
وهل كان لهم أن يطمئئوا إلى عداتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية ؟
وكان الرافعي على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات في «الأخبار» ،
و«الأخبار» يومئذ مذهبها السياسي ، وكاتبها الأول هو المرحوم أمين الرافعي ؛
فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة
صاحبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي وقال في نشيده
ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازني والعقاد في «الديوان»

وكتب غير المازنى والعقاد ، وشوقى رحمه الله رجل كان - على فضله ومكانته وعلى منزلته فى الشعر - ضيقَ الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعى شىء من يومئذ ، إن لم يكن من قبلُ يومَ نشر الرافعى مقاله فى « الثريا » عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحدا من أدباء العربية لم ينصف شوقى بعد موته أو يكتب عنه مثل ما كتب الرافعى عن شوقى فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفى أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين .

* * *

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعى فى ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ؛ لتنظر فى نشيد الرافعى وحده .

وأصدرت اللجنة الأصلية حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقى ، وفاز من بعده الهراوى وعبد الرحمن صدقى ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعى هو النشيد القومى المصرى . . . وسبقت بين المغنين جائزةً ، ليصنعوا لحنا لنشيد الرافعى :

إلى العلا ، إلى العلا ، بنى الوطنُ إلى العلا ، كلُّ فتاةٍ وفَتَى
وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !
ليس من همى هنا أن أوازن بين نشيدى شوقى والرافعى ؛ فقد مات نشيد
الرافعى (إلى العلا . . .) بعد أن سبقه نشيد شوقى إلى الموت بعشر سنوات ،
ولم تُجدِ كل المحاولات فى بعثه ونشره . . . وإذا كان لى أن أقول شيئا هنا فى
الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعى

واحتفائهم به في كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي .

لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رسمي ' أقيم لإذاعته بطنطا في سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أني رأيت من بعدُ نشيدا احتفل له الناس ما احتفلوا للنشيد الرافعي يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذيلاله ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى ...

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا في سعد زغلول ؛ فهو المصرى الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنسانا تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : مَنْ الرجلُ الذى يقول أنا الأمةُ صادقا لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومى عند الرافعى ، فرأى رؤياه في منامه ... فلما أصبح ألّف نشيده ' اسلمى يا مصر ، وما كان همُّ الرافعى عند ما ألّفه أن يجعله نشيدا قوميا ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعى في خطابه إلى سعد في جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعدادة ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدرا من مصادر إمداده ،

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم
يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون
مثلنا تقيل يدك ، ويجدون في كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل
الذي خطّ قلم الأزل بيده كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار
الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعي لم يكن يعنى بإنشاء نشيده « اسلمى يا مصر » أن يجعله
نشيدا قوميا ، فإنه لمطمئن إلى أن نشيده « إلى العلا ... » ماض في طريقه إلى
هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع في هذا النشيد صوت سعد كما تصورت
حقيقته في نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛
فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيدا قوميا ليجعلوا
صوت سعد في هذا النشيد صوت البلاد ، وليتخذوا ما فيه من معاني المجد
شعارا لكل مصري ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصري .

وتألفت اللجان في مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى
ضبط نغمته ورسم لحنه ، فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ،
والموسيقار صفر علي ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن
اللحن الثاني أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافاة المصرية بعد أن صار
نشيدها الرسمي .

نشيد الاستقلال

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد « اسلمى يا مصر » هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومى يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة .
فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد ، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد : فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماة الحمى ، يا حماة الحمى هلموا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت فى العروق الدما نموت ، نموت ، ويحيا الوطن
كما تقدم بنشيده الآخر: « اسلمى يا مصر »: ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال : فإن للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتمحى العداوات .

* * *

ليس ما ذكرت هو كل جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديرا به ، فما أستطيع أن أحصى كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبى أن أذكر بنشيده الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار « الشبان المسلمين » ، فهنا ،

في هذا التشيد يُعرف الرافعي الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلبه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب .

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » و « نشيد الطلبة » الذي أنشأ ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا - فذلك فنٌّ من البيان له فصل بعنوانه في تاريخ الأدب العربي .

البحر المنفجر

في أناشيد الرافعي عامة ، تعرف له طابعا وروحا ونفمة هي سر نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل في أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة في سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو في خلوته الشعرية يحاول شيئا من هذه الأناشيد لسمعت لحنه رنين يشترك فيه صوت الرافعي ، ونقر أصابعه على المكتب ، وخفق نعله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافعي كان أصم لا يسمع قصف المدافع ، فإنه كان لا يستوى له النظم إلا في مثل هذه الحال .
واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش مفتش التحقيقات بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعي من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف في القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة ماري قدسي معنية الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعي يوم جلس إليها وهي تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ، ويوم جلست إليه تعرف له على البيانة حننا لنشيد « أسنى يامصر » وهو يسمعها بعينه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه

وينفخ شذقيه ؛ وفي أذنيه وقر ثقيل !...

هذه النغمة التي كانت تتمثل للرافعي في سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد ، كان لها أثرها الفنى في عمله ، وهى هى التي كانت تُشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد في موازين الشعر العربى النغمة التي كان يريدتها في أناشيده كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

بَجْدًا بَجْدًا مَدْرَسَتِي مَدْرَسَتِي بَجْدًا بَجْدًا

عن على عن تربيتي مَدْرَسَتِي حَمْدًا حَمْدًا

لم يجد له نغمة تلائمها فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ، ولكن صاحب « المقطم » أشار عليه أن يسميه « البحر المنفجر » . وتفعيلاته « فَعْلٌ ، فَعْلٌ ، فُو ، مكررة فى كل شطر ، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته .

* * *

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان : « أغاني الشعب » ، لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !

الرافعي العاشق

الحب عند الرافعي . هو وهي . شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء . هي وهو . تعقيب . رسائل الأحزان . السحاب الأحمر . أوراق الورد .

- ١ - « إن المرأة للشاعر كواء لآدم : هي وحدها تعطيه بحبها جديدا لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تنخطى به السماوات نازلا ... »
 - ٢ - « إن الثابتة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »
 - ٣ - « ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بابها وما وثر ثرتها ... » (الرافعي)
-

أتراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفى القول وأبلغ الغاية ...
وهل يكون لي أن أدعى أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعي العاشق ... ؟
وهل خلت فترة في حياة الرافعي من الحب ؟
ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخا معتجرا العمامة مطلق العذبة
مسترسلا للحية مما قرء وواله من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص على
تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما لا يدركه الشيوخ .
هذا الذي يكتب عن إعجاز القرآن ، وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ،
ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم ...
هذا الذي كانت تتصل روحه فيما يكتب - من وراء القرون - بروح الغزالي ،
والحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ؛ فما تشك في أن كلامه من كلامهم وحديثه
من إلهام أنفسهم ...

هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقرى ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد ...

... هذا الرجل - كان عاشقاً غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه !. إن الحديث عن حب الرافعى لحديث طويل : فهاهى حادثة أروياها وأفرغ منها، وحيبة واحدة أصفها وأتحدث عنها : ولكنها حوادث وحييات، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخسين ، لم يُشرق فيه صباح ولم يحن مساء إلا وللرافعى جديدٌ فى الحب : بين غضب ورضا، ووصل وهجر ، وسلام وخصام، وعتب ودلال ، وحبب إلى وداع وحبب إلى لقاء ... وشاب الرافعى وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شابٌ فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وبأخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء ... !

* * *

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب «الرسالة» وبين الرافعى وأجله عام : هل لك فى موضوع طريف عن الرافعى أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعى فى الحب حديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك .

قال : ولكنه حديثٌ يُغضبُ الرافعى !

قلت : وعلى أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعى فأفضيت إليه بعزى . قال : أو تفعلها ؟ أفكان لهذا

مجلسك منى كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس
بشمن ... ؟

قلت : لو أنه كان سرّاً لم يعلمه غيرى ماعقدت العزم على شيء ، ولكنه سرّ ،
على لسانك إلى كل من تتحدث إليه ! ...

وما كان للرافعى سرّاً يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم ،
فكأنما أذكره - بما قلت - بعض ما كان ناسياً ؛ فعاد يقول : وماذا تريد
أن تقول فى حديثك عن حبي ؟

قلت : حديثاً لو هم غيرى أن يجعل منه مقالا لقرائه لما كان الرافعى هو
الرافعى عند من يقرؤه ، ولكن أحسبني أنا وحدى الذى يستطيع أن يقول
إن الرافعى كان يحب فما يغير شيئاً من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو
عند من يعرفه : إننى أنا وحدى الذى يعرف الحادثة وجوهاً وملاساتها
وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلّى يوم عرفت كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات
وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه
يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعى يحب ... ثم تكون الفضيحة
التي تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعى إلى حديثي ثم أطرق هنيئة وعاد يسألني : وهل أقرأ ما تُعده
قبل أن تنشره .

قلت : لك ماتريد .

قال : أنت وشأنك !

وأجمعت أمري ، وأعددت فكري ، وتبّيات للكتابة ، ثم شغلتنى العناية

بطبع ، وحى القلم ، وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت ... ومات الرافعى !
فإن يكن فى الحديث عن ، الرافعى العاشق ، حرجٌ فلا على ؛ فقد استأذنته
فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ؛ ولدى شهودى
من كتبه ورسائله وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعى قد خفت
صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى
لمؤمن شديد الإيمان بأنتى ما أزال فى رضاه ومنزلتى عنده ، وإن كان بيننا هذا
البرزخ الذى لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثى !

الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث .
أما الحب الذى أعنيه - وكان يعنيه الرافعى - فشىء غير الحب الذى يدل
عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعى هو
حيلة النفس إلى السمق والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ، هو نافذة
تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانية
السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنوّر فيه الأفق المنيّر فى جانب
من النفس الإنسانية ، هو بُنوة على قدر أنبيائها : فيها الوحي والإلهام ، وفيها
الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحي مَلَك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء
الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الرافعى ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقا بإرادته ليبحث في الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف في أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب . وكانت « عصفورة » أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ، وهى فتاة من « كفر الزيات » لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة ؛ فهما إليها قلبه ، وتحرك لها خاطره - وكان للرافعى فى صدر شبابه على « جسر كفر الزيات » مَعْدَى ومراح ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، وجاشت نفسه بمعانى الشعر .

ومن وحي هذا الحب كان أكثر قصائد الرافعى الغزلية فى الجزء الأول من الديوان ؛ ومنه كان ولوعه فى صدر أيامه بلقب شاعر الحُسن !

وبلغ الرافعى بعصفورة إلى غايته ، واشتهر « شاعرُ الحسن » وترنم العشاق بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها - ثم مضى كل منهما إلى طريق ، وأتم الرافعى طبع ديوانه .. وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد - كذلك انتهى حب الرافعى وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجب من ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلى أن الرافعى كان كلما أحس حاجة إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى نتحاب لأن فى نفسى شعرا أريد أن أنظمه ، أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟
(٧ - حياة الرافعى)

على أن الرافعى كان له إحساس عجيب فى مجالس النساء ! وكان لهن عليه سلطان وله عليهن سحر وفتنة . وهو فى هذه المجالس فكّه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرزانُ فى مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أدواته فى استمالتهم حين يلتبس الوحى أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعرا فى عين ساحرة ، فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشئ وينظم وتنتهى قصة حب .

وكان يسمى كل جميلة « شاعرة » لأنها تمنحه الشعر ، و « الشوارع » عنده طبقات ، على مقدار ما يبعث فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبى وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومى ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبد الله عفيفى أو شاعر الرعاع ...

وحين يجلس فى الشرفة من قهوة « لمنوس » بطنطا وتمربه الجيلات فى رياضتهن أوفى حاجتهن ، تسمع ثبثا حافلا بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤقل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !
هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أتنى وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعد عن حب الرافعى الذى أنشأت هذا الفصل للحديث عنه .

إنها حادثة وقعت فى تاريخ الرافعى وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خالقا جديدا ؛ كانت دعاية من مثل ماقدمت فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف فى قلبه جرحا يدعى ، ولكنها كانت بركة فى الأدب وثروة فى العربية .

من تكون هذه الشاعرة التى غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها

وما خبرها ؟

هو وهى ... ١٩

— « لقد وضعت حسنك فى طريقى موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يدولا تعلق بنوره
ظلمة نفس ، ولكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشاخ : كأنة ما خاف ذلك الخاف المتتر الوعر
إلا لندى به قلوب المصعدين فيه . . . كوني من شئت أو ماشئت ، خافا مما يكبر فى صدرك أو مما
يكبر فى صدرى ، كوني ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة
آلام . انفعى نفع العطر الذى يلبس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلبس بالهين ، ولكن
دعيتى فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سماءك العالية ، ولكن ألبسيتى قبل ذلك جناحين . كوني
ماأرادت نفسك . ولكن أشعري نفسك هذه إلى إنسان . . . (هو)
— « إن أمى ولدت نفسى ونفسى مى ولدنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنى وإلا ضل
ضالك أيها الحبيب . . . (هى)

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا
من يد الله معا ؛ هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته . . .
« كانا فى الحب جزئين من تاريخ واحد ، نشر منه مانشر وطوى منه ماغواه ؛
على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحي للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور
والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛
فكل ما فى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات
الحزن هو نفسه » (١) .

لم تكن « هى » (٢) أولى حباته ولكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى
الشباب وخلف وراءه أربعين سنة ونيفا حافلة بأيام الهناءة ، مشرقةً بذكرىات

(١) رسائل الأحزان .

(٢) كذلك كان يرسم اسمها ولا يصرح به ، فإذا أبدل القارئ حرفاً بحرف فقد
عرف من « هى » ، وقد ماتت « هى » ، غداراً فى سنة ١٩٤١ - بعد موته بأربع
سنين وببضعة أشهر - وكانت خاتمتها مأساة !

الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرٌ غلام يخطو إلى الشباب^(١) .
سعى إلى مجلسها يوم « الثلاثاء » سعى الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتبس
فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء خاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل « الثلاثاء »
هو ندوة الأدب وجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليها ، وتحدثت
إليه ، وكان كل شىء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولمسه الحب لمسة ساحر
جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته
إلا لتعذر إليهم فتعود إليه ... ثم قامت تودعه إلى الباب وهى تقول : « متى
تكون الزيارة الثانية » ؟ . فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... !
ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما اقترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛
ومحت صورتهما من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف ، لتلاهى نفسه
بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها
وصواحبها غير مُصَيَّفٍ^(٢) مشغلةً فى الليل والنهار .

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن
منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبت إليه ، على
أن يكون له عوضٌ مما فاته يومٌ وحده ...
كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف فى سبيله شىء ، ولكنه حب ليس من
حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية .

(١) أحسب أنها فى ذلك الوقت كانت بضعا وعشرون سنة .

(٢) يزعم الرافعى أن (مصيف) هى تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم وصوابه
صنى (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً على
استعماله لأنها هى رضىته وكانت تتحجب به إليه ... فلا كان سيبويه وأبو على
وأبو حبان إن رضيت هى .

لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح، وقد وجدتهما، ولكن في نفسه لافي لسانه وقلبه، وأحسَّ وشعرَ وتنوّرت نفسه الآفاق البعيدة، ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذي يصف نفسه ويبين عن خواطره ...

بلى، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعره وبيانه، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول في الحب شعرا وكتابة، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتا، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانها أو تعبر عنها، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان.

و «هى» أدبية فيلسوفة شاعرة؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه «من خصائصها أنها لا تعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة؛ وهذا هو الحب عندها ...»

«... ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام المفنّن المشرق المضى بروح الشعر؛ فهو حلاها وجواهرها؛ ومالسوق حبها من دنائير غير المعاني الذهبية؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد، ولكن خفقة قلب على قلب، (١)»

وكذلك تحابّا؛ وترايا قلبا لقلب، وتكاشفا نفسا لنفس، ومضى الحب على سنته، ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون

أسعد بما هو لو أنها... لو أنها كانت زوجته... (١) ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت. وقالت له نفسه كلاما وقال لنفسه كلاما آخر، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق، فلم تكد القصة تبلغ نهايتها وتنحل الحقدة، حتى جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة...

وراح الرافعي يوما إلى ميعاده. وكان في مجلسها شاعر (٢) جلست إليه تحدّثه ويحدثها: ودخل الرافعي فوقف له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لتم حديثا بدأتها، وجلس الرافعي مستريبا ينظر: وأبطأت به الوحدة، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه، وقالت له نفسه: «ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف...؟»، فاحمر وجهه وغلي دمه؛ ورمى إليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب... واستمهله فما تلبث، وكتب إليها كتاب القطيعة...

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة، ولكن الرافعي حين وجد كبرياه نسي حبه، وكان هو الفراق الأخير...
كان ذلك في سنة ١٩٢٣.

وثابت إليه نفسه رويدا رويدا، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان!

(١) انظر الفصل الذي عقدناه بعد بعنوان «من شؤنه الاجتماعية»، فقد أشرنا هنالك إلى بعض وسائله ليستدرجها إلى الرضا به زوجها، على أنها وقد كانت مسيحية لبنانية الأصل، وهو المسلم السلفي المتحرج - كانت أبعد عنه في عرف الحياة، يأمل!

(٢) هو المرحوم اسماعيل صبرى.

ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، لم يلتقيا وجهها لوجه ، إلا مرة ، في حفل أدبي في طنطا ؛ فسا كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر (١) ...

على أن الرافعى لم ينس صاحبه قط ، وعاش معاش بعد ذلك وما تبرح خاطره لحظة ؛ وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين « فلانة » (٢) ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول ؛ « هل يعود ذلك الماضى ؟ إنها حماقتى وكبريائى ، ليتنى لم أفعل ، ليت ... ! » . ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام فى سنة ١٩٣٦ تستشفى فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها فى لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة فى « دمشق » لتزورها فى مستشفىها (٣) وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه (٤) :

« بالصدق يا صديق أننى كلما استعدت بذا كرتى وصية « فلانة » المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، اعترتنى حالة انقباض شديد وحزن لاحد له ... إن الموت فى مثل هذه الحالات يُعدّ كنزا ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإنى

(١) كانت مدعوة لتخطب فى المهرجان السنوى لجمعية الإحسان السورية فى طنطا فالتقيا على المسرح ولكن لم يتحدث أحدهما إلى صاحبه حديثاً إلا أن يكون لحظ الالعين ، على أن الرافعى لم يطق البقاء طويلاً بعد ، وخذلته أعصابه ، فأثر الفرار قبل انتهاء الحفل . بل أحسبه أثر الفرار قبل الابتداء ! .

(٢) كذلك نسميها « فلانة » منذ الآن ، ضنا بسرّها الذى لم تأذن فى نشره .

(٣) مستشفى العصفورية .

(٤) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاء من أنباء صاحبه .

أتهمك قانونا... بأئك كنت سبب جنونها ، فإذا كان عليك لوليت الدعوة ؟
آه ، لقد كنت قاسيا وفي منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ،
وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا ، بل
حين تعتقد أنّ الرجل ... لا ، السكوت أولى الآن

أما هذه « الوصية » التي تشير إليها الكاتبة في رسالتها ، فلست أعرف ماهي ؛
فلم تقع لي كل رسائل الكاتبة ، ولست أعرف أين كان يخبئها الرافعي من
مكتبه ، ولعل ولده الدكتور محمد ، يدرى ، فإن كان ، فإن عليه حقا للأدب أن
يحفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتي يوم تكون فيه هذه الرسائل
شيئاً له قيمته في البحث الأدبي .

* * *

قلت : إنّ الرافعي قطع مايينه وبين صاحبه منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا
فيها إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لا يحملها ساعي البريد ،
لأنه كان ينشرها وتنشرها في ثانيا ما تنشر لها الصحف من رسائل أدبية ، يقرأها
قراؤها فلا يجدونها إلا كلاما من الكلام في موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ،
ويقرأها المرسل إليه خاصة في فهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك :
حشوا من فضول القول في حديث أو مقالة أو قصة . هي رسائل خاصة ولكنها
على أعين القراء جميعا وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفي أكثر من مرة
والرافعي يملئ على مقالاته - كان يستمهلني برهة ليعيئ في درج مكتبه قليلا
فيخرج ورقة أو قصاصة يملئ على منها كلاما ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ،
وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويتسم ، ثم يعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث
أن نجد الرد في رسالة تكتبها « فلانة » ، فيتلقاها الرافعي في صحيفتها كما يفض العاشق

رسالة جاءت في غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء...
هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضاها ، وأحسب ذلك نوعا من
الكبرياء التى ربطتهما قلبا إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة
الوجد والحنين !

* * *

وكنت أسير مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فلما انتهينا إلى
القرب من مبنى جريدة « الأهرام » ، قال لى : « بل بنا إلى هذا الشارع » ،
ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ، ولكنى أطعته ، واتهينا إلى مكان ، فوقف
الرافعى معتمدا على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه
دارها ، من يدرى ؟ لعلها الآن خلف هذه النافذة ... ! »
قلت : « مَنْ ، ؟ قال : « هى » ! .

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعا ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »
قال : « لعلها الآن فى السيمبا . إذا كان الصباح فاغدُ على مبكرا لزورها
معا ، إن بي حنينا إلى الماضى ... ليتنى ... ولكن أترى من اللائق أن
أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسر كثيرا بليالك ... ! »
قال : « إذن فى الصباح ، وستكون معى ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك
على قلبك ... أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! »
قلت : « لا إنها عجوز ، فما حاجتى بها ... ؟ » وضحكتُ مازحا .

فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وى ! عجوز ! إنها أوفر شبابا منك ! »
قلت : « قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ اثنتى عشرة سنة ... ! »

قال : « صدقت ... ! اثنتى عشرة سنة ... ! »

وسكتَ وسكتَ حتى أوصلته إلى دار أخيه على شاطئ النيل عند فم الخليج ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته مواعده ! فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول : « يا بنى ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما (هذه) فأظننى لا أعرفها ... إبنى أحذر على الماضى الجميل أن تتغير صورته فى نفسى ... بحسبى أنها فى نفسى ... !

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه النبأ أنها سافرت إلى الشام لعدة فى أعصابها ... !

شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء

- ١ - « إن في الرجل شيئاً يتخذ المرأة منه وإن ملك بحبها ، وإن هدمت عينها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهياً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم إذا كان كريماً ؛ فوالذى نفسى بيده ، لا تموز المرأة بشيء من ذلك ساعة تحن موافقه وينغر طائر حله من صدره ، إلا عادت - والله - بماذى يحبها ويمصها ويمد على طهارتها جناح ملك من الملائكة . »
- ٢ - « ... ويسرف على نفسها أحياناً فأناهف عليها في زفرات كعمعة الحريق حين ينطبق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته يتطرح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نعمة نفعاً وبين عافية تحول ، وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... ! »
- ٣ - « لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمدته قلبي ، ولا أحسب أن فيها أمورا ستؤول مآلها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا نقضى إليه ، وما يمكن وقوعه فتمله فلا ينقض إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومتى استطردك القدر الذى لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر . »
- ٤ - « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فسكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سلبى أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً ، ولو كان دعى من أعدامها ما نقصتها من هذا حرفاً ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التى أشهد لها ... ! »
- ٥ - « ... دعنى أقول لك : لاني أبغض من أحبها ... وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم . »
- ٦ - « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنسانى إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب ! » (الرافعى)

أترى صوتى يبلغ إليها حيث تقيم بالشام شاردة الخيال مستطارة القلب (١) ؟
 أم ترى صوتى يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا هذا القدر من عمر الزمان
 كأنه من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟
 إنه ليخيّل إليّ أن هذا الحديث الذى أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب

(١) كتب هذا الفصل في سنة ١٩٣٧ حين كانت فلانة في الشام تستشفى ، وقد نشرته مجلة « الرسالة » ، وقتئذ ، ثم نشر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكانت لم تزل في الشام تستشفى !

إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذى أحبها أعنف الحب وأرقه
وما تراءى لها مع ذلك فى عمره الطويل إلا الرجل القاسى الذى حطم قلبها
بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة ، فنفذت روحه من أقطار
السموات لتعلمها على وفيها المعذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! ... فهل كنت ... ؟ ولكن ...
ولكن لا سبيل إلى ما فات ! ...

* * *

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حبا أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛
ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى
الحكمة ، وهنوءة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح فى مناجاة طويلة
كأنها تسبيح وعبادة ، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد فى غمراته خلقا بلا
إرادة فليس له من دنياه إلا « هى » ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !
والرافعى رجل - كان - له ذات وكبرياء ، فأين يجد من هذا الحب ذاته
وكبريائه ؟ هكذا سأله نفسه !

* * *

وأحبها أديبةً فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق فى واديه ،
وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق فى آفاق الشعر والحكمة والخيال ، فما التقيا
مرة حتى كان حديثهما فنونا من الشعر وشدرات من الفلسفة وقليلًا من لغة
العشاق فى همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب يعزيرتى ... »

قالت : « إن فلسفة الحب ... »

قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه ... »

قالت : « دع عنك يا حبيبي .. إن أحلام الحب هي شيء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ »

فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب ؟ وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة المني إن كان الحب شيئاً غير الذي في نفسي ! »

وتحدث ضميره في ضميرها فابتسمت وهي تقول : « أنا ما أحبيتك رجلاً بل فكراً وروحاً ونفساً شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي ؛ فلا تلمس في طابع أنثى وإلا ضلّ ضلالك أيها الحبيب ... ! »

قال : « فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تُطيف أبداً بك ، وروحاً ترفرف حوالبك ، ونفساً تغترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ... ؟ »

قالت : « دع عنك ذكر عيني يا حبيبي ؛ إن الحب ليس هناك ، إن الحب .. » قال : « لا تحدثيني عن الحب ، يخيل إليّ أني أعرفه لأنني أجدمسّه على قلبي كلذع الجمر ، ولكن آه ، ولكنك أنت ... »

وقالت له نفسه : « إذاك يا صاحبي تضرب في بيداء : إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب ؛ فهل أحبتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ فلن تجد بذلك منها الحب ؛ إن الحب من لغة القلب ، أما هذه ... »

وكان يحبها أدبيةً فيلسوفة شاعرة ، فعادياً عديدها وبينها أنها فيلسوفة شاعرة !

* * *

وهي امرأة كانت - إلى أدبها وفلسفتها - « فتنة خلفت امرأة ، فإذا نظرت إليك نظرتّها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأتِ إليّ فأنا آتية إليك ... وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادّثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ... »

«رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ،
فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ...

« أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة ؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك
تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع ، فلا تعثر فيهما بالسر ولكن
بالحب وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا
يتوجس في كل حركة صائدا يطلبه ... (١) »

والرافعي رجل كان - على دينه وخلقه ومروءته - ضعيف الساطان على نفسه
إذا كان يازاء امرأة ؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك
دمه وتنفعل أعصابه ؛ وما كان - رحمه الله - يرى في شدة الإحساس بالرجولة
وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طارفي النبوغ ؛ أو أحد
طرفي النبوة كما كان يقول ؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها
في نفسه إلا أن يسرع في الفرار . وكثيرا ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه
الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... ! »

وقالت له نفسه : « ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء
ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ... ! »
فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده بل وجد
الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد في كل أولئك ينابيع من الشعر
والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضيء بها فكره ، وكان آخر حبه

الآلم ، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...
وقالت له نفسه : « ه أنت ذا قد بلغت من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق
إلا الغاية الثانية وإذك عنها لَعَفْ كريم ... ! » .

* * *

وهي فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شيء من
تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع ،
يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشناتا لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر
الشعر وعطر المرأة الجميلة ؛ أفتراهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى
منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث ؟

والرافعي غيور شمس كثير الأثرة ، لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة
وقالت له نفسه : « أنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا
هوى وجيبا ... ؟ » .

* * *

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أن له ذاتا
وكبرياء ، وما يريد أن تنفى ذاته وكبريائه في امرأة ؛ ومن أجل أنها فيلسوفة
وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب في قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه
رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد
الآلم في حبها فوجد ينبوع الشعر الذي كان يفتقد ؛ ومن أجل أنه الرافعي
الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وحُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة ١٩٢٤ أنه ييغضها ،
وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس عاما بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه

القدر في مَدْرَجَةِ الفناء ، وأنّ نفسها كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...
وأحس في نفسه حديثاً طويلاً يريد أن يُفَضِّي به ، وشَعَرَ كأن في قلبه ناراً
تَلْظِي ، واصطُرعت في نفسه ذكريات وذكريات ، وَخَيَّلَ إليه أنه يكاد
يَحْتَنِق ؛ فصاح من كل ذلك مغیظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إنني أبغضك ...
إنني أبغضك أيتها المحبوبة ! » .

ليت شعري ، أكان الرافعي يعنى مايقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه
يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبراً من كبريائه العاتية فسماه البغضَ
وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر
ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شيء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعي صاحبة يومها منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه
من وثاقها ، وما هذه الثورة التي ألهمته كتابيه « رسائل الأحرار » ، و « السحاب
الأحمر » ، إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛
فلما ثابت إليه نفسه نزا به الحنين إلى الماضي ولكن كبريائه وقفت في سبيله ،
فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبة إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوة إلى حفلة خيرية لتخطب ،
وكان الرافعي مدعواً لمثل مادعيت له . وعلى غفلة آلتقت العيون : فدار رأس
الرافعي وذهب به ؛ وعاد الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت
نفسه زلزالاً شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت
الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح قهض عن كرسيه منطلقاً إلى
الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودّع
صاحبة بعين تختلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت « هـى » تدير عينيها فى المكان فما استقرتا على شىء ؛ ووجدت فى نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعى ؟ » ، فما وجدت جوابا . . . وكان الرافعى وقتئذ جالسا إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب . . . وكان آخر لقاء . . . !

* * *

ولقيتُ الرافعى فى خريف سنة ١٩٣٢ ، فسر حنا فى الحديث عن الحب ، فكشف لى عن صدره فى عبارات محمومة وكلمات ترتعش ، ثم قال : « . . . وإن صوتا ليتهف بى من الغيب أن الماضى سيعود ، وأنى سألقاها ، وسيكون ذلك فى تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : فى يناير سنة ١٩٣٤ . . . » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهرا سيكون هذا اللقاء . . . إن قلبي يحس ، بل إننى لموقن . . . بعد أربعة عشر شهرا ، فى تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضبا ، سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر . . . ! ، وظل على هذا اليقين أشهرا وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد . . . !

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهرا بعدها ، وما تحقق أمله فى اللقاء حتى لقي الله . . . !

* * *

هذا هو الرافعى العاشق ، جلوتُ صورته كما عرفته ؛ أما هـى ، أما صاحبتـه التى كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ؟ وماذا كانت غايته ؟

هى وهو ... ؟ !

« أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شائكة فجلسنا مع الجالسين لم تقل شيئا فى أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلوبهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن فى كليتنا قلبا ينتظر قلبا من زمن بعيد ؟

« ... ولم تسكد العين تسكتحل بالعين حتى أخذت كلتاها أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ... ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وأنت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاشفنا ؟

« وتعارفنا بأحزانتا كأن كليتنا شكوى تهم أن نفيض ببشها ؟

« وجذبتنى سحتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ؛ فإذا هو لستاب ؛ فإذا هو لكبار ؛ فإذا هو حب ؟

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« درست أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفا كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلوبنا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاشفنا مرة ثانية ...

(هى)

* * *

« ... بماذا أصف مكانا للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه

تقعنا من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبتي كل دقيقة ونانيتها فى مجلدك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لبعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بازاء مر وضعنى فى ساعة من غير

الدنيا وحصرنى فيك وحدك ...

« وهاجتنى من يقظتى واقتحمت على من حذرى ...

« وخليتنى وعينيك ، وخليتنى وما كتب على ...

« واتمت روى لشملك ، فما كنت تكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين فى غرفتك

ولكن فى داخل نفسى ...

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعاقب أمانا ويلثم بعضها بعضا من حيث لا يراها

إلا عينائى وعيناك .

« وتراءت النفسان فلأنا المسكان بأفراح الفسك ، واستفاض السرور على جلالك

بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر .

« وقلت لى بمجملتك : أنا ... وقلت لك بمجملتى : وأنا ...

(هو)

إني لأعرفه عرفاني بنفسي ، فما بي شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطني بنفسه زمنا فإني لأسمع نجواه وأقرأ سره وأعرف ذات صدره ، فما أصف من حبه إلا مستيقنا كأنما أنقل عن لوح مسطور في فؤادي ، أو أثبت من حادثة في تاريخ أيامي ماثلة في نفسي بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عني منها شيء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء في بيان سافر كإشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هي ... أما هي فما في يدي شيء من خبرها إلا ما حدثتني به الرافعي أو حدثتني رسائله ، فما أتحدث عن حبه إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققا يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس في يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملايسات الحادثة .

وإنها لأدبية شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم ، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة ؛ وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره .

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلبا إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه ، فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدثت عن أحلامه . فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافتراقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقظظا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هي في

المستشفى تتمرض من وهن في أعصابها !

* * *

لم تكن «هى» تقصد الحب ولا تعمده ولا كان هو ، ولكنها أدبية تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذى تعجب به ويفتخها بيانه ، فأحبهه (عقلاً جميلاً) كما تسميه في بعض رسائلها ...

وكان سعيه إليها يلتصق الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفانتتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبهته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان ، هكذا تقول في بعض رسائلها ...

* * *

وهي فتاة لم يسلمها الدهر ولم تزل منذ كانت غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حوَّالها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذى يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه أكثر مما تريد الصديق الذى لا تسمع منه إلا كلمات الزلق والتجيب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعى وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها ، فاخضلت عيناه وأطرق ، فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سَأَدْعُوكَ أبى وأُمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسَأَدْعُوكَ

قومي وعشيرتي : أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ؛ وسأدعوك أخى
وصديقي ، أنا التي لأخ لي ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى
المعونة أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت
لاتدري ... ! (١) .

وأحبته (صديقا) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

* * *

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من
دنياها إلا الجذ الصارم ؛ ولم يكن لها من عمل غير الاستغراق في الفكر ،
أو الاستغراق في الفن ؛ وإنها لأثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعي رجل - كان - لا يحمل من هم ، فما يدع المزاح والدعابة وإن
الدنيا لتضطرع حواليه وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل
في أجدد الجد وأخرج الساعات هزله في أصفي حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه
ذوهم إلا سرى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها
روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ...

* * *

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له في نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سمته

(١) ما بين القوسين ، من عبارتها في بعض رسائلها ، وقد ضمنها بعض ما
يتداوله القراء من كتبها ، ونشرها الرافعي في بعض فصول كتابه « أوراق الورد ،

المنكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ، ولحته
ينسجم ، تجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها
ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛
وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها : وأحست في نفسها إحساساً
ليس لها به عهد ؛ فتناول قلبها لتكتب له ^(١) :

« سأستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطمالك
وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ؛ وسأسمع إلى جميع الأصوات
عاشي أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمدح الصائب
من الآراء ليعظم تقديري لآرائك وأفكارك . . . وسأبتسم في
انراة ابتسامتك .

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول
عن الآخرين إليك لأفكر فيك . . .

« سأتحيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف
تخزن ، وكيف تغلب على عادى الانفعال رزانة وشهامة لتستسلم ببسالة
وحرارة إلى الانفعال النبيل . . .

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخورا ، لأنك أوحيت إلى ما عجز
دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذى لا تعلم ! أتعلم ذلك ، أنت الذى
لا أريد أن تعلم . . . »

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذى فجر لها ينبوع

الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذى وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافا إلى الرفيق الأنيس الذى كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حبا يستأثر بنفسها ويسيطر عليها فى غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلَّها الهوى وأضلَّه ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع محلا لو أنها منعت بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع ؛ وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقريّة ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعدُ أنه يحبها حبا لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعدُ أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجراً مما كان ...

وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء ...

تعقيب (١)

... هذه قصة الرافعى وفلانة ، كما رواها لى ، وكما يعرفها كثير من خاصته .
وإنى لأعلم أن كثيرا ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة
هذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ، وسيقول قائل ، وسيدعى مدع ،
وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل ؛ ولا على من كل أولئك ما دمت أروى
القصة التى أعرفها ، والتى كان لها فى حياة الرافعى الأدبية تأثير أى تأثير يُرَدُّ
إليه أكثر أدبه من بعد . وحسبه أنه كان الوحى الذى استمد منه الرافعى فلسفة
الحب والجمال فى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق
الورد : وحسبى أننى قنعت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على
أسلوب من العلم جديد !

على أنى مسئول أن أبرئ نفسى أمام قدس الحق ؛ فأعترف هنا بأن مارويت
من هذه القصة كان مصدره الرافعى نفسه ؛ مما حدثنى به وحدث أصحابه ، أو
مما جاء فى رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته ؛ وما بى شك فيما روى
من هذا الحديث ، فما جرّبت عليه الكذب ، ولا كان هناك ما يدعوه إلى
الاختراع والتزيد كما يزعم من يزعم ؛ ولكنها حقيقة أثبتها للتاريخ ، لعل باحثا
مدققا يوفق فى غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له .

على أن الرافعى قد أقرأنى رسالة أو رسالتين بخط «فلانة» إليه ؛ وهما وإن

(١) نشرنا هذه الفصول فى مجلة «الرسالة» ، قبل أن نذيعها على القراء فى كتاب ،
وقد تناولها بعض القراء بكثير من الشك وغير قليل من الدهشة ، وكتب أدباء فى مصر
والشام وبغداد يحاولون التشكيك فى بعض ما أذعت من الحقائق أو يحاولون التعليل لها
وتحدث إلى آخرون معقبين أو مستفسرين ، فلهؤلاء وأولئك جميعا كتبت هذا التعقيب

لم تدل دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ، لا تنفيانها كذلك ، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النقي ؛ والحذر طبيعة المرأة !
ثم إن الرافعى لم يخصني وحدي برواية هذه الحادثة ؛ فإن عشرات من الأدباء في مصر قد سمعوها منه ، ومنهم من يعرف « فلانة » معرفة الرأى والنظر ، ومنهم من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة ؛ ومنهم من كان الرافعى يقصد بالحديث إليه أن يكون بريداً بينهما ينقل إليها حديثه شفة إلى شفة . وفي الناس بُرْذُ إن لم تزد على ما سمعتُ من حديث الحب لم تنقص منه شيئاً ! فلو أن الرافعى كان يتزيد فيما روى لي ولأصحابي من حديث هذا الحب لحشى مغبة أمره ؛ وإن « فلانة » يومئذ ذات جاه وسُلطان !

وثمة برهان آخر لا يتناوله الشك : هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعى من كتاب من كتبها المعروفة لا أسميه ، إلى كتابه أوراق الورد ^(١) ؛ يزعم أنها رسالة منها إليه في كتاب ، جواباً على رسالة بعث بها إليها - وكانت هذه بعض رسائلهما في المراسلة كما رويت من قبل ^(٢) - وأوراق الورد معروف مشهور ؛ وكتابها معروف مشهور كذلك ؛ وما لا يحتمل الشك أن تكون « فلانة » لم تقرأ هذه الرسالة في كتاب الرافعى ولم ينهها أحد إليها ، وأبعد منه في الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك في كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعى ؛ ولا شيء وراء ذلك إلا أن تكون قرأت ، وفهمت ، وبسكتت ؛ ولا شيء بعد إلا أن يكون بينهما شيء يؤيد ما رواه الرافعى من قصة هذا الحب ... !

(١) أوراق الورد ص ١٢٣ - ١٥٠ ، وتقرأ فقرات منها في هذا الكتاب قد أشرنا فيه إلى موضعها ص ١١٦ - ١١٨ (٢) ص ١٠٤ - ١٠٥ من هذا الكتاب

على أن اعتراضات ثلاثة توجهتُ إلى ما رويتُ من هذه القصة ، لا بد من التنبيه إليها : أما أحدها فمن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ؛ فهو ينكر على أن أستند إلى هذه الرواية ، ويروى لى أنه صحب الرافعى فى أولى زيارته لفلانة ، وشهد ما كان من تأثر الرافعى وانفعاله وجذبه ؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعى وفلانة صلة بعد هذه الزّورة ، ويصحح ما رويته عن الرافعى - وكان من سامعيه - بأنه حبٌّ من طارف واحد ، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشبهه للرافعى ما شبهه ؛ فما يحكيه هو صورة ما فى نفسه لا صورة ما كان فى الحقيقة ... !

فالرافعى عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر ؛ وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعى وفلانة بعد الزّورة الأولى لا ينفى أن الصلة كانت حقيقة ولم يعلم بها ؛ فحديثه من كتم لا ينفى شيئا ولا يثبت ، ويبقى بعد ذلك ما يُستنبط من الرأى على هامش القصة .
وقريب مما يرويهِ الأستاذ جورج ، ما تستنبطه جريدة المكشوف فى بيروت فى حديث تناولت به بعض مانشرنا من قصة حب الرافعى .

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف - محرر المقتطف -
على ما رويناه ، قال :
« لقد سمعت هذه القصة من الرافعى كما رويتها ؛ فما أشك فى صحة ما تكتب ،
ولكننى أسأل : هل كانت « فلانة » تبادل الرافعى الحب ... ؟ »

« هاك خبرا يدعوك معى إلى هذا السؤال :

« فى يناير من سنة ١٩٣٤ - أو ١٩٣٥ - دعتنى « فلانة » إلى مقابلتها ؛ فلما شخصت إليها رأيت فى وجهها لونا من الغضب ، فدفعت إلى رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعى إليها لأرى رأيي فيهما ؛ ثم قالت : ماذا ترانى أفعل لأذود عن نفسى ؟ أترانى أتقدم فى ذلك إلى القضاء ؟

قال الأستاذ صروف : « فاعتصمت بالصمت من لا ونعم ، وتركت لها أن تستشير غيرى ؛ ولست أدري ما كان بعد ذلك ا » .

قلت : وهذه رواية جديرة بأن تذكر - ومعذرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف - على أنها لا تدل على شىء فى هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها فى سنة ١٩٣٤ أن يتجيب إليها الرافعى ؛ فماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين ؟

أىكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف - صلة بما كان فى نفس الرافعى من يقين بأنه سوف يلقي فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة (١) .

أعنى : هل حاول الرافعى - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلبا يستجيب لدعائه ؟

على أن هذا الخبر - أيضا - لا ينبغى شيئا ولا يثبت ؛ ولكنه يفتح بابا إلى الاستنباط والرأى .

ولكن بما لا شك فيه أن الرافعى لم يكن يعلم شيئا عن وقع هاتين الرسالتين

في نفس صاحبه : ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل على مبلغ استيائها من هاتين
الرسالتين . وإلا لما ظل يتعلق بالأمل في لقاءها إلى شتاء ١٩٣٥ ، وكنت معه
لما همّ بزيارتها (١) .

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكي مبارك . وما كان لي أن أثبتته هنا
لولا أن أثبتته هو في كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب (٢) ، ولولا أن
أشار إليه في مقالات نشرها في مصر وفي العراق وفي بيروت !

والدكتور زكي مبارك أديب مشهور ، ولكن آفته - ولكل أديب آفة -
أنه يدس أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه : وهو قد شاء أن يحشر نفسه في
هذه القصة التي لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس - والإعلان عن نفسه
بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى « فلانة » جنباً لجنب في الجامعة
المصرية بضع سنين !

وليس يهمننا أن يجلس الدكتور زكي مبارك جنباً لجنب إلى فلانة أو إلى
نساء الأرض جميعاً - كما يريد أن يتعالم عنه الناس في أكثر ما يكتب - ولكنه
يرغم أن ما كتبناه عما كان بين الرافعي وفلانة ليس من الحقيقة في شيء ، لأنه
كان يجلس مع فلانة جنباً إلى جنب في الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوماً أن
جاءاً كان بينها وبين الرافعي !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة في أدب الدكتور زكي مبارك ، فليقرأ
هذه الحجة ؟ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكي مبارك لا يجلس

(١) انظر ص ١٠٥ - ١٠٦ من هذا الكتاب .

(٢) كتاب « وحى بغداد » للدكتور زكي مبارك .

إلى (فلانات) ولا يجلس إليه (فلانات) إلا ليحدثه عما كان لهن من جولات
في ميادين الحب يسألنه الرأي والمعونة !
وليدع القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن العُرى والعِراة، وعن «الأديب
العريان ...» الذي روى هذه القصة .
وعفا الله عن أهل الأدب !

هذا كل ماتلقيت من اعتراض المعترضين من أهل الأدب أو من أهل
الدعوى ؛ وعلى أىّ الوجوه انتهى رأى الأدباء فى تحقيق هذه القصة ، فإن مما
لا شك فيه أن الرافعى كان يحب « فلانة » ؛ وهذا حسبي ؛ فما يعنينى من هذا التاريخ
إلا إثبات المؤثرات التى كانت تعمل فى نفس الرافعى فتلهمه الشعر والبيان ؛
أما هى وما كان منها وحقيقة عواطفها ، فشىء يتصل بتاريخها هى بعد عمر مديدا
ونعود إلى تنمة القصة بالحديث عن كتب الرافعى فى فلسفة الجمال والحب ؛

رسائل الأحران

« في رسائل الأحران ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ، ثم لأنها من اسان كان ساعا يترجم عن قلب كان حرباً ؛ ثم لأن هذا التاريخ العزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر ... ! »
الرافعي

خرج الرافعي من مجلس صاحبه مغضباً على ما رويناه : في نفسه ثورة كَوَجْجَ ، وفي أعراقه دم يفور . وفي رأسه مبرجل يتلهب : وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعى البريد . ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوءاً لفكره ، ولا راحة في أعصابه : وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبه أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه : وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحداً يبنه أحزانه ويفضى إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون : فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربيه ، بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه ؛ وثقلت عليه الوحدة وضافت بها نفسه ، ففزع إلى قلبه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من «رسائل الأحران» إلى صديقه الذي خصه بسرّه ... إلى نفسه ...

وترادفت رسائله من بعد مسهبةً ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبه ، في أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و ... وذلة المحب المفتون يستجدي فانتته بعض العطف والرحمة والحنان .

بدأ الرافعى كتابة « رسائل الأحزان » فى يناير سنة ١٩٢٤ ، وانتهى منه فى مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤ .

* * *

يخاطب الرافعى نفسه فى « رسائل الأحزان » على أسلوب « التجريد » فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبت والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نفا من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث فى رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعى ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أو قل : إن الرافعى فى هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبتها ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهى رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

وفى بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفتها الآلية بين نداء القلب وكبرياء الخلق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته ؛ « إنه يحبك » ، يعنى : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذا الأسلوب تحدث الرافعى عن نفسه بضمير الغائب فى رسائل الأحزان .

« أنا ... » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعت فى زبره معنى شموخ الأنف ، وصعّر الخد ، وكبرياء الخلق ؛ لا يؤدى فى لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم ... »

يا عجباً للحب ! كل شيء فيه يحول عن حقيقة حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعى يقول فى رسائل الأحزان : « هو » ويعنى : « أنا ... » لأنه لا يريد أن يتذلل كبريائه فى لغة الحب !

إننى أحسب الرافعى لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرأه الناس ، ولكن لتقرأه هى ، وهى كل حسبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ؛ وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشروء الخاطر .

ولم يكتبها - كما يزعم - رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها فى فن من فنون الرسائل لم يؤثر مثله فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتديه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان

المصنوع تكلفه كاتبه يحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقية قصة لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وُصِّلَ الكتاب رماداً في بقايا النار . . .

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحران فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفترقه فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعي أنشأ في العربية أدبا يستحق الخلود .

* * *

قلت : إن الرافعي أنشأ رسائل الأحران ليكون رسالة إليها هي ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التي قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردت صاحبه ردها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثت بها إليه مع بائع الصحف والمجلات . . . ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب . . .

وسأتي يوم يُدرس فيه أدب فلانة صاحبة الرافعي ، وسيجد الباحثون يومئذ لونا لذيذا من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها ؛ وليس بعيدا أن يقرأ الأدباء يومئذ كتابا جديدا بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسة مما نشر ونشرت في الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص ، ستنى ١٩٢٤ و ١٩٣٦ .

أيها الباحث الذي سيأتي أوانه ، ابحث عن حشو القول وفضول الكلام (٩ - حياة الرافعي)

في مقالاتها ومقالاته ، واقرن تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب ، لنشر لنا رسائلها
ورسائله في كتاب ...

أراني لم أتحدث عن رسائل الأحران ، كما يتحدث كاتب من الكتاب عن
كتاب من الكتب ، فليس هذا إلى ، وإنما قدمت وسائل القول لمن يريد أن
يقول ؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحران من بعد غير ما كان
يقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين لن يكرر مقالته التي قالها فيه من قبل ،
يوم أشهد الله على أنه لم يفهم منه حرفاً ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي
لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوروبا ... »
لأنه سيجد مجالاً للقول في غير معانيه وبيانه .

ولكن في رسائل الأحران شيئاً غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن
الرافعي - رحمه الله - كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده ؛
وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب .

سيجد الباحث في رسائل الأحران عند بعض الرسائل وفي هامش بعض
الصفحات من الكتاب ، كلاماً وشعراً لا يتساق مع القصة التي رويت ؛ إلا أن
الرافعي كانت تلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن
يقول ، ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليدكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها
أشبه ، أو لأن تعبيراً جميلاً وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه
من الحادثة ، فإن رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخله الريب فيما أثبت من
الحقيقة التي أرويها كما أعرفها .

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام في لبنان؛ وما عرف الرافعي صاحبه إلا في مصر وإن كان مولدها هناك . فليذكر من يريد أن يعلم ، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائه ، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان . وكان بعض من أحب قبلها فتاة أدبية عرفها في لبنان ، وهي سمية صاحبتنا هذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في «أوراق الورد» وهي التي أنشأ من أجلها كتابه «حديث القمر» ، على أن عمر الحب لم يَطل بينهما ، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك - وما تزال - فاجاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذكر أيام هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة «حديث القمر» أقحمه في رسائله حرصاً عليه وبخلاً به على الضياع .

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره . ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب ، على أن قارئه يقرؤه فما يعرف أنه رسالة عاشق ألح عليه الحب ، أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه . والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في عمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب ، بغضا يردُّ عليه كبريائه وينتقم له ؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على ولدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ... !

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبه ، فكتبت إليه . . . وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر «السحاب الأحمر» .

السحاب الأحمر

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة ، إذ هو يقال روحين على تحليل أحزانهما المترجة . وأكبر خصمين في عالم النفس ، متحابان نياغضا ... » الرافعى

تُرى ماذا كتبت إليه صاحبه بعد ما قرأت رسائل الأحران فأثارت نفسه بعد هدأتها وردته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يُفصل بالماء والصابون وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلّمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها ، ؟

من لي بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحران في نفسها وما ردت به ؟ إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذي لا يخله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب ، وفساد الرأي في الهوى ، وطمش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المنقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعى المعرفة ، ولقد كنت مع الرافعى مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام لجيبنى عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره : فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فيّ طويلا ثم سكت وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبت بما على المكتب من أشياء ، ثم قال : « أرايت التلم التي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عيني والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليّ وهو يقول : « ضع النصاب

بين عينيك والمصباح وانظر ، ألسـت ترى سحـاباً يترقـق بالدم كأن قلباً جريحاً
ينزف؟ في شعاعـة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر تقرأها فى السحاب
الأحمر

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أن الـرافعى حين أنشأ السحاب الأحمر كان فى حالة عصبية قلقة
لست أعرف ما تأها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدّث عن خبرها فى
شئ من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الـرافعى رسائل الأـحزان ليكون رسالة إليها يتحدّث فيها عن
حبه وآلامه ، ولست أشك أن صاحبه حين تأدّت إليها رسائله قد فهمت
ما يعنيه وعرفت ذات صدره ، وأحسبها - وهى الأدبية الشاعرة - قد سرّها
أن تكون هى قلبك الوحى لما فى رسائل الأـحزان من كل معنى جميل .
أفترأها قد بدا لها أن تهيج بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنّع الغضب
لتفتته وتزيده حياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه
وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش
الحب ، ولؤم المرأة ... ؟

على كل أن ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع فى أسر الحب يحاول
الفسك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إئتى أبغضك

أيتها... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعى في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره . فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين ، وهذا صفيه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعى ، وذلك أستاذه ومثله العالى في دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أمُّ ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك يتحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب في رأى العين ، وفي رأى القلب ، وفي رأى العقل ، ويحدثهم حديثه... فما تلح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى في جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبه برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه .

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبه وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له في الكتاب مسالك من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبه .

في الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً في ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبه التى أملت عليه « حديث القمر » ، وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها في نفسه ؛ فتسأل نفسك ؛ أى شيء رده إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها في نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محال الزمان بها في قلبه وأثبت ! فلا تلبث أن تجد

الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهم ثم يسفل في معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل ... »
« إن من المرأة ما يُحبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكره إلى أن يلتحق بالكفر ... »
« من المرأة حلو لذيد يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرّ كريحه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أترأه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيرا منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة في الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبتها ليردها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبريائه فيزعم لصاحبتها أنه لم يكن يعنها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » في الفصل الثانى ، فتسمعه يقول . تتمّ آمالنا حين لا نؤمل ! ، فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يملئها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئا في نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد في معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحب ولا تُبغض ، وأشأمهن على الناس مر إذا عدّت مبغضها لا تعدّ إلا الذين أحبوها ... ! » ، وإني لأعرف

الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول :
« إتنى أحبك يا أشأم النساء ؟ ! »

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاحب قوله :

يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يحلوك يا قمر له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ،
وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق
بين الزوجين الحبيين ، أى خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك
تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن
تشعر الأرواح المفارقة أحببها بمسّ الفناء لأن أرواحا أخرى فارقتها ؛ ففى
الموت يُمسّ وجودنا ليتحطم ، وفى الفراق يمسّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض
الروح فى كفه حين موتها ، وهو الذى يلبسها عند الفراق بأطراف أصابعه !
« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة
من وجودنا فترجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى
من المناحة على معنى من الموت ... »

« ترى العمر يتسلسل يوما فيوما ولا نشعر به ، ولكن متى فارقتنا من نحبهم
نبه القلبُ فينا بغثة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ
كتطايير عدة سنين من الحياة »

ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب^(١)، وعن المنافق، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبه: أقتراه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة؟

وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدته ضل ولداها الصغيران ثم آهتدت إليهما:

«الحب! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها في الدم، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب الأم على طفلها... حب الأم في التسمية كالشجرة: تغرس من عود ضعيف، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُنفى عداة أوراقها ليلاً وأياماً. وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرع ما تنبت، وما أسرع ما تنضج، وما أسرع ما تقطف، ولكنها تُنسى الشفافة التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة...»

«... لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هي الباقية وهي المنتجة، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوة وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها...»

«وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمره فنسى الله حيناً، ويغويه الحب في الأرض بثمره أخرى فينسى معها الأم أحياناً!»

* * *

(١) هذا الفصل في السحاب الأحمر بعنوان «الريطة» كتبه الراجي عن صديق من خريجي جامعات أوروبا، هو الدكتور حسين الهراوي، وكان في صدر شبابه - كما كثر واردات أوروبا - زيفاً في الدين، وزيفاً في الخلق، وزيفاً في الرجولة؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه؛ وله مقالات في الإسلام وفي الرد على جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين.

وتراه في الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس هو كل ما في الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ علي ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده : يحاورهم ويحاورونه فتستمع في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .

إن الرافعي بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعا دائما بين طبيعته التي هو بها هو ، وفطرته التي هو بها إنسان ، وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل من فصول السحاب الأحمر .

* * *

وفي كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأي الرافعي في القضاء والقدر ، وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما قلّ من إرادته . فتراه يؤمن بأن الإنسان في دنياه ليس له كسب ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه . وإنه على ذلك لموقف بأن لله حكمة فيما قضى وقدر ، وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا ياماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زُعاقا لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لست على أرض من الملح ، ولكنك ياماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحَةُ ... » ١ ،

* * *

قلت في الفصل السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شيء .

من البيان المصنوع تكلفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه ...

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . آحذف منه فصلاً أو فصلين في أوله ، وشيئاً من فضول القول في سائرهِ ، تجد فناً في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي ، فجردهُ من قصته أو أنسبه إليها ، فإنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهي على البيان ، وشعراً وحكمة مازال الأدباء يدورون عليهما حتى وجدوهما في أدب الرافعي .

* * *

في رسائل الأحزان أراد الرافعي أن تعرف صاحبتَه من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه ؛ وفي السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال وما له عندها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أفتراه في السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى ! .

أستمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويؤرث البغضاء ويشير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلي على متدلل ما تنقضي عني فتونه

كيف السُّلُو وفي فؤا دى لاتفارقي عيونه ١٩

يرحمك الله يا صديقي !

أوراق الورد

« ... إنه ليس معنى إلا ظلالها . ولكنّها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كأنّ لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملمح كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائق مترجمة بجملتها إلى لغة فكري . »

« كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حفاة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لحبالي خضوعاً لا يضرها . »

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب ... »
« كلما ابتعدت في صدعاً خطوتين رجع إلى صوابي خطوه . »

« لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقصى الهجر ، ولن أَرْضَى بالأمر الذي ليس بالرضا ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ، ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب ، أريدها غصبي ، فهذا جمال بلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي . ودع جرحي يرشش دماً ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذي ينبت ثم العضل وشوك الخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم ... »

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لامن شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها ... فتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوني . صمت ضائع كالبيت ولكن له في القلبين عمل كلام طويل ... »
(الرافعي)

هدأت ثائرة الرافعي هونا ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزعه إلى الماضي ، وبقية من اشواق واللهفة على ما كان ؛ وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلي من بعد بالشعر والحكمة والبيان . ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه ، والأمانى التي بعثتها الكبرياء بدداً في أودية النسيان تتخايل له في شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة

تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام . وأتمَّ نظم قصيدته البارعة في « أوراق الورد » سنة ١٩٣١ .

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المشورة في فلسفة الحب والجمال ، أنشاء الرافعي ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، في فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد .

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدري أين موضعها من الكتاب ؟ إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتفا من حديثها وحديثه .

بلى ، إن في أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المني ، ويرسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام ، إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد . . . فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى « فلانة » وليست كل رسائله في الكتاب إليها ؛ فهناك الأخرى ، هنالك صاحبة « حديث القمر » ، تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة . . .

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتهما السعيدة معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحى منها معاني الكبرياء والصدِّ والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالآلم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبتة « فلانة » كان قلبه في أثناءها خالسا لها ، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتابا للفن أولا ثم لها من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقها وما زال متبها في هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان .

بلى ، إنه كان يحبها حبا لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها ، فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعا ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هناك وبما يستجد على خواطره من بعد في معاني الحب والبغض والود والقطيعة .

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ؛ ثم يصور فيه وبيانه في لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئا من بعد مما كان بينه وبين صاحبتة على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاونة في البحث والاستقراء .

فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحزن ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحاملة تتوالب بين السطور في خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدى أدائه في قصة هذا الحب العجيب .

وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى

النظرة وتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ، فهو ذكرى من الماضى البعيد ؛ وكان حبا فى القلب فصار حديثا فى الفكر ، ثم استتبع شىء شينا

وما قرأت من قول مزوق ، وبيان منمق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجر فكرة ، وعبرة تتوكل على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر . ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فن من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة فى قرن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع .

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ، وخرجت منه بشيء .

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعى ، وإحاطة هى إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هى باب فى الأدب العربى لم يُنسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابة « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو شىء مما كان بينه وبين صاحبه . يقول إنه كان فى مجلسها يوما ومعها وردة ؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له احذر أن تجعل حظك من الورد أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة

البنان ، واحذر في الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية في صدري ، ولكن على معان في القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوما معاني الأشواك فسمّها أوراق الورد ... وكذلك سمّاها » .

ويمضي في هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه في الحب ، ورأيه في الحب ، وشيء مما كان بينه وبينها ، ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ في أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم . ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحتُ طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى ، وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...



من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً ، ومن أراد رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً ، ومن أراد تسليّة وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراد نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً ؛ ومن أراد قصة قلب ينبض بمعانيه على حاله في الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانيه على حاله في الحب والسلوان - وجد كل شيء .

وهو في الفن فنٌ وحده ، لا تجد في بيانه ومعانيه ضرباً له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء في معاني الحب ؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية في الحب ، لا يعرف قراءه في العربية . وكم قارئ استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضي فيه صفحات قليلة

حتى تُسلّمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ...
وكم قارئ كان لا يعرف الرافعي الشاعر الثائر العنيف في حبه وبغضه وكبريائه ،
فلما قرأ « أوراق الورد » عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه في الأدباء
إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية
وإن كان في مكباتهم ، لأن القارئ الذي يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم في
المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضمّ فكرا إلى فكره لا ليتسلى ويهرب من
فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعري أفي العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من
أوراق الورد أو يجمع معانيها في قصيدة ؟ أبحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه
يوم تسمعون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه
كنز ، ولكن مَنّذا يصبر على المعاناة في استخراجهِ والبلوغ إليه إلا أن يكون
صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر
على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض
إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر .

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شباننا
لوضعوا أيديهم على أثمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء
ومادة في الشعر والبيان .

وكان الرافعي - رحمه الله - يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في
أدب الإنشاء ، ويباهي ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّي عن صاحبتة بقليل إذ تعزّي
(١٠ - حياة الرافعي)

بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد . وكما تجد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء في أطفال معانيه عن مطلّقه العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها في كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكره في عيني هذا الحبيب الصغير ؛ وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكراها معه ، ذكرى حية ناطقة تتمثل معاني وكلمات في كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بسمع ومشهد قريب !

يرحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حيا ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ...

يرحمه الله !

فى النقر

الرافعى وطه حسبن - نحت راية القرآن - كلىة ودمنة - شاعر الملك -
الرافعى والأبرانى بنشأ - الرافعى وعبد الله عفىق - الرافعى والمقاد -
على السفود - وحى الأربعبن

سأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن شىء مما كان ببن الرافعى وأدباء
عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإنى منه لنى حرج شدىد ؛ لقد مات الرافعى
ولكنه خلف وراءه صدى بعيدا عما كان ببنه وبن أدباء عصره من الخصومات
الأدبىة : فما أأء منهم إلا له عنءه ثأر وفى صدره علىه حفىظة أو له علىه
معتبة ؛ ولقد اهتزت بلاد العربىة كلها لنعى الرافعى وما اختلجت نفس واحد
من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلا واحءا كتب برقىة إلى ولءه ،
هو الدكتور طه حسبن بك : فلا جرم كان بذلك أنزه خصوم الرافعى وأعرهم
بالأءب اللائق !

ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعى دنياه ؛ فهل رأىء أأءا منهم كتب
شىئا عنه نباله بالمدح أو المءمة ؟ وهل رأىء اللجئة التى تألفت لتأبىنه قء استطاعت
أن تحمل واحءا من هؤلاء على أن ىشاركها فىما تعمل لتأبىن الرافعى ، أو قل
لتأربخ عصر من عصور الأدب قء انطوى تأربخه ببن أعىنا وىوشك أن ىضىع
فى مءرجة النسىان ... ؟

لىت شعرى أكان الرافعى من الهوان فى المئزلة الأدبىة ببحث لا ىذكره
ذاكر من زعماء الأدب العربى ولما ىنقض على موته بضعة أشهر ، وببحث
تجمع لجة التأبىن وتنفض وتحدد الموعد لحفلاتها ثلاث مرات ثم لا تجء من

يتقدم إليها ليقول في تأييد الرافعي ، فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ...
حتى إذا مضى العام فاحتفلت فلسطين ، واحتفلت سوريا ، واحتفل العراق ،
واحتفل العرب في المهاجر من وراء البحار بذكرى الرافعي ؛ أقامت لجنة التأيين
في مصر حفلتها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغي أن تكون ؛ تخرجاً من
التهمة بالعقوق ونكران الجميل !

ولكنه هو - يرحمه الله - الذي ألَّب على نفسه هذه العداوات حياً وميتاً ،
لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لا يعرف المداواة ولا يصطنع الأدب في نضال
خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من
جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء : لا منفعة
فيهما معا إلا بقيامهما معا ، . وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلَةٍ خبيثة لهذا
الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم
خصومه على طريقة عنتره : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع !

اقرأ له في أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطيرة
إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه ؛ ونحن
نرُدُّ على هذا وعلى هذا برءٍ سواء ، لا جهلنا من نجهله يلطف منه ، ولا معرفتنا
من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول
المؤلم ، أو التهكم ؛ فما ذلك أردنا ؛ ولكننا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع
المهتدي أن يضل ، فما به زَجْر الأول بل عظة الثاني ... » .

وأول ما أعرف للرافعي في النقد ، مقاله في « الثريا » ، عن شعراء العصر
في سنة ١٩٠٥ (١) ؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر ، وكان

(١) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب .

نشر مقالاً يعارض به رأى الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول : « قد وُكِّت أمر تأديبه إليك ! » .

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها فى سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ^(١) ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتي البيان والزهر ^(٢) : ثم خصومة بينه وبين لجنة التشيد القومى فى سنة ١٩٢١ : ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحران فى سنة ١٩٢٤ ^(٣) فى السياسة الأسبوعية : فكان هذا أول ما بينهما : ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد . وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك : إلى ما لا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدياء عصره .

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه ، وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها جديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ...

وإنتى لأشعر أن على واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة اتى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإنتى لأشعر بجانب ذلك أننى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع .

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا على مادمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعى شجاعته فمات لم يذكره أحد منهم

أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفاء لهذه العداوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة
بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىّ نفسى ... !
ولكن ... ولكن من عذرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ...
ولكن ما أنا إلا راوية يكتب مارآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكن فلاناً وفلاناً
اليوم أناسىّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث .
ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى تحوير فيه أو إثبات ولكن ...
ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الإنسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ؛
فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فإنى على الأبهة الآن
أخوى من هذا الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ؛
فإن كان من حق أحد أن يعتب علىّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب
لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، وما لى عندهم حاجة ولا لهم علىّ
يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا علىّ من غضبه أو رضاه ، وإنى
لما ض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعى وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة : وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معا : ولم يكن بين الرافعى وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكن إرهابات كانت تسبق ذلك بيضع عشرة سنة ...

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة المصرية ، وكان الرافعى الشاعر ماضيا فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهبا غير الشعر : فلما نشر مقالیه المشهورين فى « الجريدة » ينقدهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعى العالم المؤرخ الراوية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة فنفس على الرافعى أن يؤلف كتابا فى تاريخ آداب العرب ، فكتب ينقده ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقرر هذا المعنى ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعى كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقالیه بالجريدة ، ولكن طه يومئذ كان طالبا فى الجامعة ؛ فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعد إلى المنافسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه !

وثمة حديث آخر يشير إلى أول ما كان بين الرافعى وطه ، رواه لى صديقنا الأديب عبد المعطى المسيرى ، صاحب « القهوة والأدب » . قال :

« زار الرافعى إدارة « الجريدة » مرة لبعض شأنه ، فى سنة ١٩٠٨ (أو سنة ١٩٠٩) ؛ فلما هم أن ينصرف طاف بمحررى « الجريدة » يحییهم - وبينهم طه حسين - ولكن الذى كان يصحب الرافعى فى طوافه لم یعرفه طه - ولم یقدّم أحدهما للآخر ؛ وعرفه الرافعى على الرغم من ذلك ؛ إذ كان مثله لا یخفى واسمه على جبینة ولكنه لم یحیه ولم یظهر له المعرفة ؛ رعاية لعاطفته ، وخشية أن يفهم طه أن الرافعى لم یعرفه إلا بعلته فیألم وتتأذى نفسه ؛ ولكن طه طوى صدره على شىء للرافعى من يومئذ ؛ لأن الرافعى انصرف دون أن یحیه كما حیّا زملاءه العاملين معه فى الجريدة ١ . »

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحا جديدة ، واتخذت لها أسلوبا فى الدين وفى العلم وفى الأدب قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال ، وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب ، ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت فى الجهاد راية ...

والرافعى رجل - كان - فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأیقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سیکون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة فى غد ...

ونال الرافعى رشاش من بعض المعارك وإنه لبعید عن الميدان ، فأحسن فى

نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، (قال الرافعي) : فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه .. ثم عرف ...

وتبيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان ... وتربص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحران ، فسعى راجلا إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجهها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعي ، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل في صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه .

لمن ياترى كانت الغلبة ؟ الرافعي يقول : أنا .. وطه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث .

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه في « رسائل الأحران » في السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداء وأعلن الحرب . ورد عليه الرافعي يقول :
« يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم ،

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، في مقال طويل (١) .

وطارت الشرارة الأولى فاندلعت ألسنة النار ، فما خمدت حتى أحدثت

(١) المعركة تحت راية القرآن .

أزمة وزارية ، وأنشأت جبهة بين سعد وعدلى ، وأوشكت أن تؤدى بعمل ماهر إلى المحاكمة ، وهزّت دوائر البرلمان ، ثم انتهت فى النيابة العمومية ...

* * *

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين فى الأدب وأسلوبين فى الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحوالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بالفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والجمود ؛ وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة . والرافعى رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه فى السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً فى السياسة تؤاخذ به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها ؛ وكم جز عليه هذا الجهل السياسى من متاعب وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة .

* * *

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلبه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا - وزير المعارف يومئذ - أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى بالجامعة ؛ على شرط الواقف !

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي على الأسلوب الذي رآه لهم : فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم «في الشعر الجاهلي» : وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجّما في كلية الآداب ، فقرأوا رأيا جديدا في الدين والقرآن رجع ما كان عندهم ظنا بالدكتور طه حسين وكتاب السياسة الأسبوعية . فقال الكثيرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الإقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي : وظل الرافعي ساكنا : إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلي القاضى ، في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق : فكان فيهما الإنذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلبه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة «كوكب الشرق» ثم مقالات ثلاثا بعده : ولم يكن قد قرأ الكتاب : ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره : فكانت المعركة بذلك في مبدئها الأول : خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثارا عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئا من أسلوبه المتر في النقد : ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفهم أكثر مما يريد أن يثار وينتقم .

ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثأرته لأمر جديد ...
لقد كان شيئا منكرا أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق

مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأيا من الرأى فى الأدب ، أو يمحّص رواية من الرواية فى التاريخ . لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصا من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعى ما قال طه ، فغضب غضبه للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتباً يزعم أن له مذهبا جديدا فى الأدب ، فعاد مبتدعا مُضِلّا له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوى الثائر لعرضه أن يُنتَهَك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فضى يستعدى الحكومة والقانون وعلما الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته فى طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته نائرة مهتاجة تفور بالغيظ وبالحمية الدينية وبالعصية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !

ونسى فى هذه المقالات كلّ اعتبار بما تقوم به الصّلات بين الناس ، فما كان يكتب نقدا فى الأدب ، بل يصبّ لهيبا وحمما وقذائف لا تُبقي على شيء . وكان ميدانه فى جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة وجريدة سعد ، وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبلُ رأيا فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشد أزره ، وإن لم يكن له فى السياسة باع ولا ذراع .

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجبا للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد .

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لاثير فى وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم : ولكنهم لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام ...

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشد أزره كل السلطات .

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئا ، فكتب كتابا إلى مدير الجامعة ، يُشّهد أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... ولكن الرافعى لم يقنع فضى فى النقد على جاذته !

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لمنع تداوله ، لعل ذلك يردّ الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شىء . حتى بالجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمرّ فى حملته على الدكتور طه حسين : ولا ظهير له يومئذ غير الدكتور زكى مبارك ...

ليس من شأنى أن أنص الحكم فى هذه القضية ، فإن وثائق الدعوى مازال بين أيدي القراء ، وليس يهمنى لمن كانت الغلبة ؛ فهذا كتاب للرواية لا للرأى : ولكن الذى يجب أن يعرفه القراء ، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعا سلبيا فأوى إلى الصمت ؛ ويزعم الدكتور زكى مبارك

« أن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان - في هذه المعركة - بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر ، حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان ! » وهو قول لا أدري أيقصده الدكتور زكي مبارك أن ينتصر لظه أو للرافعي ؛ ولكنه قول صديق عاقل على كل حال ... !

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافعي في كوكب الشرق صحيفة مدوية وصلت إلى كل أذن : فما أحسب أحدا في أدباء العربية وقراءها قد فاته منها شيء : وكان المصريون وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئوننا ؛ فلعلهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزّيهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وصديق الأحرار الدستوريين ... !

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعا في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعا قد صار لهم في شئون الأدب رأى ، أو لهم في الذود عن الإسلام حمية ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسي جاء اتفاقا ومصادفة في الوقت نفسه ، ليكون تأييدا لقول الله وانتصارا لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها - لسبب أدبي أو لسبب سياسي - قد بعثت روحا دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألفت قلوبا إلى قلوب كانت متنافرة ، ونهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذود عن دين الله .

وإني لأذكر مثلاً بما كان من إقبال الناس على هذه المقالات ، أنني - وكنت طالبا في دار العلوم - لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل

فنقطع الطريق من « المنيرة » إلى « باب اللوق » راجلين لشترى من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس .

* * *

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلّى زيور عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ، وعكفت نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ، وما يزال في آذانهم صدى يرنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته في محاكمته . وقال النواب : نحن نريد ... وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشاد عدلى رئيس الحكومة وسعد رئيس النواب : فهبت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقدت المشكلة ...

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين : فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب عبد الحميد البنان ^(١) بشكواه إلى النيابة العمومية ؛ فتسقط التبعة عن الحكومة ، وينفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء ، وكان بعد ذلك ما كان . وإذا كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال وزير المعارف ، فإنّ ماثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستوري ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ .

* * *

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله فيه أثر أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولما كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء مما كان .

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » ، وهو جماع رأى الرافعي في القديم والجديد . وهو أسلوب في النقد سنتحدث عنه بعد .

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظل قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما ؛ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبدا مادام في العربية حياة وقدرة على البقاء .

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمر طه في أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي في فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما في جعبته . وكم مقال من مقالات طه حسين قرأه على الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعني . وكم مقال أملاه على الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف من يعنيه به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعي : أرجو أن تعدل في أسلوب هذا المقال - مما ينشر في الرسالة - فإنني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشيء تنشره في الرسالة وعلى تبعته عنده .

ولما ثارت في الجامعة مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، قبيل موت الرافعي بأشهر ، كتب مقالا للرسالة غمز فيه طه

وَحَيًّا شباب الجامعة ، ولم يجد صاحب الرسالة بُدًا من نشره . وفَتَن الرافعي بمقاله ذلك وَحَسَنَ عنده وقعه ، فَأَنْشَأَ تَمَمَةً لَهُ بِعنوان « شيطان وشيطانة » يَغْمَزُ بِهَا الدكتور طه حسين ، ولكن صاحب الرسالة وَقَفَ لَهُ واحتج حجة ، رعاية لصديقه القديم . وكان أولَ مقال يكتبه الرافعي فترده له الرسالة . وقد اغتاض الرافعي لذلك غيظًا شديدًا ، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة منه ! لو كان لي أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لنشرته بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ صاحب الرسالة يقول : لقد رددته إليه . والدكتور محمد يقول : لم أجده على مكتب أبي . وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل (١) .

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان .

ولما اشترك الرافعي في المباراة الأدبية في سنة ١٩٣٦ ، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يطمح ، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

* * *

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبتته على ما فيه ، ليس فيه رأي ولا رأي أحد معي ؛ ولكنه شيء مما حكاها لي الرافعي أو قرأت في كتبه ، فكتبته في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالي فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان عليّ معيبة أو ملام .

(١) كتبت هذا الفصل قبل أن تقع لي مسودة هذا المقال ، وقد نشرته من بعد في الجزء الثالث من « وحي القلم » .

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ... ! هنا ميدان الخصومة بين الرافعى وأدباء عصره ؛ فنذ نحله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعى لىجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النيل من العربية فى أرفع أساليبها ، وسبيلا إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ؛ وبابا إلى الزرابة بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعى نفسه ووقف قلبه على تفنيد دعوى التجديد ، فجعل همه من بعد أن يتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليرد عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسمُ كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ - ١٩٢٦ .

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتابا ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقا مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافعى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعائة ، حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلا واحدا هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل ما بقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافعى وجمعه كتابا للرد عليه هو وحده . وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت

أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعى ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين فى الأدب وفى الدين وفى القرآن ، ويحتمد فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد فى شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة : وإنما جلسة نتجة خليقة بأن تكون فى موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبى .

* * *

وليس الكتاب على استواء واحد فى أسلوبه : ففى المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعى هادئاً مترناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل رأى ورحابة صدر الناقد البرىء : فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذى كنت ترى ، وطالعك من صفحات الكتاب صورة جهمة للرافعى الشائر المغيظ المحقق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مظلول ، مُزبد الشدقين كاجمل الهاج ، متنفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتى كتاب ، فإن هذه المقالات وإن صوّبت إلى هدف واحد قد اختلف دواعيها وأسبابها ومن كتبت له ، وقد كان بينها فى التاريخ الزمنى سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام .

على أنك تقرأ للرافعى من هذا الكتاب رأيه فى طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد فى تدريس

الأدب ، وتقرأ له - من الكتاب نفسه - ردّه في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فقرأه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين .

ليس يعينى هنا أن أخص رأى الرافعى في الجديد والقديم ، فراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما مادون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الحديث .

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائرّه ؛ ويبدأ هذا الجزء بعد الصفحة المائة ، وفيه تفصيل ما كان بين الرافعى وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحرار » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « في الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب في البيان متباينة ؛ ففيها التهكم المتر ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردّ الرأى بالرأى ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوقعة بين فلان وفلان ، وفيها الزلنى إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيها فن بديع ضريف ، فيما حكى الرافعى عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنت نظرت إليه في جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليم من التهمك يفتنّ الرافعى فيه فنونا عجبية حتى يبلغ نصف المقال : ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبى ، لولا عبارات وأساليب هى لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر . . . بكلّ إنها نموذج عال فى النقد العلمى الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليفة ودمنة

إن مبالغة الرافعى فى التهمك قد شققت له فنونا من المعانى والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكنت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء ؛ وأبدع هذه الأساليب حديثه عن كليفة ودمنة وما تحلّهما من الرأى فيما تناول من فنون الأدب . وكليفة ودمنة كتاب فى العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعى ، وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقا ومصادقة ، فى مقالة من مقالات الرافعى ، فى طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليفة ودمنة ليقول على لسانهما كلاما من كلامه ورأيا من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه - على المزاح - إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته ، فنشره

بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كلية ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية »

« قال كلية : أمّا تضرب لى المثل الذى قلتَ يادمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع » ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين^(١) ...

ثم استمر ينقل - عن نسخته الخاصة - من كلية ودمنة ما يجعله مقدّمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة ، وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لونا طريفا من أدب الرافعى ، لو أن الظروف واثته لأتمه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديدا له خطر ومقدار ، على أن الرافعى لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتابا ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجبا بهذه الفصول الثمانية من كلية ودمنة مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فنا ومقدرة ... ١

وانتهى الرافعى من حديث كلية ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة ، وظلّ مهملًا (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحى الأربعين » ، فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » . ثم نشر فى الرسالة سنة ١٩٣٥ الفصل العاشر

(١) المعركة تحت راية القرآن .

بعنوان « كفر الذبابة ١ » ^(١) يعنى بها مصطفى كمال (كمال أتاتورك) وحركته الدينية ، غفر الله له !

وقد كان فى مُنية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كليفة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولكنه لم يوفق ، وكان فى ذلك خير ؛ فهذه الفصول فى موضعها من الكتب التى نُشرت بها أجمل وأخفّ ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لاتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع .

* * *

هذا يحمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب « المعركة تحت راية القرآن » وما احتواه . وهو وكتاب « على السفود » خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدل ؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورِمائهما ، ولهيئهما المستعزّ ، ودخانتهما الخائق ، وغبارهما الكثيف ...

لوتجرّد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما أنتجت العربية فى النقد ، وأحسنَ مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولكن وا أسفاً ، إن الإطار يحجب ما فى الصورة من جمال ، فنذا - غير مالك الصورة - يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلّو الصورة فى جمالها على أعين الناس ؟

شاعر الملك

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد؛ إذ كان هو أول ما بين الرافعي وعبد الله عفيفي؛ فإني لأقدم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي مهّدت للرافعي من بعد أن ينشئ كتابه «على السّفود»، في نقد ديوان العقاد.

* * *

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية، هو المرحوم محمد نجيب باشا، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذى عوج، مهّدت لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر، فهيئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب، حراس على سلطة الأمة؛ فنشأت بذلك قوّة يازاء قوّة، وتناظر سلطان وسلطان، وكان لكل طائفة لسان وبيان...

في تلك الآونة، تقدّم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك، فلقى ذلك العطفّ الكريم بحقه من الشكر والرضا وعرفان الجليل.

وشاعرُ الملك، أو شاعرُ الأمير، لقبٌ قديم في دولة الأدب، وله في تاريخ العربية تاريخ، منذ كان النابغة والنعمان، وزهير وهرم بن سنان، والأخطل وبنو أمية، والنواسي وأبو العتاهية في بني العباس، والبحترى في إمارة المتوكل، والمتنبّي في بلاط سيف الدولة؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ، ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين: أبا النصر، والليثي، وليس بعيداً عنا

أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بدد خلع الخديو عباس فنفته إلى الأندلس .

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري ؛ فلما مات تطلعت الشعراء إلى موضعه ؛ وكان أكثرهم زلنى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ، إذ كان ما يزال في نفسه شئ يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير .

وعاد الرافعي إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات في سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة في آحاد متباعدة لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر يفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك ، في سنة ١٩٢٤ ، في إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على السرحة الفيانة في حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان . .

واستمر يرسل قصائده في مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ حتى وقع بينه وبين الإبراشي باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومة بينه وبين عبد الله غفني ...

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمت إليه ؛ فلولاً بيتان أو أبيات فى القصيدة الحسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . أقرأ قصيدة الخضراء - يعنى الراية - وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، وأقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواحدٌ فنا فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفت من فنونه ، فإذا أحققت هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتت عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها .

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسى ناضجة تامة : من الاحتيال ، والروغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للخروج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام إهوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدرى رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء .

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء

على الموظفين في محكمة طنطا الأهلية ، حيث كان يعمل جنبا إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتابه « إيجاز القرآن » على نفقته ؛ كما أذن في إرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا ؛ فظل يدرس في جامعة ليون على نفقة الملك إلى سنة ١٩٣٤ حين شاء الإبراشي باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإتفاق عليه ما بقي . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات العيش ورسوم الجامعة ، كان يكتب « للرسالة » بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسده وتنتهك أعصابه ... !

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الإبراشي باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت ؛ إذ خشي أن تعصف به السياسة أو تعبت به الدسائس قترى به إلى تهلكة ...

حدثني الرافعي قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق ، ويحتق بي ، ويسط لي وجهه ومجلسه ، ويلج صدرى بما يروى لي عن عطف الملك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسي تزداد عمقا وتمتد طولا وتنسبط سعة ؛ ثم جاء الإبراشي فلم تدعني داعية إلى لقائه ، حتى كان يومٌ وجدُتني فيه منطلقا إلى هناك ، لأسأله في أمر من الأمور ^(١) ...

قال : « وذهب إليه الساعى بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار ، فجلست وما أظن

(١) يأتي تفصيل ذلك بعد .

إلا أنها دقائق ثم أُدْعِيَ إليه ... وطال بي الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحول من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهي منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسي فضجرت ؛ فعدت أستاذن عليه وقد جال بنفسي أنه قد نسي مكاني ، فعاد إلى حاجبه يقول :
الباشا يعتذر إليك اليوم ويسألك أن تمر به غدا في الساعة كذا ...

قال الرافعي . « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكنني اعتذرت عنه . فلما كان الغد جاءني النبأ ينعي إلى زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعي بك ؛ فأدنى الهمُّ وثقل عليّ ، وضائق نفسي بما فيها ، وتوزعتني الوسوس والآلام ؛ وما نسيتُ وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن عليّ موعدا بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريق عدوّاً إلى القصر وفاءً بالوعد الذي اتّعدتُ ، وجعلت من وراء ظهري ما عليّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزّونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق علي . لقد كان الذي مات زعيما من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما عليّ من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخى ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جمرات تنلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذلك أطالع وجوه الداخلين والخارجين في غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... !

قال الرافعي : « وهاجت كبريائي وثارت حماقتي ... لا أكذبك يا بني ، إنّ في حماقة ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلى في أصلاب أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إلى صارت حماقة ؛

فهذه الحماقة عندى يابنى هى تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تحطت إلى هذا الزمن البعيد فى تاريخ الأجيال ... (١)

قال : « ولما بلغ الحق بى مبلغه نهضتُ وفى يدى عصاى ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيط محق ، فإذا أنا أمام الإبراشى باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربى يحدثه ... ، فلم أعبأ ، ولم أكرث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعى وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسى ، وثأرت لكبريائى . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق فى الحديث معه ، ولكنى لم ألق بالآ إلى شىء من ذلك . وما كان فى نفسى إلا أتى قد قلت ما ينبغى أن أقول لأحفظ كرامتى وأصون نفسى ، ولا على بعد ذلك من غضبه أو رضاه ... »

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إلى وألح فى الاعتذار ... وصدقته حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشى باشا فى نفسه ؛ فلما كان الموسم التالى نظم الرافعى قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصفت حروفها مشكولة فى مطبعة دار الكتب - كما جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعةً إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزينة ، من نظم الأستاذ عبدالله عفيفى المحرر العربى بديوان جلالة الملك ، ونشرت القصيدتان جنباً لجنب فى جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما فى مدح الملك ، فما يفرق بينهما فى الشكل

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هى كلمة الرافعى بنصها كما حكاها لى وقد كتبها فى مذكرتى بعد حديثه بساعات فالיום أنقلها من هذه المذكرة .

إلا توقيعُ الشاعرين في ذيل الكلام .

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزجر ، وقال لمن حوله : أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني ، (يريد الأبراشي) أهذا شعر يُقرَنُ إلى شعري ؛ أيراني وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقتي ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفريد أن يمهّد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكانى ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... ، .

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لاجتقعه ، فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيتّه إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السّفُود !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لايسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتسكر وأخفى نفسه ...

الرافعى وعبد الله عفيفى

لم يكن عبد الله عفيفى خصما للرافعى على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن عبد الله عفيفى فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الإبراشى باشا ؛ قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعى وجها لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعى وعبد الله عفيفى .

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعى زيادا عن الدين وحفاظا على لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيف والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف رأى وقلة المعرفة . . . وما بدُّ من أن يكون فى نقد الرافعى أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيف ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعّم أن الرافعى لم يكن موفقا فى النقد ، مع أهليته واستعداداته وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والقصد فى التهمة وضبط النفس . . .

وثمة شىء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات ؛ هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتا قارئا فى

موضعه لم ينس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع . . .

* * *

كتب الرافعى مقالات ثلاثا بعنوان « على السفود » ، فى نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفى فى مديح الملك — والسفود هو الحديد التى يشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالة ، وفيه الإشارة والرمز إلى ما حوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى ، وإذ لم يكن توقيع الرافعى فى ذيل هذه المقالات ، ولا كان يريد أن يعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه فى الكتابة وفى نمط الكلام ، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدث فى مجلسه إلى جماعة من خاصته ، لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عريية اللفظ ، بقدر ما يعنيه أن يتأذى معناه إلى قارئه فى أى أسلوب وبأية عبارة ، فكثرت الحشو فى هذه المقالات من الكلمات العامية ، والنكات الذائعة ، والأمثال الشعبية ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من كل لوازمه فى النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات فى أسلوبه تتم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعى حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعرا من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكى ، وأن هذا الشعر الذى يقبله ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه فى مديح الملك . أو لعل الرافعى كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب وألقى القول على سجيته فى صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغى أن يكون عليه الشعر الذى يقال فى مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ، فجاء فى بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق

الأدبي العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء، وكأنما ركبته طبيعة غير طبيعته حِيلَتْ إليه أنه يكتب فى نقد شاعر من الماضين يمدح ملكا من ملوك التاريخ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغى أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك ...

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر، فالت الأفواه إلى الآذان، وتهامس القراء همسا غير خفى، ثم جهروا يتساءلون: من يكون هذا الكاتب؟ ولكن أحدا منهم لم يفتن إليه ولم يعرف الجواب، وأنفذوا دسيسا إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب «العصور» يسأله فلم يظفر منه بجواب.

ونُشر المقال الثانى والثالث، فلم يلبث أن انكشف السر؛ ونم الرافعى على نفسه بلسانه فى مجالسه الخاصة... أو نم عليه أسلوبه وطريقته فى النقد. وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوئق من صحة الخبر فى أسلوب السياسى البارع: «... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت فى شاعر من شعراء الملك وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب؟ أفتتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك...؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر؟ أم هى دسياسة تصطنع الأدب لتفضّ المخلصين من رعيته عن بابه...؟»

وغص الرافعى بريقه، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة، وأحس الإبراشى باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التى مسها الرافعى بحماقته منذ بضعة أشهر...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبيتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين .

لقد كثُر ما استغلَّ خصومُ الرافعي السياسةَ لينالوا منه ، ولقد كثُر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي ، وما كان معه يوما على صفاء ؛ على أنه كان تلميذا معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافعي .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي ، فصلا مؤثرا ... بعبارات بليغة ... في صحيفة من صحف الشعب^(١) يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب ، وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلبه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأتُ هذه المقالة مع الرافعي ، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ..

(١) هو الدكتور طه حسين في جريدة الوادي ، وكان يصدرها في تلك الوقت .
للدفاع عن سلطة الشعب بعد أن فسد ما بين طه حسين والاحرار الدستوريين فعزلته حكومة اسماعيل صدقي من وظيفته في الجامعة !

أرأيت ...! صدق! لقد جنت السياسة على الأدب (١) .

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات شوقي أمير الشعراء في خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي لو كان مصرياً خالصاً المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر ، لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ولا تعين على إبراز الشعاعية الكامنة في كل نفس .

هو رأى أبداه فيما أبدى من الرأي ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الخط من مقداره ، وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأى أبداه الرافعي مجرداً من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفي عناصر بحثه ؛ ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون .

أما ضائفة فالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجهود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه . ذلك سلامه موسى ! ...

(١) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا : « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نرجو أن نستطيع تهيمته للنشر قريباً ، إن شاء الله !

وأما ثانية فقالت : وهذا قول يعيننا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثنى أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين .

وانتضى عبد الله عفيفي قلبه ليكتب في جريدة « البلاغ » مقالات أسبوعية بعنوان « مصر الشاعرة » يذكر فيها من شعراء مصر في مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه رداً على دعوى الرافعي . ومضى في هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة ؛ ولكن عنوان « مصر الشاعرة » ظل على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسبه في هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان في الرد على الرافعي ! ...

* * *

وقد ظل الرافعي إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الإبراشي وبين عبد الله عفيفي . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفي في الصحف مدحة ملكية ، في موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعي فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر . وقد ذكرتُ فيما قدمتُ من هذه الفصول أن الرافعي كان يسمى كل جملة من النساء « شاعرة » ؛ فمنهن كالمثني ، ومنهن كالبحتري ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفي .

فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع « البلدى » من نساء الطبقة الثالثة ، التي تبدو ملفوفة « محبوكة الأطراف » في ملاءتها السوداء ، غضةً بضّة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفي ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى . وللأستاذ عفيفي في نفسى على الرغم من ذلك كلّ إجلال واحترام !

* * *

حاشية : كتبت هذا للطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فلم تذكر تلك الطبعة تظهر لقراءها حتى كتب إلى المرحوم عبد الله عفيفي رسالة عليها الشعار الملكى يطلب إلى فيها أن أحدّد زمانا ومكانا للقاءه ؛ فلم يغب عني أنها دعوة للحديث في موضوع يتصل بما نشرت عنه في هذا الكتاب ، فقررت أن يكون جوابى على هذه الدعوة أن أذهب إليه ، تكريماً له . وكنت يومئذ من العمل في زحمة ، فمضت أيام قبل أن أذهب إليه ، واستببطاً المرحوم عبد الله عفيفي جوابى فتحدث إلى بعض أساتذتى يسأله أن يكون رسولا إلى ، ثم استبطأه فبعث رسولا ثانيا ... وحسب الرسولان بما لأحدهما على من حق الأستاذية في المدرسة وما للآخر من حق الرياسة في عملي بالحكومة وقتذاك - أنهما يملكان أن يقودانى بزمام إلى حيث ألقى السيد عبد الله عفيفي وأعذر إليه ، ولكنى رددتهما ردا جميلا ، ولكن المرحوم عبد الله عفيفي - فيما يبدو - كان حريصا على أن يلقانى ليتحدث إلى حديثا ما ، فبعث إلى رسولا ثالثا مترفقا في حديثه ؛ فلبيت الدعوة ولقيت الرجل في منزل الأستاذ

عبد اللطيف المغربي بالعباسية ، وجلست إليه أستمع إلى ما يقول . . .
قال : « لقد ذكرتني بما لا ينبغي في كتابك وكان حقاً عليك أن تسألني
قبل أن تكتب عني لتعرف وجه الحق فيما رويت ! »
قلت : « إني فيما كتبت لم أكن صاحب رأى ، وإنما أسندت ما كتبه
إلى راويه ! »

قال : « ولو كان راويه كاذباً دَجَّالاً »
قلت : « صه ! ذلك رجل مات فدع عنك ذكره وحدثني بخبرك ووجه
الحق فيه ! »

قال : « قد علمتُ أنك على نية إصدار كتاب عن المؤثرات السياسية في
جيل من الأدباء ؛ فصحح عني بعض ما رويت واذكر أنني لم أكن صنيعة
الابراشي باشا ، وإنما عرف مكانى وهياً لى أسبابى توفيق نسيم باشا . . . ! »
قلت : « ولكن ذلك ليس من شأنى ؛ فماذا يعنينى أن يكون الذى هياً لك
الأسباب هو الابراشي أو توفيق نسيم وإنما حدثني عن الرافعى أو عن
المؤثرات السياسية فى الأدب ! »

فعرض الشيخ على شفته وتريث برهة ، ثم لطف أسلوبه ورقاً ، وقال :
« أنا أعنى . . . » ثم عاد إلى الصمت ليستأنف حديثه بعد قليل قائلاً : « أنت
تعرف أن الموظفين فى القصر ينبغي ألا تعلق بأسمائهم شبهات سياسية ، فلست
أحب أن يذكر اسمى إلى جانب اسم الابراشي باشا . . . »

قلت : « قد فهمت ! . . . » فهل فهم القراء ؟
نعم ، فقد كان الابراشي باشا يومئذ موضع السخط ، على حين كان المرحوم

توفيق نسيم باشا فى موضع الرضا والخطوة ؛ فلا بأس أن يذكر أن عبد الله
عفيفى كان صنعة توفيق نسيم لاصنعة الأبراشى !
وقد قلت فى التمهيد لهذا التاريخ إننى راوية لاصحاب رأى ، فلاذكر إذن
أن كل ما كان بينى وبين عبد الله عفيفى رحمه الله من الخلاف هو : من
الذى اصطنعه !

الرافعى والعقاد

... لأنه ليمتق لهذا الكاتب من أساليب البيات
مالا ينفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها !
عباس محمد العقاد

... ذلك كان رأى العقاد فى أدب الرافعى قبل بضع عشرة سنة من هذه
الخصومة التى أروى خبرها ، وشتان بين هذا رأى يديه العقاد سنة ١٩١٧ فى
مقال ينشره ليعرف بكتاب من كتب الرافعى أنشأه فى ذلك العهد ، وبين رأى
الأخير فى المهذار الأصم مصطفى صادق كما يصنفه فى سنة ١٩٣٣

لقد مات الرافعى - رحمه الله - فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من
عداوات ، وما أريد أن أوقف فتنة نائمة يتناولنى لحيها أول ما يتناول ، فما لى
طاقة على حمل العداوة ، ولا اضطبار على عنت الخصومة ، ولا احتمال على
مشقة الجدل ؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جده الجاحدون
فهضت للوفاء به ؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم
أو يسىء ، فما ذلك أردت ولا إليه قصدت ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة

أحملها كارها ، وأضطلع بعثها مضطرا ، لأؤديها إلى أهلها كما تأدّت إلى . وإنى
لأعلم أنى بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسى بالموضع الذى أكره ،
وأنتعرض بها لما لا أتوقع ، ولكن حسبي خلوص النية ، وبراءة الصدر ،
وشرف القصد ؛ ولا علىّ بعد ذلك مما يكتب فلان ، ولا مما يتوعدّ به فلان ،
فإن كان أحد يريد أن يصل بى ما كان بينه وبين الرافعى من عداوة فانقطعت ،
أو يربط بى رابطة كانت بينه وبين فلان فانفصمت ، أو يتخذ من الاعتراض
على زلقى إلى صديق يلتمس ودّه ، أو يجعل مما يكون بينى وبينه سبيلا إلى
غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه - إن كان أحد يريد
ذلك فليمض على إرادته ، وإن لى نهجى الذى رسمت ، فلتفترق بنا الطريق
أو تلتق على سواء ، فليس هذا أو ذاك بما نعى من المضىّ فى سبيل ،
ومن الله التوفيق !

* * *

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعى ومعركة جديدة من معاركه ،
وإنى لأشعر حين أعرض لنش الماضى فأذكر ما كان بين الرافعى والعقاد ، أنى
كمن يدخل بين صديقين كان بينهما فى سالف العمر شخاء ثم مسحت على قلبيهما
الأيام فتصافيا ، فإنه ليدكر بما لا ينبغى أن يذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف
بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافعى والعقاد عداوة فى سالف الأيام فقد انقطعت
أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخا لا تتجازه الأرواح إلى آخرها إلا بعد
أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية ؛ فهنا ناموس وهناك ناموس ،
ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تخلّص ضوضاء الحياة إلى آذان من فى القبر ،
ولا ينتهى إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلّفوا من الآثار فى دنياهم .

هذه جبر في دعواه، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جمهور العلماء
 تحت لزوم من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 بغير ذلك، بل هو من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو

من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو

حاشي الرافعي قال: لا يثبت من مقتضى الأمر الشرعيات، ولا من
 وسكنه يقيني بوجه غير الذي كان ينبغي به، واستندت من جهة واحدة، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو
 من جهة واحدة، ولا يمكن أن يكون من جهة أخرى، بل هو

قال الرافعي: «وأخذت أناقشه الرأي وأبانيه الحور في هروء وروء
 لمرجلا يتلهب: إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لا يتخذ لنفسه هذا المهور
 في الهجوم على فكرة إيجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما يعرف
 وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتعنا به؛ فأخذت معه في الحديث، عن هروء وروء
 أعصابه... ولم أفهم إلا من بعد ما كان يدعو به إلى ما ذهب إليه...»

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ؛ ينافح عنه ويدعو إليه بقلبه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب أو أديب من الأدباء ، وأن له على سعد حقاً ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم ، وكتبها للرافعي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ... »

قال الرافعي : « ... من هنا يا بني كانت ثورته ، كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكاتب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفت ذلك من بعد ، فابداً على ما في نفسي من الانفعال ، ومضيت معه في الحديث في وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابي ، فهل تُراك أحسن رأياً من سعد ؟ » .

قال الرافعي : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأي سعد ؟ »
قال الرافعي : « وطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه ^(١) . فقبضت عليها يدي ثم قلت ؛ أفتراك تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وأنت تأكل الخبز في مدحه والتعلق بذكره ... ؟ قال : فاكتب إلى هذا السؤال في صحيفة من الصحف تقرأ جوابي كما عرفته الآن ... »

قال الرافعي : « وابتسمت لقوله ذاك وأجبتة : ياسيدي ، إن الرافعي ليس من الحماقة بحيث يسأل هذا السؤال في صحيفة من الصحف فتشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون في سؤال وفي صمتك تهمة لي ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد ! »

(١) كان الرافعي أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة في ورق !

قال الرافعي : « وما قلتُ ذلك - وإن ورقته في يدي أشد عليها بأناملي -
حتى تقبّض وجهه ، وتقلّصت عضلاته ، ثم قال في غيظ وحنق . ومع ذلك
فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعدا لم يكتب هذا الخطاب ، ولكذك أنت كاتبه
ومزوّره ، ثم نخلته إياه لتصدّر به كتابك فيروج عند الشعب !
قال الرافعي : « وما أطلقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكتُ
سلطاني على نفسي ، فهممت به . . . فدخل بيننا الأستاذ صروف . فدعا العقاد
أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ، فخرج والباب يبعث
في قفاه (١) ! »

□ □ □

هذه رواية الرافعي ، حدثني بها غير مرة في غير مجلس ، كما تحدث بها
إلى غيرى من أصدقائه وخاصته : فمالى فيها إلا الرواية والتصرف في بعض
الكلام ، تأديبا مع العقاد وكرامة لذكرى الرافعي .
وقد بدا لي أن أستوثق مما حدثني به الرافعي ، فقصدت إلى الأستاذ فؤاد
صروف - محرر المقتطف - أسأله الرأى في هذه الرواية ؛ إذ كان من شهود
الحادثة على ما رواها الرافعي ؛ فقال :

« . . . هذا الحديث في جملة وفي موضوعه لا اعتراض لي عليه ، وبقدر
ما تطاوعني الذاكرة أستطيع أن أجزم بأن شيئا من ذلك قد كان ؛ ولكن الذى

(١) عرضنا لدعوى العقاد أن الرافعي إنما اصطنع كتاب سعد ونخله إياه ليروج
به عند القراء ؛ إذ كان اسم سعد كالطابع التجارى لبضاعة لاتبور ؛ وقد رجعنا إلى
الأستاذ محمد ابراهيم الجزيرى سكرتير سعد الزعيم فأكد لنا صحة هذا الكتاب ، وزاد
إن سعدا نفسه هو الذى كتبه بخطه لم يكل إلى أحد من سكرتيريه كتابته ؛ وقد أشار
إلى هذا في مذكراته عن سعد .

رواه لك الرافعى من حديث العقاد فى هذه المناظرة ليس على نصّه ؛ قد يكون هذا مؤدّى ما قال ولكنه ليس به ، والرافعى - رحمه الله - كان أصمّ ، ولم يكن كل الحديث بينهما مكتوباً ، وقد قال العقاد فى مناظرته كلاماً لم يكتبه ولم يسمعه الرافعى ولكنه تخيّل على ما أحسب ، فكانت روايته للحادثة من بعد معنى يرويه لا لفظاً يحكيه .

« ... ، ولكنى مع ذلك لا أنكر ما كان من حديث العقاد فى هذه المناظرة عن القرآن وإعجاز القرآن ، ورأيه فى ذلك يعرفه أصحابه !
» ثم لا أدري من أين جاء الرافعى أننى دعوت العقاد أن يغادر المكان ؛ فما كان ينبغي لى هذا ولا هو من آدابى وإنهما لضيقتان فى دارى ؛ وأحسب أن الرافعى قد فهم ذلك خطأ حين رأى العقاد يغادر المجلس !
قلت : وقد أطلعنى الرافعى على ورقات قال إن العقاد كان يحدثه كتابة فيها ، وفيها عبارات تبرهن على صدق الرافعى فى روايته . . . كما أشار الرافعى فى كتابه « على السفود » إلى طرف من هذه المحاوره ، وإلى هذه الورقات التى يحتفظ بها برهاناً على بعض ما يصف به العقاد (١) .

على السفود

وفرغ الرافعى من مقالات عبد الله عفيفى التى كان ينشرها بعنوان « على السفود » ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور وما يزال فى نفسه شىء مما كان من المحاورة بينه وبين العقاد ؛ فسأله الأستاذ مظهر تمة هذه السلسلة فى نقد الأستاذ عفيفى ، فاعتذر الرافعى وقال : حسبي ما كتبتُ عنه وحسبُه . قال مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء ؛ إن فى هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعى إلى شىء فى نفسه ، وجلس إلى مكتب فى دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود فى نقد العقاد ؛ وتوالى مقالاته من بعدُ فى أعداد المجلة متتابعة فى كل شهر ؛ فلما تمت هذه المقالات ، نشرها الأستاذ إسماعيل مظهر فى كتاب قدّم له بمقدمة يأمضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذى لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربى »

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه ومحورها الذى كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلتُ كلا من الأدبيين الكبيرين ينسى مكانه ويغفلُ به ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمّم أو يرى فى ذلك معابة عليه . وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية في الجيل الحديث كانت لهم هذه الحلة
المرذولة في النقد وفي أساليب الجدل ؛ هذان اثنان منهم ، وكان للرافعى مع كل
واحد من الاثنين الآخرين معركة ، على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها
عن حدود الأدب اللاتقى هى المعركة بينه وبين العقاد !

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذى دار بين الرافعى والعقاد فى
دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن : وكان للعقاد
فيهما رأى غير رأى الرافعى ، فكانت غصبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن
والعقاد ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقاد يجحد فضله : ثم كانت الغصبة الثانية
للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونخلته إياه فى
تقريط إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فتمه سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعى بإعجاز القرآن إيماناً
لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد فى كتاب الرافعى ، ثم تهمة
له بأنه مفترٍ كذاب ... !

ترى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذى أثار الرافعى فدفعه إلى الخروج
عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات « على السفود » ... ؟
الرافعى يقول : إنها غصبة لله وللقرآن . وللتاريخ رأى لست أدري أيفارق
هذا رأى أو يلتقى وإياه على سواء ... ؟

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف ،
فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض
فى فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب

الخصام ... الرافعى يقول : هذا أسلوب من الردّ قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزرارية بأذبه ؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربية ، لاتراهم يستمعون لرأيه عند ما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ولا يستقيم بيانها على لسانه ؟ ... هكذا يقول الرافعى ! ...

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :
« ... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« ... ونقدم بهذه المقدمة تعريضاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى اعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !
« وعسى أن يكون السفود (مدرسة) تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة ... »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فاعم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالا يحتذيه النّقدُ فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النّقدُ هذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية .

والحق الذى أعتقده أنّ فى هذا الكتاب - على ما فيه - نموذجاً فى النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها ، ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليئاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أدمُ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من 'مُجَرّ القول ومر الهجاء' ، ولئن كان هذا مذهباً معروفاً فى النقد للرافعى وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية فى هذا الجيل - إننا لنريد للناقدين فى العربية أن يكونوا أصحّ أدباً وأعفّ لساناً من ذاك ... !

ذلك رأى قلته للرافعى - يرحمه الله - فما أنكره على ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعنى اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء . ولقد همّ الرافعى منذ سنوات أن يجمع كل ما كتب فى النقد بعد كتاب ' المعركة ' فى كتاب واحد ؛ فأبدت له رأى أن يضم إلى هذا المجموع مقالات ' على السفود ' ، بعد أن يجزّدها مما يعيها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا رأى واطمأن إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته .

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفنى البديع مضموراً فى الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له ' الحمأة المنتنة ' وهيئات أن تقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع فى النقد يكتنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء .

ولقد كان الرافعى نفسه يعترف بأن فى الكتاب ما لم يكن ينبغى أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولكن الرافعى مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر ...

قال الراجعي : « ... قال لي قائل : لقد قلت في العقد ما كان حريا أن يقفه وإياك أمام القضاء !... قلت : ولكنني كنت على يقين بأن العقد لن يفعلها ! إنني كنت أهاجم العقد بمثل أسلوبه في النقد ، وإن معي لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعي أمام المحكمة فيخسراً كثيراً يرجح ؛ ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن به وحكمت لي محكمته ... ! »

ذلك حديث الراجعي ... فهل كان هذا حسبه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيراً من قراء « على السفود » يضعونه في غير هذا الموضع الذي أضع ؛ مؤمنين بأن في الأدباء طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب على السفود !

* * *

انتشر كتاب « على السفود » وتناوله القراء على أن كثيراً منهم لم يعرف كاتبه إلا بعد سنين ... وكان في هذا خير للراجعي ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفد هو الأمة كلها ، قراؤها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقد بذلك هو عند الشعب إمام الكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارق من الوطنية ، ولو كانت عداوته في مسألة أدبية لاتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن .

* * *

ثم كانت هُدنة بين الراجعي والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلاً وكل منهما يترصد لخصمه ليضربه الضربة القاضية ، حتى كان خريف سنة ١٩٣٢ .

مات المرحوم شوقي في أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فاهتزت لموته المجامع الأدبية (١٣ - حياة الراجعي)

في مصر والشرق ؛ فأتجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به . وتهيأت ، المقتطف ، لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكا أن يصدر ، وأبرقت إلى الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد .

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلات الود ما يتيح له أن يعرف شيئا من حياته يُعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافعي مستعدا لهذه الدراسة ، ولا تهيأت له من قبل أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل . وإن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب ، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلّص له فكره أياما وليالي ، يبحث ويوازن ، ويزاوج ويستنبط ؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب ؛ ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب ويرسل مقاله في الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحدا من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله ؛ فأنصف شوقي ، وجلّ عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد .

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطات في النحو أو اللغة ، أن شوقي أخطأ في رفع جواب الشرط من قوله :

إن رأيتي تميلُ عني كأن لم يك بيني وبينها أشياء !

وهي هنا صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهًا من التعليل

وبابا من العذر .

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه ؛
فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحداً لساناً في
نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكذب يغرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف ، حتى تناول
قلبه ليكتب كلمة يرد بها رأى الرافعي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي ...
وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعري أفعلها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو من هو في عداوته ؟ أم
تحدياً للرافعي ... ؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباهياً بشوقي ، مفاخراً
بأدبه وفنه وعبقريته ، شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال
سألته نفسي يومئذ ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم ؛ ولكن
جواب هذا السؤال معروف لكل من يذكر ما كان بين الرافعي والعقاد ، ثم
ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب !

وقال لي الرافعي : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ » .

قلت : « أنا وهو على رأى واحد فيما يرد به ! » .

فطشفتيه ساخراً وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون
من علماء النحو في العربية ... ليس الرأى ما يقول العقاد وتوافقه عليه ... » .
وتماكك عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسبهة يرد بها رأى العقاد ويصرُّ
على تخطئة شوقي في رفع جواب الشرط من هذا البيت ، ويتهم المتأخرين من
علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يُفيض ويسترسل في بيان
الأوجه التي يجوز رفع جواب الشرط فيها ، وما يصيب منها وما يخطئ .

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأى فيما كتب الرافعى في هذا الموضوع ؛ فإن لي أن أرد كل شيء إلى أسبابه فأزعم أن الرافعى لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية ، ولكنها انكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية ... !

ولست أكنم هنا أن الرافعى كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة ؟ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لي مرة : إن الذى يعين العقاد فى ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكنى أحسب أن الرافعى نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب فى الرد على العقاد ، فبقى فى نفسه شيء يحتمسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحى الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحى الأربعين » ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فغدوت على بيت الرافعى لأهنته ، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مثلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمة بد من الحديث فى الأدب ، وفى الشعر ، وفى المطبوعات الجديدة ؛ وهو حديث يحلو

لرافعى ويخنو لمخوف ، ولو استغرق هذا الحديث سخابة يوم العيد من الضحا إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح فى بيت المضيف وفى بيوت الجيران !

وسأل الرافعى مضيفه : « ماذا عندك من الجديد فى الكتب ؟ »
وضحك لمخوف وهو يضم بعينه ويقول : « وحى الأربعين ! »
ووجد الرافعى طلبته ، فدعا بالديوان الذى يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد !...

وجاء الديوان فوضعه الرافعى بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم فى ديوانه برأى قبل أن تهيمألى أسبابه ؛ وإنى لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عيني أول ما تقع على أردإ ما فيه فأحكم على الديوان بيعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تقتاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بينى وبين العقاد لسابق عداوة ، وأتأبرئان من التهمة وسوء الظن : فهأكما الديوان فقلبأ فيه النظر ، وتداولأ فيه الرأى ، ثم دلأنى على أجود ما فيه لنقرأه معا فنحكم له أو عليه مجتمعين ، ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأى فى هذا الجيد المختار هو الرأى فى الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة ! »

ورضينا رأى الرافعى ، فأخذنا الديوان تقلبه صفحة صفحة ، ونقرؤه بيتا بيتا ؛ والرافعى منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطنأنا الرافعى فيما دعانا إليه فقال : أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ! ولن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان معا من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ...

وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه ، ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا
الرأى فى أشياء ، وكان الأستاذ مخلوف أكثرنا حماسة فى النقد ، ومضت
ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأى يديه ، ثم طوينا الديوان وأخذ مخلوف
يتحدث فى موضوعه ...

وقال الرافعى مخاطبه : وما دمت على هذا الرأى فى الديوان فلماذا لاتنشره
إن لك لسانا وبياناً ، وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدياء العربية ... !
وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعى ... وتنبأ لكتابة نقده ...
ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » فى صدره مقالاً مجوداً للأستاذ مخلوف
فى نقد ديوان وحى الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء فى بضعة عشر موضعاً ،
وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال ... ومضى يومان وكتب العقاد فى صحيفة الثلاثاء
من جريدة الجهاد ردّه على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدراً أن العقاد سيتناوله
بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...
لم يردّ العقاد ردّ الأديب على ناقده ، ولكنه راح يتهم عليه ويسخر منه
ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذا كان مخلوف من مدرسى
اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد اتهمها سائحة ليطعن على
مدرسى اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ويلحد فى كفايتهم وعلمهم ، ويعود
بالسبب فى ضعف اللغة العربية فى المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف ، ولم
تسلم مدرسة دار العلوم التى تخرج فيها مخلوف ، ولم يسلم واحد من مدرسى
اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته فى هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب
ينقده ويحاول رده إلى انصواب فيما رآه خطأ فيه ... !

وكتب مخلوف مقاله الثانى يردّ مطاعن العقاد ، ويتمم ما بدأ فى نقد وحى الأربعين : ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصا على مودته ...

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعة من مدرسى اللغة العربية نصلى الجمعة كل أسبوع فى مسجد المنشاوى بطنطا ، فلقينا هناك مخلوفا فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسى ، وكلهم قرأ مقال العقاد فى الطعن على مدرسى اللغة العربية بسبب مخلوف ، وقليل منهم من قرأ مقال مخلوف . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعى ما زحوا لقد لقيته بعد ذلك : « لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفا من إخوانه ، وفيما نال مدرسى اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذى عجت مخلوفا إلى هذه المعركة ، فانتهدت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه : وكانت سببا فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسى اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعى منزلة ، ولدار العلوم فى نفسه مكان : ولكنه أجابنى : « وماذا على أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ ،

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه ، ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! ،

وقصدت فيما قلت - ومعذرة إلى الأستاذ العقاد - أن أهيج الرافعى للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدياء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم

من ورائها نفع ومتاع ولذة... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعى بأن يكتب ما فى نفسه من ديوان وحي الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشتري له نسخة على حسابى من الديوان ، لأنه يأتى أن يدفع قرشا من جيبه فى كتاب من كتب العقاد ... !

ونفذت الشرط ، وتبها الرافعى للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعانى ليملى على مقاله الأول فى نقد الديوان ...

صدر « وحي الأربعين » فى سنة ١٩٣٣ والسياسة المصرية يومئذ تسير فى طريق معوج ، وحكومة صدق باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق فى كل مدينة وكل قرية ، فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب ، وأشعر من نظم ، حتى ليثول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين لقب أمير الشعراء !

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء أولاً يكون ، ولكن هذه هى كانت منزلته عند الشعب يومئذ ، فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد فى أى منشآته الأدبية والسياسية إلا كان فى رأى الشعب « دسيسة ، وطنية .

هذه هى كانت الحقيقة فى تلك الحقبة من التاريخ التى امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعى رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لموثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه فى الأدب

وطريقته ؛ وسوائه عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون مادام ماضيا على طريقته ونهجه ، ولقد قدمت القول بأن الرافعى كان يتربص بالعقاد لينزل إليه فى معركة حاسمة تنقذ غلته وتبرئ ذات صدره . فما إن تهيأت له الأسباب بصدور «وحى الأربعين» حتى تحفز للعراك ؛ وكان ما بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذى ألهم حمية الرافعى ، فنزل إلى الميدان مستكملا أهبته مزودا بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديسا أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسى والعقاد الأدبى ... !

... وأرسل الرافعى يستدعنى إليه ذات مساء . فرحت إليه بعد العشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه «وحى الأربعين» وإن عليه عباءة حمراء فى لون عرف الديك ، وفى عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه ليدو فى مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لى فيه لرأيا ؛ فهل تساهرنى الليلة حتى أملئ عليك ما أعددت فى نقده ؟ »

كانت هذه أول مرة يملئ الرافعى علىّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصة سعيدة لى ، أشهد فيها الرافعى حين يُلَقِّىّ الوحى ، وأصبحه فى سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعانى . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يدا غير يده تحمل له القلم حين يكتب لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وماتعود قبلها أن يكتب وفى مجلسه إنسان ؛ وإن أثقل شئ عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه أن يعرف أن عينا تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ ، متبرزا

المهمة ، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد ، وإن خطه لأردأ خط
تُ في العربية ... حتى اصطفاني لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهم
أية مقال إلا دعائي ليمليه عليّ ، حتى انتقلتُ من طنطا فعاد إلى ما كان من عادته ،
على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدى يشركه في جلوة الوحي
لملوة الكتابة !

... وجلس فأملئ على مقالته من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر
كف ، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت لهذه القصاصات بضعا
عشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهرا من جريدة البلاغ . وكانت ليلة
ملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمّل في ليلة غيرها ، فتمت منهوك القوة
إن ، وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في عنفوانه ، كأنما كان عليه عبء
ماه عن كتفيه ...

وكان بين البلاغ والعقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعي مودة ، فما كادت
صل إليه مقالة الرافعي في البريد المسعجل ظهر ذلك اليوم ، حتى أعلن عنها
بشر القراء أن ينشرها في غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين ...
كان نقدا مُرا حاميا اجتمع فيه فن الرافعي ، وثورة نفسه ، وحدة طبعه ،
حرارة بغضائه .

أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية : إن هذه المقالة هي
خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات
لميلة يُعفيه من تبعثها أنه إنسان !

من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعى وأنزله غير ما كان يُنزلُه من نفسه فليقرأ مقال الرافعى فى نقد « وحى الأربعين » ليرى الرأى المجرد فى شعر العقاد عند الرافعى ...

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها ردّ العقاد على الرافعى ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعى حسابه ، فتغير وجه الحق ، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر ، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ، والمهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى ، وكان أكثرها سباباً وشتيمة وأقلها فى الرد والدفاع ، على أنّ العقاد لم يرد رأى الرافعى فيما أخذ عليه من مآخذ إلا فى مواضع قليلة ، وترك الرد فى أكثر ما عاب عليه الرافعى ، مستعيضاً عن الرد بالشتم والسباب ...

وإذا كان السبب مفهوماً فى طعن العقاد على الرافعى وشتيمته إياه ، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك إسماعيل مظهر مع الرافعى فيما وجّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يذكر أن إسماعيل مظهر صاحب العصور ؟ هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروّجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الردّ على مقال الرافعى الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة سانحة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعى وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود » .

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافعى ، هو اتهامه فى وطنيته ، وإيهامه قراءه بأن الرافعى لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد

السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها العقاد !

إن للعقاد مفاجآت عجيبة فى النقد ، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال فى أساليب السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع رأى بالرأى والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد فى الرد على الرافعى ، فوجدت أسلوباً فى الرد يؤلم ولا يفهم ، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج ؛ فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافعى مُرَبِّد الوجه من غيظ وغضب ، مُزِيد الشدقين من حقق وانفعال ؛ فسرتنى أن أسعى إليه قبل ميعادى لأراه فى غيظه وحنقه وانفعاله ، فاتتهزت ساعة فراغ فى الظهر ، ففضيت إليه فى المحكمة ؛ فما كاد يرانى مقبلاً عليه حتى هتف بى وهو يتسم ابتسامة السرور ثم قال : « أقرأت مقال العقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « فماذا رأيت فيه ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلماً ! » فضحك وقال : « والله مارأيت كاليوم ! لقد ضحككت حتى وجعنى قلبى من شدة الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً ولم يرد على شئ ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعلاه عند القراء شاعراً كما يشتهى أن يكون ، وإن حسب أنه بذلك يكسب المعركة ؛ وقد حق عليه ماقلت فيه ، وإنه ليعترف ؛ إن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز ... »

قلت : « إذن فأنت لاتنوى الرد ؟ »

قال : « وأى شئ تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »

قلت : « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه ، ولن يسموه إلا

انسحاباً من المعركة ... ! أقترضى أن يقال عنك ... ؟ »

وبدا على الرافعى كأنه اقتنع ، وهاجته كلمائى مرة أخرى إلى النضال .
ومعذرة ثانية إلى العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعى جديرة بأن يحتفل لها الأدباء
وأن تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها متاعا ولذة وفائدة ، وما كان
لى أن أقنع وقد هجيت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهى
من أول شوط !

وقال لى الرافعى : « هل توافينى الليلة لأملى عليك ؟ » .

فواعدته : وذهبت إليه فى المساء فأملى علىّ فصلاً من نسخته الخاصة
لكليّة ودمنة بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالاً فى الرد
على العقاد . وكان فصلاً قاسياً عنيفاً ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ،
إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب ، بل الردّ والسخرية والإيلام ، ثم قطع
السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قادم من مواضع النقد .

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة شاكراً للذين أيدوه ، معتذراً
من عدم الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافعى ! واستمر الرافعى يكتب
حتى فرغ .

وكان النصر للرافعى عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء
العقاد الكاتب الوطنى الكبير . إذ لم يروا عداوة الرافعى له فى الأدب
إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد !

* * *

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعى والعقاد ، ولكن الرافعى لم يقتنع بما
نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ،

إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه
لأنهم على مذهب العقاد السياسى ، فظل مغيظا محنقا إلى حين ...

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فإذا العقاد الذى
كان كاتب الوفد الأول خارجاً على الوفد ، يطعن عليه وعلى رئيسه ، وأنصار
الوفد مايزالون إلى يومئذ أكثر الأمة ... ووجد الرافعى الفرصة سانحة
لينتقم ، وليستخدم السياسة فى التليل من خصمه فى الأدب فيكيل له صاعا
بصاع ويحاربه بمثل سلاحه ، فكتب مقالاً بغير توقيع فى كوكب الشرق ،
جريدة الوفد ، بعنوان « أحق الدولة » وكان مقالاً له رنين وصدى ...

ونشر فى « الرسالة » يومئذ كلمات تحت عنوان « كلمة وكلمة » عرض فيها
بالعقاد الخارج على الوفد تعريضا ألما يؤذيه ، لم ينبه له إلا القليل .

وكان مقاله عن العقاد فى كوكب الشرق ، وكلماته فى الرسالة ، سببا فى
أن يدعو الأستاذ توفيق دياب ليحرر فى « الجهاد » بأجر كبير ؛ ولكن لم يتم
بينهما اتفاق .

ولم تكن تسنح للرافعى سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها فما كتب الرافعى
عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضا بشعر العقاد .
ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه فى المقطم ، وماشره عن
الشاعر محمود أبو الوفا فى الرسالة . ومقالته « بعد شوقى » معروفة مشهورة ،
وكلها تعريض بشعر العقاد الذى نخله الدكتور طه حسين إمارة الشعر فى يوم
من الأيام بعد شوقى !

والعداوة بين الرافعى والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أى أثر فيما أنتج كل من الأدبيين الكبيرين فى أدب الوصف ، ولاتدانى هذه العداوة فى الشهرة إلا العداوة بين الرافعى وطه حسين .

وأحسب أنه كان فى الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعى فى تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة مرة قُبيل موت الرافعى : « وددت لو يكتب العقاد فى الرسالة ، ولكنما يمنعنى من دعوته إلى ذلك أنى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد » ، قلت : « فماذا يمنع ؟ » .

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتدادا بنفسه بإزاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئا ذا بال ، ولكنه مع الرافعى والعقاد له شأن أى شأن » .

وظل صاحب الرسالة معنيا بهذا الأمر ، حريصا على أن يجمع بين الأدبيين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فأنحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !

رحم الله الراحل ، ونفع بالباقي !

فترة جمام

نفض الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزود ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً ، كان فى أثناءها يتبها لإتمام كتابه « أسرار الإعجاز » ، ويعمل فى الوقت نفسه على جمع مانشر من المقالات فى الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتاباً يسميه « قول معروف ... »

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف - لم تمنعه أن يكون له فى كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هذه الساعات المحدودة فى أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جمام وراحة لم ينعم بمثلها فيما بقى من حياته . وكنت بصحبته يومئذٍ قريب العهد ، ولكنى كنت ألصق أصحابه به ؛ فكان لى معه كل يوم ساعات : يقرأ لى وأستمع إليه فى داره ، أو أماشيته فى الخلاء ، أو أجالسه فى القهوة ، أو أحمجه إلى السىما . وكان على فى هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهذى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضمناً بوقته على قراءة ما لا ينفيد ؛ وكثيراً ما كان يدفع لى بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيى فيه وأشير عليه بالجواب ، أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير فى تكوينى وتوجيهى فى الأدب توجيهها لم أكن أقصد إليه ، كما تأثر هو بصحبتى فى هذه الفترة تأثراً وجهه فى أدب الإنشاء توجيهها لم يكن يُعرف به منذ نشأ فى الأدب

قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يتَّهم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصة - وما تزال - أحب ألوان الأدب إلى ، على حين كان الرافعى لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطورها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعد فصار ما ينشئ من القصص هو أحب منشأته إليه ، وخطابها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يذكر في هذا الباب أننى كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وقّعها عند القراء يدفعنى إلى الإجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب على ما أكتب ، ولا يرضى منى أن تكون القصة هى كل ما أعالج من فنون الأدب ، ذلك هو الرافعى ؛ وكثيراً ما كان يقول لى : « يابنى ، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً ؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هى كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء ، وإن فىك استعداداً لا أكثر من ذاك ... » ، وما زال يلحّ علىّ ويكرر هذه الملامة ، حتى وقع فى نفسى أننى أسىء إلى نفسى بمحاولتى أن أكون قصصياً ؛ فانصرفت عن القصة وكانت أحبّ إلىّ ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشئ من « القصص المدرسية » التى أوّلّفها للتلاميذ على أنها وسيلة من وسائل التثنية لا باب من الأدب ، ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هى أكثر ما يعالج الرافعى من أدب الإنشاء ، وكان له فيها قَواقٍ وسبق ، وحلت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ...

وإذ كان فى أذنى الرافعى ذلك الورق الذى يقطعه عن دنيا الناس ، فإن

(١٤ - حياة الرافعى)

أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء ، فلما اصطفاني بالود ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه وما يرى القراء في أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملى عليّ ، حاورته فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبؤ عنه أسماع القراء ؛ ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع ؛ وكان ينكر ذلك عليّ أول أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك مني ، فكان يملئ عليّ العبارة من المقال ، ثم يسألني : « ماذا فهمت مما كتبت ؟ » فإذا كان ما فهمت يطابق ما في نفسه ، مضى في إملائه ؛ وإلا عاد إلى ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ويبين المراد . وبلغ في النهاية أن يسميني - على المزاح - : العقل المتوسط من القراء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال ، إلا أحاديث كان يملئها على بعض المرتزقة من كتاب الصحف الأسبوعية . وكان له بطانة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يغدون إليه في المحكمة ليسأله حديثاً فيملئ عليهم جوابه ، ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره . في هذه الفترة ، وكلّ إليه الأديب حسام الدين القدسي الوراق تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحح له أغلاطه ويتم نقضه ، على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب .

وقبل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره ، ليقراً الكتاب قبل أن يقرأه

الناس ، وليستمع بلذة المعاناة في تصحيحه وتصويب خطئه : وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يتقوى عليها إلا القليل من الأدباء ، ومضى في هذا العمل شهرا أو يزيد : وكنت معه فيه ، ثم انتكشت المعاهدة التي كانت بينه وبين القدسي ، فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءا غير قليل . وقد استطعت في تلك الفترة التي صحبت فيها الرافعي وهو يحاول تصحيح الكتاب ، أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية : وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء عجيبة : من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأنني بإزاء مكتبة دقيقة الترتيب منظمة التبويب ما شئت من بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحيانا يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ؛ فيضع فكره موضع فذكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتسارق الكلام ؛ وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظال الرافعي يبحث يوما كاملاً عن تمام بيت من الشعر في مظاهره من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولني ذلك الكتاب » فددت يدي إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذي كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبل لتصحيحه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت أنظر في الكتاب الذي بين يدي : فإذا تمام البيت فيما كتبت وفي الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا في حرف الجر ... أأن كان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ... ؟

ولم يكتب الرافعى فى هذه الفترة إلا بضعة مقالات ؛ وكان لكل مقال حافزه ودواعيه :

١ — كان السيد حسن القاياتى يكتب فى جريدة « كوكب الشرق » كلمات فى موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوماً أن يكتب فى الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة... » وقول العرب : « القتل أنفى للقتل ! » فانزلق إلى رأى ... وكان محرر الكوكب فى ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو من هو عند الرافعى فى دينه وفى أدبه وفى إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعى يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق .

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعى برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتى وإلى ضلاله فى تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن : ودفع إلى الرافعى رسالة شاكر وهو يقول : « أتصدق هذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هى مبالغة وتهويل من محمود ، أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث فى طلب الجريدة التى نشرت هذه الضلالة فجىء بها ؛ فما كاد يقرأها حتى أربد وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شذيقه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل مواعده . فانقطع عنى يومين ثم أرسل يستدعيني إليه ، فأملئ على مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة ! » وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعى ، نشرتها البلاغ فى صفحاتها الأدبية ؛ وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً فى بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعد فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الإعجاز »

الذى لم يطبع بعد... (١)

وقرأ القاياني مقال الرافعي في الرد عليه، وأحسبه قد اقتنع بما قرأ واعترف على نفسه في خلوته، ولكنه لا بالصمت، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن؛ فلا هو رد عليه ولا هو اعترف علانية بما كان من خطئه فيما أنزلت إليه...

وفتح مقال الرافعي أبواباً من القول لطائفة من الأدباء؛ إذ كان فيما رد به الرافعي أن كلمة «القتل أنفى للقتل» ليست جاهلية كما يعرف أكثر قراء العربية ولكنها نشأت في العصر العباسي لمثل ما استعملها له القاياني في معارضة القرآن، وأسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكتهم بن صيفي لئتم له قصده؛ وجازت دعواه على كثير من قراء العربية حتى كشف الرافعي عن زيفها بعد ألف سنة!

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعي وبعض الأدباء؛ وكان أول من عارض لمناقشة رأى الرافعي هو أخونا الأستاذ عبدالعزيز الأزهرى؛ ولكنه لم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط؛ فكتب إلى الرافعي رسالة خاصة في البريد يستعفيه ويحتذر إليه بأنه مشغول البال بالاستعداد للزواج..! ثم تداول رأى غيره، فكتب الأستاذ الكبير «أزهرى المنصورة» (٢)، يرى في تاريخ الكلمة رأياً غير ما يرى الرافعي؛ وكتب شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي؛ وطال الشد والجذب حول تاريخ هذه الكلمة

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد في موضوعه وفي تأليفه، سيلقى من عنابة أدباء العربية ما يحملهم على محاولة إتمامه في وقت قريب. على أنى قد نشرت هذا الفصل فيما نشرت من مقالات الرافعي في الجزء الثالث من «وحى القلم».

(٢) صحح عندنا أخيراً أن الأديب الكبير (أزهرى المنصورة) هو أستاذنا وصاحب الأيادى علينا الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي نفسه؛ فمن شاء برهانا على ذلك فليقرأ الصفحات الأولى من كتاب (الإسلام الصحيح).

فترة من الزمان (١)

* * *

٢ - وفي هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يبنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يمتنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلساته ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ..
وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع .

واقترح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلى جريدة البلاغ قائلاً : « اقرأ ؛ هذا أديب صنفير يهاجم المجمع اللغوى فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليُشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لازعة ... كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعها « أديب صغير » ، مبالغة فى السخرية والتهكم . وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس له فى العربية مكان .

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إنجازهِ إلا أديب كبير » ، قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعراً بجوابه ، ولكننى

(١) انظر قصة الكلمة المترجمة : فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجموعة

مجلة الرسالة .

كذبت نفسى ... أليكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عني ؟ لقد كان معنى أمس ،
وأمس الأول . فلم يحدثنى بشئ فى ذلك ؟

وقلت للرافعى : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر ... لقد
حاولت فلم أوفق » وكان حسبي هذه الكلمة ليزول كل شك فى نفسى ، فما
كذب على الرافعى قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الشيخ حسين والى عضو المجمع ، وعاد الرافعى يرد ويتهكم ويسخر ،
ويتحدى المجمع اللغوى كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التى مرّت بها
كلمة (حِطَى) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) فى برقية الشكر
إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الشيخ حسين والى ، وظل الرافعى
(الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) فى نقد المجمع اللغوى : هى آخر ما كتب الرافعى
فى النقد على أسلوبه وطريقته (١) .

٣ — وما كتبه الرافعى فى تلك الفترة بحث طويل فى البلاغة النبوية أنشاء
إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق ، لتشره فى ذكرى المولد النبوى
وقدلقى من العناية فى إنشاء هذا الفصل ما لا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن
تعلم أن الرافعى لم يتهياً لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخارى كله قراءة دارس ،
وأنفق فى ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ
فيه صحيح البخارى قراءة تلاوة ؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوق بلاغة

(١) كان من نالهم رشاش هذه المعركة الصغيرة ، أستاذنا العلامة الشيخ عبدالقادر
المغربى عضو المجمع ، سلكه الرافعى ، فيمن سلك على غير قصد ولا نية ؛ لأنه اتفق
له رأى فى بعض ما يجب على المجمع نشره فى البلاغ إبان هذه المعركة ، فظن الرافعى
أنه يعنى بهذا المقال أن يرد عليه ، فكان للرد على الأستاذ المغربى نصيب من مقال
الرافعى . تقرأ قصة (حطى بالشئ) فى تفصيل أطوار هذه المعركة ، فى الجزء الثانى ،
السنة السادسة من مجلة الرسالة ، لأستاذ جليل .

الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعى الذى كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجهه قلبه ! وكتب الفصل بعد ذلك فى ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلى لا كتبه بخطى ولم يمله على ، فأنفقت فى كتابته ثلاثة أيام أخرى .

هذا الفصل يملأ نحو أربعين صفحة من مثل هذا الكتاب ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن - لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة - فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه (١) .

٤ — وما فرغ الرافعى من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجة إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكبد يأتى المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يعد لها موضوعاً تنشره فى صحيفتها لمناسبة المولد النبوى كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعى ، فهم أن يلقي الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تخرج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأفعلها قربى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بى هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى على مقاله « حقيقة المسلم » الذى أعاد نشره فى الرسالة بعد ذلك وجعه إلى وحى القلم .

وله فى هذه الفترة بضع مقالات أخرى نشرها فى مجلة المقتطف . ثم دعت الرسالة ليكتب فصلاً عن الهجرة فى العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣ هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبلى .

* * *

٥ - بعد ما أنشأ الرافعى مقالة «وحى الهجرة فى نفسى» ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه «الملاح التائه» وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعى والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت فى مكتب الأستاذ صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعى يقضى أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك يلتقى الرافعى ، وصروف ، وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتمل الجدول ساعات فى موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعى ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة - أحب إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعد حين اتصل سببه بالرسالة ، فكان يقضى وقته بين عيادة الدكتور شخاشيرى فى فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والمازنى فى البلاغ ، وإخوان صروف فى المقتطف ، والزيات فى دار الرسالة . ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام فى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ؛ عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه « وحى القلم » .

قلت : إنه كانت بين الرافعى والشاعر على محمود طه صلة من الود . ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميماً) للبيت الذى كان فى نيته أن يبنيه لينقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعى من جهاده بضعا وثلاثين سنة ، بضع مئات من الجنيهات ، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتا يسكنه - إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه - وبقي معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفى نفقات البناء والإنشاء ، فأثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شئ ، وأسلف صهره مابقى عنده من المال إلى أجل ، وفى النفس أمل . . ثم جاءت

الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعاً لم تُبق منها على شيء ، وضاعت ذخيرة الرافعى فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعى من جهاده وما ادخر إلا الأرض الحربة ، والأمل فى عطف الله ، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاء وحديقته ، مرسومة على ورقة زرقاء ... !

... وجاءه ديوان الشاعر على محمود طه ، وديوان الماحى : فدفعهما إلى لاختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولكن رأيت فى ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهياً للكتابة عنه ...

وأنشأ مقالة مسببة نشرها فى المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته فى فهم الشعر وفى إنشائه ؛ ثم اتنى إلى الشاعر المهندس بمدح ويثنى ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمناً بما كتب ، ولكن إيجاءات من الواعية الباطنة^(١) كانت تملى عليه بعض الحديث فى التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول المازنى ديوان « الملاح التائه » فى البلاغ بعد ما تناوله الرافعى ، فعاب عليه أشياء كان الرافعى يمتدحها ، وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة والأسلوب ؛ فكانت مقالة المازنى حافزة للرافعى على أن ينشئ مقالة للرسالة فى الرد عليه ، جعل عنوانها « الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنّيته » ؛ فهذه المقالة كان الرافعى يقصد المازنى ، دفاعاً عن صديقه الشاعر ، أو دفاعاً عن مذهبه فى الشعر . وكانت هذه أولى مقالات الرافعى فى الرسالة بعد فترة من مقالة « وحى الهجرة » وقد أنشأها على نهج القديم ، وحاول فيها فنا من التهكم فى قصة اختراعها عن الأصمعى الراوية .

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير للرافعى عما يسمونه بالعقل الباطن .

كان الراجعي مفتوناً بمقالاته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة : البلاغة النبوية ، وحقيقة المسلم ، ووحى الهجرة . وكان حُسن وقعها عند كثير من القراء ، حافزاً له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني ، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفي ، ليجعلها كتاباً بعنوانه ، يتناول سيرة النبي المعظم - صلى الله عليه وسلم - على طريقة من التحليل والفلسفة ، لأعلى نسق من الرواية . فأنشأ بعد ذلك مقالاته : « سمو الفقر » ، و « الإنسانية العليا » ، ثم بان له من بعد أن هذا الفن من الإنشاء عسر الهضم عند كثير من القراء ؛ فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشا كل الاجتماع في الحياة المصرية ، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً في فترات متباعدة حتى لا يميل قراءه أو يُثقل عليهم ، وسأحدث من بعد عن كل مقال من المقالات التي أنشأها ، للرسالة ، في الفترة التي صحبته فيها ، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه ؛ ولعله يبلغ بي الوسيلة إلى الذين لا يفهمون أدب الراجعي ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن ، أو الأدب الفني والأدب النفسي (١) ...

ولكن على قبل أن أبدأ هذا الحديث ، أن أصف الراجعي حين يهيم بموضوعه ، ثم حين يفكر فيه ، ثم حين يتبهاً لكتابته ، ثم حين يمليه على من القصاصات المبعثرة على مكتبه ، فإن ذلك من الموضوع فاتحته وأوله :

(١) أنظر مقالات الأستاذ سيد قطب في مجموعة السنة السادسة من مجلة الرسالة ، وفيها كل مادار من الجدل حول أدب الراجعي بين أصدقائه وخصومه .

كيف طاه يكتب ؟

اختيار الموضوع ، كان أول عمل يحتفل له الرافعى ؛ وإذ كان لم يعمل في الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة ، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع ، إذ لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه ؛ فلما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة ، فكان يضيق بذلك ويتحير ، ثم لم يلبث أن تعودها ، فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلقى باله إلى كل محاورة ، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس ، ثم لا يهتم أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره ، إلا أن يجد له صدق في نفسه ، وحديثاً في فكره ، وانفعالا في باطنه ، وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع ؛ وكثيراً ما كان يتأبى عليه القول فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة ، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام !

فمن خشية مثل ذلك كان دائماً في جيبه ورقات يكتب في إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب ، ليعود إليها عند الحاجة ؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التي تتفق له في أي من هذه الموضوعات أين يكون ، وبلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثبث حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها ، وورقات أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد ، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع . ومن هذه

الورقات . ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها — كان يختار « كلمة وكلمة » التي كان ينشرها على قراء الرسالة في فترات متباعدة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة . فهذه الكلمات هي إحدى ثلاث : خواطر مبعثرة كان يلقاها في غير وقتها ، أو عناوين موضوعات لم تنهيا له الفرصة لكتابتها ، أو فئات من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعاني بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التي كان يختارها ليكتبها في وقتها ، كان يعدّ قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها ولا يفي بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء

ومن ذلك مقالة (الفيلسوف الزبال) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ قصة « بنت الباشا »^(١) ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمل !

ولقد وجدتُ على مكتبه في طائفا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ...

* * *

فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتبها لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة تهيج له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً يطول أو يقصر ، يقيد في أثناءه خواطره لا تكاد تغفل منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وحي ، فكان في كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن في كل

(١) وحي القلم .

ما يسمعه لونا يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يمل عليه معنى أو رأياً أو فكرة .

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — أخذ في ترتيبها معنى إلى معنى ؛ وجملة إلى جملة ، ورأياً إلى رأى . فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ كلمة وكلمة ، أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامةً بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعى إلى القراء في قالبها الأخير الذى يطالع به الأدباء .

* * *

لم تكن الكتابة عند الرافعى فكرةً ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فناً وأسلوباً وصناعة ؛ والأدب العربى منذ كان إلى أن يطوى تاريخه بين دفتين هو فكر وبيان ، ما بدأ من اجتماع هاتين المزييتين فيه ليكون أدباً يستحق الخلود . ذلك كان رأى الرافعى ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت في خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتُنشر إلا أن يهين لها الثوب الأنيق الذى تظهر به لقراءها ؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة .

وأول ما يعنيه فى ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعنى العبارة التى يبدأ بها واتى يختم ، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام فى الموضوع ، شأنه فى

ذلك شأن القاصّ : تجتمع له أسباب القصة بمقدمتها وحوادثها وما آلت إليه مرتبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت : حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ليعقد « العقدة » ويرصد للحل والنفس مستشرقة إليه متطلعة إلى خاتمتها ... وكذلك كان الرافعي يفعل في مقالاته .

... فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبطه ، فيطوى وريقاته ساعة ليرجع إلى كتاب ، أى كتاب ، من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تنفق ، لإمام من أئمة البيان العربي ، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب في بيثة عربية فضيحة اللسان . وخير ما يقرأ في هذا الباب ، كتب الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغاني لأبي الفرج .

وسأله في ذلك مرة فقال : « نحن يا بني نعيش في جوف عامى لا يعرف العربية ، ما يتحدث الناس وما ينشئ كتاب الصحف في ذلك سواء ، واللسان العربي هنا في هذه الكتب : إنها هي البادية لمن يطلب اللغة في هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضرة والبادية ، .. »

على أنه كان لا يفيد من هذه القراءة السيرة قبيل الكتابة إلا الجوّ البياني فقط . أما حروف اللغة وأما أساليب اللغة ، فلم تكن تعنيه في شيء ؛ فيقرأ عجلاً غير متلبّث كما يطالع صحيفة دورية ، حتى يفرغ من الفصل الذي بدأ ؛ ثم يطوى الكتاب ويستعد للإملاء .

وإذا كان كثير من الكتاب تزعمهم الحركة والضوضاء وتوقعهم عن الاستمرار

في الكتابة (١)، فإن الرافي كان - على ما في أذنيه - يزعمه أن يمر النسيم على صفحة خده . . . كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة، وكان لي نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليلتي على : فكان يلذني أحيانا والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروح ، فلا تنكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف . وعرفت عادة هذه فكانت أغلق الشرفة والنافذة جميعا ، لأصلي حر الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذيني من ذلك أنني كثير التدخين : والحر والمجهود العصبي يزيدان الرغبة فيه ، فلا تمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة لتجديد الهواء برهة تتبادل فيها الحديث ، ثم أعود فأغلقها ليلتي على . . . على أنه في غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضي في الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى في برد الشتاء القارس : فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبئا كما يقبل الشارب الحزان على الماء في يوم قائف . . .

ولم أكن أقاطعه حين يمل على مقاطعة ما ، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال في الموضوع من فصل إلى فصل : فألقى إليه ما أريد أن أقوله مكتوبا في ورقة ، لأحاوره في عبارة أو لأستوضحه معنى ... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا ، وهو لا يرفع عينيه إلي ، كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه في نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يُخَيِّلُني أحيانا وأنا صامت في مجلسي والقلم يجري في يدي على الضحيفة وأذني مرهفة للسمع - كأنه في شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشيء إلا

(١) حدثني الأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » أنه لا يستطيع أن يكتب فصلا من مثل ما تعود قراءه أن يطالعوه له في الرسالة ، إلا أن يحشو أذنيه قطنًا حتى لا ينفذ إليه صوت ولا نامة !

إدراكاً غير مجسّد، وأحياناً أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملني ،
فما أكتب كلاماً يمليه عليّ ولكن تمليه نفسي على نفسي وإن صوته ليرنّ في
أذني بما سبق إليه خاطري ...

ولم يكن يملئ مسترسلاً ، ولم يكن يملئ وانياً متمهلاً ، ولم يكن في كل
أحواله سواءً ؛ فحيناً يطاوعه القول ، وحيناً يتأبى عليه فيسكت وهو يدق على
المكتب بجديدة في يده ويغمغم بصوت لا يبين : فإذا طال به الوقوف تناول
كتاباً أيّ كتابٍ على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطراً أو جملة ؛ ثم يطوى
الكتاب ويعود إلى الإملاء ، ولقد يراه من يراه في هذا الوقت فيحسبه يملئ
مما قرأ ، وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعودها حين يُرتج عليه
وتعود أن يجد فيها مفتاح القول ...

ولقد تأبى عليه القول مرة فطال به الصمت ، فد يده إلى كتاب على مكتبه
وهو يقول ضاحكاً : « يا أخى ، لقد تعودتها وما أجد لها علة ، وتعودت بها
أن أجد ما أريد عند أول كلمة أقرأها ولو كان الكتاب معجماً لغويا ... »
وكان الكتاب الذى مدّ إليه يده هو « القاموس المحيط » قلت : « ان في بعض
الأمور مثل المفاتيح العصبية ... » قال : « صه ، هذه هى الكلمة التى أريدها :
المفاتيح العصبية ... » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الإملاء (١)

وكانت له عناية واحتفال بموسيقى القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من
إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقفاً
من نفسه فيردها وما بها من عيب ، ليبدل بها جملةً تكون أكثر رنيناً

(١) انظر مقالة « تربية لؤلؤية » ، وحى القلم الجزء الاول .

وموسيقى . وكان له ذوق فني خاص في اختيار كلماته ، يحسه القارئ في جملة ما يقرأ من منشآته ، وكنت أجد الإحساس به في نفسى عند كل كلمة وهو يميل على . هذا الذوق الفني الذى اختص به ، هو الذى هَيَّأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة . وَحَسْبُ القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « وراودته التى هو في بيتها عن نفسه (١) . . . » ليرى نموذجاً من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق في اختيار ألفاظه عند الإنشاء . وكان إلمامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية في مترادف الكلام — مُعِينَةٌ له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى في أسلوب من أسلوبه ، فتأتى عليه القول ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب المخصّص لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب فأخرجته إليه ؛ فما هو إلا أن فتحته فوقه على مراده حتى طوى الكتاب وعاد إلى إملائه . وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ل يبحث عن كلمة أو معنى كلمة ؛ ومع حرصه على أن يكون قوى العبارة عربىّ الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين ، ولم أجد على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له في إنشاء « الكناية » إحساس دقيق ؛ وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتبع ما أجد الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجليل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين ، إذ كان مذهب الرافعى في الكتابة هو أن يعطى العربية أكبر

(١) سمو الحب : وحى القلم ج ١ .

قسط من المعاني ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وقد بلغ ما أراد .
إننى لم أعرف كاتباً غير الرافعى يجهد جهده فى الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل ؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشعوز عليهم لئلا فراغا من صحيفته يريد أن يمتلئ ؛ على أنه أحيانا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهأ لموضوعها أو يفرغ له باله ، فيملأها على عجل بلا إعداد ولا توليد ، ولكنك مع ذلك تجد عايتها طابع الرافعى وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه ؛ والعجيب أن هذا النوع من المقالات التى كان الرافعى يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء ، وكان الرافعى يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة منهم ...

والشأى أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التى يطلبها الرافعى عندما يكتب ، وفجأة أو اثنتان هما حسبه فى هذا المجلس الطويل . وعلى أنه فى أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) ويستعيز عنها بالدخان فى أثناء الكتابة ، فإنه لم يكن يشعل إلا دخينة (سيجارة) أو دختين فى مجلس الكتابة ؛ فكان يشتري العلبة فتظل فى درج مكتبه شهرا إذا لم يزرها فى مكتبه زائر ...

.. فإذا فرغ الرافعى من إملاء مقاله ؛ تناوله منى فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله فى الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذى أملاه على فى الليل فيقرأه ويصححه .. ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوما لنفسه قبل أن يهتئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هى عمل الفكر ، وكد الذهن ، وجهد الأعصاب ، وحديث

النفس في أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة ... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب « رسائل
الآحزان » في بضعة وعشرين يوما ، وكتب « حديث القمر » في أربعين ،
وكتب « السحاب الأحمر » في شهرين ...

وقال قائل من خصومه : « إنه يقاسى في هذه الكتابة ما تقاسى الأم من
آلام الوضع ... »

وقال الرافعي يجيبه : « أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها ... وعلى
نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله »

عهد في الرسالة

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي تأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ؛ والفيلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرفية و دينها وفاضلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أفس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يجبل إلى دأبنا أن رسول لغوى بمثل للدفاع عن القرآن واغنه وبنائه ... »
« الراجعي »

لم يعمل الراجعي في صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل جيله بالرسالة : فإن مذهبه الأدبي لم يكن يعينه على ذلك ؛ وقد قدمت القول عن طريقته في الكتابة ؛ وليس يتسع الوقت لمن يكون هذا مذهبه في الإنشاء أن يعمل في صحيفة من الصحف تظهر لقراءها في مواعيد رتيبة ...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات للهِلال والمقتطف وغيرهما في فترات متباعدة إذا ومجد في نفسه حافظا للكتابة ، أو إذا دعت صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقيقا بالكتابة ...

فلما دعت الرسالة إلى الاشتراك في تحريرها وحددت له عمله وجزاءه ، تردد في الجواب ؛ لكنه لم يلبث أن لبّي نداءها ، لعله يستعين بما يحصل له من أجر الكتابة في الرسالة على أمر من أمره ...

كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب في جامعة ليون - فرنسا على نفقة جلاله الملك ، ولكن الإبراشي باشا لأمر ما قطع عنه المعونة الملكية وليس بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ؛ فحمل الراجعي بذلك من الهم ما حمل ، إذ لم يكن له طاقة مالية تعينه على الإنفاق على ولده في فرنسا ؛ فمن ذلك أجاب « الرسالة » إلى ما طلبته ...

كان ذلك في ربيع سنة ١٩٣٤

فظل يكتب لها كل أسبوع مقالة أو قصة؛ لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة، ومات وهو يتهيا لكتابة مقالته الأسبوعية، ولكن القضاء عاجله فخلفها على مكتبه ورقة بيضاء .. !

وسأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أملاها عليّ الرافعي في الفترة التي صحبته فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالة نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه، وإني لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه في نفسي ولا يتأذى مؤداه إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعي إلى كل مقال مما أملاه عليّ؛ وإني بهذا الفصل لأحاول جديدا في فن الترجمة؛ فما أعرف كاتباً من كتاب التراجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الأدباء، على أن له أثراً أى أثر في دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه؛ فمن ذلك كانت عنايتي بهذا الباب، وإني لأرجو أن تعينى الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد ...

* * *

لم يكن بين الرافعي والزيات صلة ما قبل صدور الرسالة، إلا صلة الأديب بالأديب، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسائلهما، ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعي، فتعارفا وآنثقا وإن لم يلتقيا وجها لوجه ... ومضت أشهر ...

وتصوّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ : فإذا فيها كلمة عن « أوراق الورد » للزيات ، يحجب بها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية في رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد ... » رأيها في أوراق الورد فعابته ونزلت به منزلة . وكان الرافعي في هذه الأثناء بعيداً عن طنطا يصطاف في « سيدى بشر » ، وكان على في هذه الفترة ، والرافعي في مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف : فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردت به الفتاة ، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه في سيد بشر ومعه رسالة منى ... وقرأ الرافعي ما بعثت إليه ، فانتضى قلبه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأى الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجدها صاحب الرسالة إلا فصلاً من « على السفود » لا تقوى على لذعاته الفتاة الناعمة ... فطوى كلمة الرافعي ، ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة من منشور أوراق الورد ... ولم يجب الرافعي هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر .

كانت كلمة الرافعي إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هي أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف ، وكان الرافعي يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذا كان الرافعي لا يملك أن يحسن إليه بالمال - والمال في يده قليل - فإنه كان يحسن إليه بما يملئ عليه من رسائل الأدب ، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعي !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : « لماذا لاتعالج القصة ؟ »

وأملى عليه الرافعى جوابه ، فذهب فنشره فى الرسالة بعنوان « فلسفة القصة » ، وكان أول ما نشر للرافعى فى الرسالة (١) .

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافعى أن يكتب فصلا للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحى الهجرة فى نفسى » (٢) ،

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » ، وكان مرجوا أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان - وطابعه غير صاحبه - أن يكون إعانة مادية لناظمه توسع عليه ماضاق من دنياه ... !

وقرأ الرافعى ديوان الأعشاب ... ثم هزته أريجته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقا لرجاء الراجين فيه وبرأ بصاحبه ، وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالا يُعَنُونَه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعانى إليه واصطنع حديثا بينى وبينه فأملاه على لينشر فى الرسالة مذيلًا باسمى ؛ وما كان بينى وبينه حديث فى شيء ؛ ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فُسِّمَتْ حديثا ... وأرضى كبريائه وعاطفته فى وقت معا . كان الرافعى فى حرج وهو يملئ على هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه فى رأى وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات فى خاتمة الحديث كانت هى خلاصة الرأى فيه ؛ وبذلك برئ من الإسراف فى المدح ومن الإيلام فى النقد ، وخرج من الأمرين معا إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته ، فأجاد وأفاد فى باب

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .

(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .

من القول له منزلة ومقدار .

ونشر هذا الحديث في الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاءه البريد ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة ، يعرض عليه أن يكون معه في تحريرها ، وتتمى له أجرا ... وقبل الرافعى ، وما كان له بدّ من أن يقبل ... !

وشبهه بهذا اللون من الإحسان الأدبي برأ ببعض الحاجات — مقدمة كتبها لكتاب اسمه « الفاروق — عمر بن الخطاب ، ألفه مؤلفه وهو مدرس في إحدى مدارس الحكومة ، وسعى به إليه ليكتب له المقدمة : وقرأ الرافعى الكتاب ، فلم يجد فيه ما يحفزّه إلى إجابة هذا الرجاء ، فردّ الكتاب إلى صاحبه معتذرا ؛ ولكن المؤلف عاد يرجوه ويستشفع إليه : ويبسط له من حاله ويصف حاجته ... وأثرت كلماته وما وصف من حاله في نفس الرافعى ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب كلمة بعنوان « عمر » ، لم يعرض فيها للكتاب ، ولا لموضوعه ، ولا لمؤلفه ؛ ولكنها كلمة وجد فيها المؤلف طلبته ليصدر بها الكتاب وعليه اسم الرافعى ...

... فهذه الكلمات الثلاث : فلسفة النقص ، وديوان الأعشاب ، وعمر

- وللرافعى كثير من أمثالها - هي حسنات أدبية أنشأها على أنها لون من ألوان

البر والمعونة ، على مثال ما يتصدق ذوو المال بالمال !

* * *

وكانت أولى مقالات الرافعى بعد مادعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ،

مقالة « لا تجنى الصحافة على الأدب ولكن على فنّيته »^(١) ،

وتوالت مقالات الرافعى بعد ذلك في الرسالة ، فنشر في الأسبوع التالى

(١) العدد ٥٠ سنة ١٩٢٤ من الرسالة .

مقالة «الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام»، وأحسبه اختار هذا الموضوع - على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق - احتفاءً بالمولد النبوي ؛ إذ كان هذا موسمه .

ثم نشر «موت أم»، وهي صورة حية نابضة لصبيّة فقدوا أتهم وما يزال أكبرهم في الثامنة ؛ وهي صورة حقيقية مرّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه ؛ أما هذه الأم فهي زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصبيّة فبنوها ؛ اقتصرها الموت في ريعانها فمضت وخلّفت وراءها أربعة ، فبكأها الرافعي بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى في جنازة قبل جنازتها ، ودفنت في مقبرة آل الرافعي بطنطا . ولما عاد الرافعي من الجنازة ليعزى صديقه في داره ؛ دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرّي عنه ؛ فكان بينه وبين عيني الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه يفيض بشى المعاني ؛ وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ؛ وعيناه تترقرق فيهما الدموع !

وروح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر... ومضى يوم ثم أرسل يدعوني إليه فأملى عليّ «موت أم» ،

وكان الأسبوع التالي موعد امتحان الشهادة الابتدائية ؛ فكانت مقالته : «حديث قطنين» ، وإنها لتحدث بنفسها عن شيء من مناسبتها . وإن فيها إلى ذلك شيئاً من خلق الرافعي لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ؛ ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له ؛ فكان دائماً باسمًا منبسط الوجه ، يفتح نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له ، ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لم يكن يرى في تلك العلة التي ذهبت بسمعه وهو لم يزل

غلاما ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلي الذي أُملى به في تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله في العربية منذ قرون ! ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدر وقانون التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعي !

هذا الخلق هو المحور الذي كان يدور حوله الحديث الذي اصطنعه الرافعي على لسان القطين ؛ وهو الذي حمّله من بعدُ على إنشاء مقالتي : « سمو الفقر » في العديدين التاليين من الرسالة ؛ والشئ يُذكر بالشئ ؛ فلو لا ما جاء في امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ، ما أنشأ الرافعي حديث قطين ، ولولا ما أُلهمه حديث القطين من المعاني في فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتي : « سمو الفقر » ؛ ففي هذه المقالات الثلاث موضوع واحد اختلف عنوانه واتحدت غايته وكانت مناسبة ما قدّمت ...

وقد يسأل بعض القراء : ولكن ما وجه عناية الرافعي بنقد سؤال توجهه وزارة المعارف إلى تلاميذها في امتحان الشهادة الابتدائية ، وليس الرافعي من أهل « البيداغوجيا » ، وليست المناسبة من الخطر بحيث تحمل مثله على الاهتمام ! وأقول لهذا السائل الحفيّ : إنّ عبد الرحمن الرافعي - وهو أصغر بنيه وأحبرهم إليه - كان يؤدّي في ذلك العام امتحان الشهادة الابتدائية^(١) ؛ ومن ثمة كانت عنايته بهذا الموضوع ، وله في هذا الباب نظائر ...

ثم أنشأ مقالة « أحلام في الشارع » وقصتها أني كنت أساهر الرافعي ليلة ، فلما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ، ومررنا في طريقنا بدار (بنك مصر - طنطا) ، وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعي

(١) هو الآن ضابط من ضباط المدفعية في الجيش المصري .

هنية ليشهد منظرًا استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسدت الفتاة ذراعا وألقت ذراعا على أخيها... ووقف الرافعي ووقف... ورأى الشرطي مارأينا فأسرع إلى الطفلين... وفي الغد أملى على الرافعي مقالة « أحلام في الشارع » .
... وكانت المقالة التالية « في اللهب ولا تحترق ! » .

وهي الممثلة الراقصة المغنية... وكانت تعمل في فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقها في طنطا في صيف سنة ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافعي إلى مصيفه في « سيدى بشر » ذلك العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون في طنطا من أسباب الترويح والرياضة ؛ وإن فيها لعناء وعوضا .

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعي نسمر معه كل مساء « س ، أ ، ع » ، وجلسنا حوله ذات ليلة . وكان متعباً مكدوداً يشعر بحاجة إلى لون من ألوان الرياضة يرذ إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ » .

قال أ : « إن في منزله البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها لمغنية راقصة ؛ أحسبها خليفة بأن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ، فقط الرافعي شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، وأحسب أن الصديقين « أ » و « ع » ، كانا على رغبة مشتركة في هذه السهرة . فبا أحسّا رفض الرافعي حتى قال ع :
... ولكنها راقصة ليست كالراقصات ؛ إنها صوامة قوامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقله ، وتصلى الخمس في مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغناها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ... ! » .

مغنية وراقصة ؛ ولكنها صوامة قوامة ... يا عجبا ! وهل في الراقصات كهذه

التي يصفها الصديق العاثر ؟ ... ولكن الراقص صديق ، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الراقص . واتفقنا على الرأي .

« هذه هي الراقصة التي أعني ... » هكذا قال الصديق « ع ، فاشرب الراقص ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت في أعين الناس ... كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداية واحترام ... هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق اللفء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحلتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع ... هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتراعى إليها أمانى الشباب ، ولكن رجلا واحدا بين النظارة لم يكن يبصر شيئا من ذلك : رجلا لم يكن أحد - فيمن أعرف - أضعف منه بإزاء سحر المرأة ، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف ، وهذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس ... هي في عين الجميع أنثى فاتنة ولكنها بعينه قديسة تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغنى ؛ وكانت بعينه عابدة تسبح وتصلى ... كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهي تفتن في إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرونّة الفاتنة ؛ وكان الراقص ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله تريه مالا يراه الناس !

وانفض السامرون إلا قليلا تحلقوا حول الموائد يقرعون كأسا بكأس ، ونهض الراقص فيمن نهض ...

ومضى يومان ؛ ثم دعاني ليلي على مقالة ، في اللهب ولا تحرق ! .

ولما فرغ الراقص من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه « ع ، يستزيده

من خبر هذه الياقوتة الكريمة ؛ ويسأله الوسيلة إلى لقائها إن كان بينهما سبب ،
لعل اجتماعا بينها وبين الرافعي يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء
الرسالة ؛ فابتسم الصديق د ع ، وقد دبر في نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل
يُعجزه - وهو مَنْ هو - أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليضي في مزحته
إلى النهاية ؟

وذهب د ع ، يسأل عن الراقصة ويستقصي خبرها فعرف ...
لقد فزت ، الياقوتة ، مع موسيقى الفرقة ، ومضى زوجها في أثرهما ، فأنحلت
الفرقة وغادرت المدينة .
وجاء النبأ إلى الرافعي ؛ فما عرف إلا من بعد أنها كانت مزحة من الصديق
د ع ، فأسرهما في نفسه ...
وعاد الرافعي إلى المقال يقرؤه منشورا في الرسالة وهو يضحك ويقول :
« أهذا يمكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون في اللهب ولا تحترق ؟ » .
فرد الصديق د ع ، قائلا : « لقد احترقت ا » .
وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها فيما قرأت من روائع
الأدب العربي ا

كان أكثر جلساء الرافعي في هذه الفترة هم الأصدقاء د س . ا . ع ، ، فكان
لهم سره ونجواه ، وإلى مواعدهم مغذاه ومراحه ؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم
هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة ؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء
في هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه ، فهي له في الليل مشغلة وفي النهار مشغلة .
أما د س ، فكان على نية الزواج ، قد ترامت أمانيه إلى واحدة من أهله ،

ولكن التقاليد وقفت بينها وبينه موقفاً ما، أورثه ضجراً وملاحة وسخطاً على الناس وتبرُّماً بالحياة وخروجاً على ماتواضع الناس عليه من التقاليد في شئون الزواج .
وأما د ا ، فكان في عهد بين عهدين من حياته : قد ودّع ماضيه بما فيه من عبث وبجائنة ، وطلّق شهواته إلى عهد يستشرف إلى مافيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجة المحبوبة المحرّمة ؛ فسَمّى زوجته وعقد عَقْدَه ، ثم وقف ينتظر اليوم الذى يبنى فيه بأهله قلعا عجلا ، واليوم الموعد لا يحين لأنّ التقاليد تُبعده كلما دنا موعده ...

وأما «ع» فشاب قد انفرد في الحياة من أهله : فقد أمه وهو غلام ، فما كان يستوى شبابه حتى مضى ياتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الأثى ، فتزوج ، ثم فقد زوجه ؛ ثم تزوج الثانية فما بقيت إلا بمقدار ما بقيت الأولى ، ولكنها خلّفت بضعة منها بين يديه مصورة في طفلة سلبها القدر أمها يوم مَنَحها الحياة !

... هو أب ولا زوج له ، وهو عزّب وكانت له زوجتان ، وهو قى يؤمن بالله ويأحد في القدر ، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما في المسجد وتعرف الثانية في الشارع ؛ وله عين عفة وعين فاجرة ؛ وله في الحياة تجربة ورأى ؛ وله إلى الهوى والملذات مثل اندفاع الشاب الذى لم يذق ولم يحزّب بعد !

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه في الحياة ومذهبه ، ولكنهم قد اتفقوا في مجلس الرافعى على هوى واحد ، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه ؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ، ولهم من حديثه حكمة الشيخ ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حتى مما كتب الرافعى لقراء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات « قصة أب » .

ذلك هو الصديق «ع» كان الله له ... !

جلس مجلسه يوما إلى الرافعى يشكو به وهمه والدموع تترقرق فى عينيه ؛ واستمع الرافعى إلى شكاته متألما حزينا ؛ فما فرغ « الأب » من قصته حتى جمع الرافعى « قصاصات » الحديث فجعلها فى جيبه وجلس يتفكر ... ثم كانت « قصة أب » .

* * *

وفى الأسبوع التالى كان زفاف ابنته « وهيبة » إلى ابن أخيه فى حفل أهلى خاص وصفه الرافعى فى مقاله « عرش الورد » ؛ وهو عرش نظمه أخوال العروس (١) لمجلس العروسين ، وجعل فيه فَنَّة وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدمه إليهما هدية عرس . ولما جلس العروسان ذراعا إلى ذراع فى عرش الورد ، بارك لهما الرافعى ودعا ؛ ثم خرج ليمضى ساعات فى القهوة . ولقيني هناك وحدى ، فانتحينا ناحية على حيد الشارع لا يترامى إلينا من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعى يؤثر أن يجعل مجلسه فى الصيف على ذلك الرصيف فى جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا » ، إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه فى الليل والنهار من ألوان الجمال فى الطبيعة والناس - مما يحبب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ، وإلى الفكر أن يُبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ... وكان الليل نائما يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همس خافت ، وفى الجوّ شعر يهزج فى سرار النسيم وفى حفيف الشجر ، وعرائس الخيال تُطيف راقصة تنفح بالعطر وترفُّ بالنور ... ولكن الرافعى جلس مجلسه صامتا لا يتحدث إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة ... واحترمتُ صمته فسكتُ عنه ...

(١) الأستاذ محمود سامى الرافعى المدرس بكلية الزراعة بالجيزة .

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلىّ وهو يقول : « الليلة عرس ابنتي ١٠٠٠ ، ولم يسمع جوابي ، لأن دمعة كانت تترقرق في عينيه وهو يتحدث حبستني عن الجواب ١٠٠٠ »

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جامنى يقول والدمع يلبع تحت أهدابه : « إن وهبة مسافرة إلى زوجها في أمريكا ^(١) ؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يومَ جامنى بعدها يقول وفي يده صحيفة أمريكية : « انظر هذه الصورة ، إنهم يسمونه هناك : أصغر سائح مصرى في أميركا ... إنه حفيدى مصطفى صادق الرافعى ^(٢) ... »

لقد كان الرافعى يحب أولاده حبا لا أعرف مثله فيمن أعرف : وهبة كبرى أولاده ، ذكرها في « الديوان » ، وغنى لها في « النظرات » وأزخ زواجها في « عرش الورد » .

* * *

وكانت المقالة التالية هى : « الإنسانية العليا » .

وهى باب من القول فى الأدب الدينى تنظم مع « وحى الهجرة » و « الإشراف الإلهى » و « سمو الفقر » تحت باب واحد ...

... كان يعتاد الرافعى كما يعتاد كل إنسان ، نوبات من الضيق والهم تقعده

(١) فى سنة ١٩٣٥ سافر الشابان محمود سامى الرافعى ، وابن عمه وصهره سعيد الرافعى فى بعثة عليية إلى كاليفورنيا ، للتخصص فى بعض فنون الزراعة ، ثم لحقت بهما بعد قليل وهبة . لتكون مع أخيهما وزوجها ، فلم تعد ولم يعودا إلا بعد وفاة الرافعى !

(٢) لم يأت هذا الرافعى الصغير أرضاً عربية إلا وقد جاوز الثامنة من عمره وارتضخ لكمة أعجمية فلا يكاد يفصح فى العربية عن معنى !

(١٦ - حياة الرافعى)

وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذى يعتاده
إلا أن يقرأ قرآنا أو ينظر فى كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه
ويزول ما به ، ويهون عليه ما يلقي من دنياه ...

فى نوبة من هذه النوبات التى تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافعى
كتابا من كتب الشمائل يسرّى به عن نفسه ، فاتفق له رأى ... وخرج من
مطالعه بمقالة « الإنسانية العليا » !

* * *

... وكان للرسائل التى ترد للرافعى فى البريد من قراء الرسالة أثر يوحى
إليه فى أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه ، فهو منهم وإليهم : ومنذ بدأ الرافعى
يكتب فى الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة فى موضوعات
شتى ولمناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحيانا فى اليوم الواحد
ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرأها جميعا ويحفظها فى درج خاص من مكتبه ؛
وللحديث عن هذه الرسائل باب آت ، وإنما يعينى اليوم أن أتحدث عن
الموضوعات التى استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة
« تربية لؤلؤية »

كانت تصدر فى القاهرة فى ذلك الوقت مجلة « الأسبوع » وقد فتحت صدرها
لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقلوبهم و... وشهواتهم !
وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه
السماحة أن صارت - كما يقول العامة - بطن حمار ! وأصبحت ميدانا للغزل
البرىء وغير البرىء ، وهو عدا من مواعد التلاقي والوداع .

وفى صبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعى رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى

محرورة زاعرة تعترت فيها أقلام طائفة من الشبان في مجلة « الأسبوع » . وبعث
الرافعى في صلب أعداد المجلة فجىء بها : فقرأها حتى تناول القلم وأملى على
مذاتة « تربية لؤلؤية »

في هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعى في حرية المرأة وحقها في المساواة :
وترى لهذا رأى بقية فيما نشر من مقالات الزواج ، والطائشة ، والجمال
البئس ، وغيرها : وهو يزعم أنه بهذا رأى من أنصار المرأة عند من يعرف
أين يكون أنصار المرأة . وللرافعى حين يتحدث في هذا الموضوع حجة قوية .
وبرهان ماض ، إلى روح رفاقة وشعر ساحر . ولست واجدا أحدا يرد عليه في
ذلك على فئة من تجد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى المربي الكبير الأستاذ
محمد عبد الواحد خلاف نداول رأى في أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعي
مناسبة ما كتب الرافعى للرسالة في موضوع المرأة ، فقال لى : « إنك لن تجد
أحدا من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحدا - أيضا -
يستطيع أن يصول الرافعى في هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه ! »

... وأرضى الرافعى بهذا المقال السيدة الكريمة التى كتبت إليه ، ولكنه
أعضب، مثت من المقارئات وعشرات من القارئین : فاثالت عليه الرسائل من
هؤلاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضع رسائل ...

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤية » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى
الإسكندرية ليستريح يوما هناك يتزود فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ ...
كان قد كتب مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت في نفسه ،
فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه ، فعاد ليلى على مقالة « حوم
البحر » وهى قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعرى فاق

فيه الرافعى وغلّب ...

* * *

كان للرافعى عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كتّب أن يسأل عنه كلّ من يلقى من أصحابه : « هل قرأت مقالتي الأخيرة ... ؟ وما رأيك فيها ... ؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأى فيها بالنقد ... ؟ »

وكان يعتدّ كثيرا بمقالة « تربية لؤلؤية » ، ففي ذات مساء بعد نشر تلك المقالة قصد إلى القهوة ليريح أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء « س . ا . ع ^(١) » ؛ فما كاد يستقرّ به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت ... ؟ ما رأيك ... ؟ هل يملك أحد ... ؟ »

كان للرافعى في كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى ، وكان لكل واحد في نفسه حقيقة ، ولهم في الحياة نظرات تغرب وتقترب ؛ وكلهم قد حرّموا المرأة لونا من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم في المرأة رأى ؛ مما تخيلها ، أو مما كابدھا ، أو مما شقى بها !

والرافعى رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب ويوشك أن يكون جدّا ؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقري إلى ماضى شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب في المرأة والحب والزواج . وهؤلاء الأصدقاء - على ما قدمت من نُعوتهم في أول هذا الفصل - تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف أسبابها ؛ وما يزالون في باكر الشباب وفي يقظات الحلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعا من المراس : في وهمه أو في حياته ...

(١) دأ ، و د ع ، هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ، وكنا زميلي الرافعى في محكمة طنطا ؛ أما د س ، فما أحسب القراء في حاجة إلى أن يعرفوه !

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنونا؛ وساقهم الرافعى بحسن احتياله إلى هدف يرمى إليه... فما انقضَّ المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعى ليحييوه كتابة عن أسئلة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزموا الصدق ، ويجانبوا الحياء ، ويُخلصوا في الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هي :

كيف ترى المرأة في وهمك ؟ وأين مكانها من حياتك ؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها ؟ لماذا لم تتزوج ؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم ؛ فنها كانت مقالة الرافعى « س . أ . ع » وهي أولى مقالاته في الزواج ؛ ثم تابعت مقالاته في هذا الموضوع . فخطابها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سدٌّ منيع .

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام ، جاءت رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه في أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبعث يهم أن يصدره في كتاب... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعى إلى الكتابة في هذا الموضوع . وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جوابا فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ؛ ولم أقرأه منشورا منذ أرسله إلى طالبه .

بدأ كثير من الشبان يهتمون بما كتب الرافعى ؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَبَ ، وتضاعفت رسائل القراء إليه ، وطال الجدل في موضوعه بين طوائف من الشباب في مجالسهم الخاصة ...

فلما كانت أيام بعد مقالة « س . أ . ع » جاء إلى مجلسنا في القهوة شاب من أصدقائنا المتأدين ، هو الأستاذ إسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع

بالأدب وشهوة في الجدل ، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشذوذ في الطبع ؛
وكان الرافعي يعرفه عرفانا ، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... فقال
عليه يسأله ضاحكا ...

وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ؟ وما يحملني على هذا العنت ؟ أتريدني
على أن أبيع حريتي من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال .
وتم للرافعي موضوعه ، فأملى علىّ في اليوم التالي مقالة « استنوق الجمل » !
في هذه المقالة يجد القراء سببا آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدم
« س . أ . ع » في المقالة السابقة ؛ فهي الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعي بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعا ليستجم ، ولمّ من هنا
ومن هناك طائفة من منشور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان « كلمة وكليمة »
وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة في الفكر ولا في
الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه .

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصار التي كان الرافعي ينشرها بعنوان
« كلمة وكليمة » ؛ فحسبي هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها :

في هذه الكلمات التي نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب .
وهذه من فضلات المعاني التي اجتمعت له في مقالات المرأة والزواج ولم يجد
لها موضعا مما كتب ... وفي هذه الكلمات رسائل إلى « فلانة » من تلك
الرسائل التي قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعي . وفيها كلمات
عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التي كانت في مصر
لذلك العهد ، وحكومة صدقى تحتضر ...

فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من « كلمة وكلمة » .

* * *

كان بين الرافعى والإبراشى باشا ما قدمت الحديث عنه فى بعض الفصول السابقة ، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعى الشاعر بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفى ... وسارت الخصومة بين الرافعى والإبراشى إلى مدى ، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعى مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب فى جامعة ليون !

وضاقت نفس الرافعى بهذا اللون من ألوان الكيد ، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه ؛ وألزمته الضرورة أن يقوم بالإتفاق على ولده حتى يبلغ مأمله ، على قلة إيراده وضيق ذات يده ؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه وفى نفسه أن يأتى يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله ! ووجد الفرصة سانحة لذلك فى عيد الجلوس الملكى سنة ١٩٣٤ ، فأنشأ كلمة بليغة فى تحيته بعنوان « آية الأدب فى آية الملك » وأرسل بها إلى الرسالة لتنشر فى العدد ٦٦ سنة ١٩٣٤ (١)

كانت حكومة الإبراشى يومئذ فى الاحتضار ؛ وقد تنبه الشعب وتنبأت نفسه لحادث منتظر يرد إلى الأمة سلطانها الذى فقدته منذ تولى الإبراشى باشا رئاسة الديوان الملكى ، وكانت الجرائد السياسية تتحدث فى كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة القصر وحقوق الأمة . وفى مثل هذه الحال لا يمكن

(١) كان عيد جلوس الملك فؤاد الأول - رحمه الله - فى ٩ أكتوبر ، وكان موعد

صدور هذا العدد يوم ٨ أكتوبر ١٩٣٤

أن تُقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين ، مادام هناك رأى يازاء رأى ، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك ...

... ولكن الرافعى لم يعتبر شيئا من ذلك حين أنشأ « آية الأدب » ... ولم يقدّر ما يمكن أن تؤول إليه كلمته عند من يقرؤها من أهل السياسة ؛ إذ لم يكن له من العلم بالسياسة ما يؤهله لأن يفهم ذلك ! ...

والرسالة صحيفة أدبية تحرص على رضا قرائها جميعا على اختلاف رأيهم فى السياسة ، فإن صاحبها ليتوقع ما يمكن أن يوجّه إليه من التهمة لو أذن بنشر هذا المقال فى صحيفته ؛ فما هو إلا أن سلمه إليه ساعى البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليلقى الرافعى ويحدثه من حديثه ...

والتقى ... وفهم الرافعى ما عناه صاحبه ، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صبيحة عيد الجلوس ، وقرأه من قرأه . ثم كانت آخره العهد الإبراشى بعد ذلك بشهر واحد فكتب من كتب من خصوم الرافعى يعدّد فيما يعدّد من « جناية الإبراشى على الأدب » ، أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة ويسخرهم للإشادة بحكم الفرد ؛ وكان الرافعى عنده من صنائعه ، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال (١) !

* * *

وأرسل الرافعى إلى الرسالة بديلا من هذا المقال ، مقالا آخر بعنوان « أرملة حكومة » ، وكان يعنى به صديقنا الأديب المهندس محمد . أ . وهو شاب من « أدباء القراء » ، أبيقورى المذهب صريح الرأى : سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج ،

(١) انظر ص ١٥١ من هذا الكتاب .

وبينه وبين الأستاذ إسماعيل خ صاحب « استنوق الجمل » صلة من الود ، وشركة في الرأي ، وصحبة في البيت والندى والشارع ...

لقينا مجتمعين في القهوة اجتماعنا كل مساء ، فعاج يسلم ثم جلس ، وسأله الرافعى : « .. وأنت فلماذا لم تتزوج ؟ » .

قال المهندس : « لست والله من رأى صاحبي فيما حدثكم به أمس ، إنى لأريد الزواج وأسعى إليه : ولكن من أين لى ... من أين لى المهر ، وهدايا العروس ، وأكلاف الفرح ؟ إن الزواج عندى ليشبه أن يكون معجزة مالية لا قبل لى بها ... ولو قد عرفت أن هذه المعجزة تنهأ لى بالبخل على نفسى والقصد فى نفقاتى وباحتمال العسر والمشقة على نفسى وعلى من حولى - لما وجدت ما يشجعنى على هذا الاحتمال إنى لأعرف من بنات اليوم ما لا يعرف غيرى ، أفتريدنى على أن أحتمل العنت سنتين أو ثلاثاً حتى يجتمع لى من المال ما يجتمع ، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لى منها شقاء النفس وعدو العمر ؟ » .

وقال الرافعى ... وقال الشاب ... وطوى الرافعى ورقاته وقد اجتمع له موضوع جديد . وتهيات له الفكرة تامة ناضجة فأملى على مقالته « أرملة حكومة » وبعث به إلى الرسالة فى البريد المستعجل ليدرك موضعه فى عدد الأسبوع بديلاً من « آية الأدب ... » .

وقلت للرافعى وقد فرغ من إملاء هذا المقال : « أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به ، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أملت على ، لقد صدق : فمن أين له ... من أين له هو ... ؟ إنه لحرى أن يؤججه العتب والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه

التقاليد التي تفرض على الشاب الذي يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية . . .

فضحك الرافعي وقال : « أترأه كان يتحدث بلسانك ... ؟ لقد أخفيتها عني يوم سألتك ؛ وليس ثمة ما يمنعني أن أصحبك غداً إلى حمرك لأطلب إليه أن يعفمك من هذه المعجزة المالية . . . »

ومضت أيام ، ثم دعاني ليملي عليّ « قصة زواج » . وكانت هذه القصة هي جواب ما سألته تأخر إلى ميعاد . وكانت هي أول ما أنشأ الرافعي من القصص لقراء الرسالة .

قصص الرافعي

أراني وقد بلغت هذا الحد ، مسئولاً أن أتحدث عن قصص الرافعي ، وكيف كان يؤلفها ، وأول ما عالج منها ، وطريقته فيها .

لم يعالج الرافعي القصة - فيما أعلم - قبل قصة سعيد بن المسيب إلا مرتين : أما أولاهما ففي سنة ١٩٠٥ ، وكانت مجلة المقتطف قد سبقت بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية ، فأنشأ الرافعي قصته الأولى وكان عنوانها « الدرس الأول في علبة كبريت » ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان « السطر الأخير من القصة (١) » وسأحدث عنها في موضعها .

أما القصة الثانية ؛ فأنشأها في سنة ١٩٢٥ بعنوان « عاصفة القدر » ونشرتها المقتطف أيضاً (٢) . ثم كانت قصة سعيد بن المسيب في سنة ١٩٣٤ .

على أن ثمة فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأوليين ؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاءً ، فلم يعتمد فيهما على حادثة في التاريخ أو حديث في كتاب ؛ أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد في التاريخ فلم يكن له في إنشائها إلا بيان الأديب وفن القاص ، وكانت نواةً فهد لها واستنبتها فنمت وازدهرت . وفي الأدب القديم نويات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبه لها الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية ، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معينا لا ينضب كان حرياً بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا في العربية فناً جديداً من غير أن

(١) الرسالة : العدد ٧٨ سنة ١٩٣٤

(٢) المقتطف : ديسمبر سنة ١٩٢٥

يقطعوا الصلة بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي ؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد ، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكون دعوة المجددين ، لا إلى الاستعارة والاستجداء من أدب الغرب والجرى في غبار كتابه وشعرائه .

... أقول : إن الرافعى لم يكن يعرف عن فن القصة شيئا يحمله على معالجتها ويعرّيه على العناية بها ؛ وقد قدمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من الأدباء على معالجة القصة ولا يراه أهلا لأن يكون من أصحاب الامتياز في الأدب ؛ إذ لم تكن القصة عنده إلا ضربا من العبث ولونا من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي أن تكون هي كل أدب الأديب وفن الكاتب . وقد كان يعيب على لأول عهدى بالكتابة أنى لا أكاد أكتب في غير القصة ، وأنى أجعل بعض همى في دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتاب فيها ، وكان يرى ذلك منى تخلفا وعجزا ونزولا بنفسى غير منزلتها بين أهل الأدب !

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب ؛ كما يشاهد رواية في السيام أو يقرأ حادثة في جريدة . وأحسب أنه كان يعتقد - على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب - بأنه لا يحسن أن ينشئ قصة ولا ينبغي له . وأحسبه أيضا حين أنشأ قصة سعيد ابن المسيب لم يكن يقصد إلى أن تكون قصة ، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه ...

والحقيقة أن الرافعى كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة ، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوى

من الحديث وينشر ، ويكتم ويورى ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجذ ؛ ويطوى النادرة إلى آخر الحديث ، ويقول فى آخر المقال ما كان ينبغى أن يكون فى أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع ؛ وإن له فى هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهانا على ذلك ؛ فقلما تخلو إحداها من دعاية طريفة أو نكتة مبتكرة .

... وهذه هى كل أدوات القاص الموفق ؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين . ولكن الرافعى كان يجهل طبيعة نفسه ، وكان له فى كتاب القصة ما قدمت من رأى ، فكان تخلفه من هذين ! وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك ، لم يكن له مذهب قى خاص يحتديه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى مارسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها ؛ فإتنا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصةً له وحده ، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص ؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلّف ، أو ابتكار وتجديد .

وطريقة الرافعى فى كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القصص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته فى أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر فى الحادثة أول ما يفكر ، ولكن فى الحكمة والمعنى والحديث والمذهب الأدبى ثم تأتى الحادثة من بعد ؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من

القصص ، جعل همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقها على السنة التاريخ - على طريقته في إنشاء المقالات - فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة إلى ما يريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة ؛ فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد ؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه فقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخطابه ، ومجالاته ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل ؛ وإنه ليلهم أحياناً ويوفق في ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور ، أو إلا أسماء الرجال ...

على أن البديع في ذلك هو قدرة الرافعي - يرحمه الله - على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشك كثير من يقرأ قصة من قصص الرافعي في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار ، فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - ورأيه في القصة رأيه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقاً بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتت له ذلك من طريقته التي أشرت إليها في الحديث عنه عندما يهتم بالكتابة ؛ فقد أسلفت القول أنه كان يحرص على أن يعيش وقتاً ما قبل الكتابة في جو عربي ، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله ؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة ، ولكل شيء سبب ، وأحسبه لما هم أن يكتب عن

« المعجزة المالية ، فى تقاليد الزوج وعن فلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة فى ذلك ، تناول - كعادته - كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر ، فانفق له فى مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبى وداعة ؛ فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدأ له أن يؤدى موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعانى ليملى علىّ هذه القصة قال لى فى لهجة الظافر :
« ... لقد وقعت على نادرة مذهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا أعرف أبلغ منه فى موضوعه ... ، فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب فى القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا .
وأكثر قصص الرافعى من بعد على هذا المذهب . على أن لكل قصة من هذه القصص - أو لأكثرها - أصلا يستند إليه من رواية فى التاريخ أو خبر مهملى فى زاوية لا يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعى الفنية وإحساسه ويقتطه ؛ على أن أهم ما أعانه على ذلك هو عندى صلته الروحية بهذا الماضى ، وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه ؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضى قلبا ينبض كأن له فيه ذكرى حية من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره ؛ فما يقرؤه تاريخا كان وانطوت أيامه ، ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحى بين أهله ، فما أهون عليه بعد أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء .

وقد كنت على أن أردّ كل قصة من قصص الرافعى إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول ، ليكون النموذج واضحا لمن يريد أن يحتذى الرافعى ليتمم ما بدأ على مذهبه فى تجديد الأدب العربى . ولكنى وجدت ذلك أشبه بأن يكون فصلا من الأدب ، ليس موضعه فى هذا الكتاب

عود على بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد . أ . إلى الرافعى من أسباب عزوبته ، أن الزواج عنده حظ مخبوء ، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة فى سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخره ذلك أن يجلوا عليه فتاة دمية لا يجد فى نفسه طاقة على معاشتها ما بقى من حياته ، أو فتاة فاسدة التريبة لا يدخل بها على زوجة ولكن على معركة ...

وقد ظل هذا القول عالقا بذهن الرافعى يلتمس الوسيلة إلى تفيده والرد عليه ، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن ، كاتب ابن طولون ، فأنشأ مقالة « قبح جميل ، وهى القصة الثانية مما أنشأ الرافعى لقراء الرسالة ، وهى الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته فى الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سوداء ولو ذخير من حسناء لا تلدا » ، يسلك هذه المقالة فى باب « الأدب الدينى » الذى أشرت إليه فى بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هى قصة « رؤيا فى السماء » وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب ، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى ، وتدعو إليه الدعوة الإنسانية التى تعتبر الزواج بابا من الجهاد لسعادة البشرية كلها ...

فى هذه المقالة ، لا أعرف سببا خاصا من مثل ما قدمت دعاء إلى إنشائها ، ولكنها جملة رأى وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ، فهى من الموضوع كالهامش والتعليق ، أو الحكم بعد المداولة ، أو هى الصفوة الصريحة بعد ما يذهب الزبد وتنطفئ الرغبة ...

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب المرحوم فليكس فارس ؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين الرافعى ثم اتصل بينهما الود .

* * *

لما أنشأ الرافعى « قصة زواج » تحدث بها الأدباء في مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجبين مستيزدين ؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه ... فاستزاد واستعاد ، والتزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد .

وجلست إليه ذات مساء نتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء : « اقرأ يا شيخ سعيد ... رأيت مثل هذا ؟ أيقظ لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب في موضوعه ؟ أيمالك كاتب أن يرد على رأياً من الرأى ؟ » .

ومضى في طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فعرفت أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تنبئ فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من 'دون كل شيء' مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضعف الإنسانى في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في النابغين من أهل الآداب والفنون ! ذلك الإيمان الذى نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ، ونسميه فى النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة !

وكان يلذنى فى أحيان كثيرة أن أشهد الرافعى فى مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإعجاب بالنفس ، وأجد فى ذلك متاعاً لنفسى وغذاء لروحي ؛ لأن الرافعى بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعاً ، فلا تشهد فى مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته (١٧ - حياة الرافعى)

كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعاني ، وكأنما هو يُعدى سامعته من حالته فيحس في نفسه قوة فوق قوته وكان شخصاً جديداً حلّ فيه ...

... وسرني أن أجد الرافعي كذلك في تلك الليلة ، فأصغيت إليه ومضى في حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى داري ، وسوس لي الشيطان أن أعابنه بشيء ... فكتبتُ إليه رسالة بامضاء (آنسة س) أردت عليه رأيه في قصة سعيد ابن المسيب ، وأعيب ما صنع الرجل بابنته ، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه ، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الرافعي ... وبلغته الرسالة فقرأها ، فنبهته إلى ما كان فيه من أَمْسِه ؛ ووقع في نفسه أن مرسلها إليه هو تليذ أو تليذة من تلاميذ طه موحى إليه بما كتب ، فتحمس للرد ، وأنشأ د ذيل القصة وفلسفة المهر ، وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخريه لازعة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر .

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلى الرافعي يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على ما بين الرسالة والدكتور طه من صلات الود ... وكان له ما طلب ، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء ، ولكنها لم تخلُ من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة ؛ وكذلك نُشرت من بعد في وحي القلم ..



ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهي السابعة من مقالاته في الزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه « الزبال الفيلسوف » الذي تحدّث عنه في هامش هذه المقالة

وهذه المقالة فيما ترمى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » ، فهي دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد في شئون الزواج ، وفيها إلى ذلك شيء من الحديث عن « فلسفة الرضا » التي أسلفت القول عنها في « حديث قطين » .

أما هذا الزبال الذي نوه به الرافعي في أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة في « بلدية طنطا » وكان عمله قريبا من دار الرافعي في الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله في الكس والتنظيف اتخذ له مستراحا على حيد الشارع تجاه مكتب انوجيه محمد سعيد الرافعي ، فيقضى هناك أكثر أوقات فراغه ، نائما أو محتيا ينظر إلى الراحين والتادين من أهل الثراء والنعمة ، أو شاديا يصدق بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فيأكل مما فيه ، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبوته يتأمل ...

كان هذا الزبال صديق الرافعي ! بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الرافعي يسميه « أربطو الجديد » . وأول هذه الصلة بينهما أن الرافعي كان يلذه أحيانا أن يجلس على كرسى في الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث اتخذ الزبال « محله المختار » ، فكان يوافقه في مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يبتسم ، ثم يجلس ، وكان يحادثه أحيانا في بعض شئونه يلتمس بعض أنواع المعرفة ... ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لتحيته إذا حضر ؛ وصار بعض عادات الرافعي من بعد أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشتري له كلما لقيه ، دخائن بنصف قرش ، مبالغة في إكرامه ...

وكان الرجل أميا ، ولكن الرافعي كان يفهم عنه من حركات شفتيه ، وأحيانا

يستدعى بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً في ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الرافعى يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث ، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالمه !

وما كان يدور بين الرافعى وصديقه هذا من الحديث ، عرف الرافعى طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها ، وطائفة من الأمثال ؛ ونبهه ذلك من بعد إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها ومواردها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الرافعى من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعى » معانى وأفكاراً جديدة فى فلسفة الرضالم تلهمه بها طبيعته .

ولهذا الزبال صنع الرافعى أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التى نشرها لقراء الرسالة فى العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة مارى قدسى معلبة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحناً يناسبها .

وقد كان فى نفس الرافعى أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالاً كبيراً ، حتى إنه همّ بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج ؛ وقد هيا لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهبأ له من الخواطر فى موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أعجله عن تمامها ، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلّف من الأوراق .

* * *

لم تكن قصة « بنت الباشا » هى آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ فى هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقى عنده طائفة من المعانى والخواطر فى

موضوع الزواج والمرأة، جاءت مبعثرة في طائفة من المقالات من بعد: ومنها مقالة «احذرى» وهى قصيدة من النثر الشعرى مترجمة عن الملك، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان فى مقالة «لحوم البحر».

وكان الرافعى فى هذه الفترة قد اصطنع مودة بينه وبين طائفة من الشبان اللاهين، كانت تجمعهم قهوة «لموس» فى طنطا للعبث واللهو والمجانة، فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم فى شئون المرأة والزواج؛ وقد قدمت القول فى بعض ما سبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعى كان سريع الالتفات إلى معانى المرأة، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء، حتى لتراه وهو يستمع إلى محدثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع، وأنه يشهد حادثة لا حديثاً؛ ثم يزين له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع مالم يسمع؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق: يجد حديث الغزل والحب حريقاً فى دمه وثورة فى أعصابه لا حديثاً فى أذنيه ... فيستزيد مما يسمع وهو صاغٍ ملذوذ، فيحمل محدثه بذلك على الإطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال ... !

وعلى شدة إحساس الرافعى بمعانى «الجنس»، إلى هذا الحد، كان بإيمانه وخلقه وتدينه واعتصامه بالوحدة - قليل الخبرة ضئيل المعارف فى هذا الباب؛ فكان له علم جديد فى كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعى الذى يعرفه القراء.

من أحاديث هؤلاء الفتيان، كان إليه وحى المعانى فى قصيدة «احذرى»؛

كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعانى وكثير من الموضوعات؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

وكان الرافعى يختلف فى طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان ، كان بينه وبينهم صداقة ومودة ؛ فكان يزورهم بين أهليهم ، فيكرمونه ويتسعون له ويحفظون به ؛ والرافعى يحدث لبق ظريف المسامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه وفى بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير مانعرف فى بيوتنا ، فكان الرافعى يجد هناك جوا يوحى إليه ويمده بعلم جديد .

وأنا لم أصحب الرافعى فى طنطا إلى «زيارة مصرية» إلا فيما ندر ، على أنى كثيرا ما كنت أصحبه فى تلك الزيارات !

وأعترف بأن الرافعى لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيرا ممن كان يزورهم ويزورهن كن يعرفن له ذلك فبهين له أسبابه . وكثير من نساء لبنان أجفل بالأدب من رجال فى مصر ! وقد صحبته مرة إلى زيارة أسرة الآنسة «ق» ، وهى فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألح علىَّ يومئذ إلحاحا شديدا أن أصحبه ، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعا من متاع أهل الفن .

وكنت فى ذلك اليوم صانعا أغنية عامية فى معنى من معانى الشباب تعبر عن حال من حالى فى تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافعى لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها

وجعلها في جيبه ...

. . وصحبت الرافعي إلى حيث يريد ، فاستقبلتنا الفتاة وأمتها وشباب من قرابتها ، ثم لم يكذب يستقر بنا المجلس ، وأهل الدار حافون بنا يبالغون في إكرامنا ، حتى أخرج الرافعي الورقة من جيبه فدفعتها إلى الفتاة ... وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردتها إلى الرافعي وهي تقول : « جميلة ! شعر عاشق ! » .

قال الرافعي وهو يشير إلى مبتسما : « إنها أغنيته ! » .

قالت : « إيه ... ! أعاشق هو ! » .

قال الرافعي : « نعم ! ... ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! » .

ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتني الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعي إلى نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بي من الحياء أضعاف ما بالفتاة ... وكانت دعابة غير مألوفة ولا منتظرة ، أوقعني في كثير من الحيرة والارتباك ...

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »

وردد الشاب صدى صوتها يقول : « ... رقيقة ! » .

وثبت في مكاني لا أتحرك ؛ ولا أرى أمامي غير تلك الابتسامة الخبيثة

على شفتي الرافعي ...

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمته إلي ؛ ثم إلى الرافعي ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبي ... وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت في مجلسي لا أكاد أفهم ما يدور حولي من الحديث !

وجعلت أسائل نفسي وأكاد أنشق غيظا : « ترى ماذا حمل الرافعي

على هذا القول ... ؟ ، .

فلما انقضى المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعي مغضباً أسأله
جلاء السر ، فضحك ملء فيه وهو يقول : « قصة طريفة ... لقد عقدنا العقدة
فانظر في طريقة الحل ... سيكون فصلاً أدبياً ممتعاً يا شيخ سعيد ، تكون
أنت مؤلفه وعلى أن أرويهِ ؛ لقد سئمتنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى
بعض الحقيقة ... ،

وغازني حديث الرافعي أكثر مما غاظني الذي كان منه ، فتمردت عليه ،
ولكن الرافعي عاد يضحك ويقول : « أترك - إن أبيت - تستطيع أن تمنع نفسك
الفكر فيها وأن تمنعها ؟ لقد بدأت القصة فما بدؤ من أن تكون لها خاتمة ! »
وضقت بهذه الدعابة وثارت نفسي فأخشنت القول ؛ فزاد به الضحك وهو
يقول : « وهذه الثورة أيضاً هي فصل من فصول هذه الرواية ... ! »

وأعداني مرح الرافعي وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُ
على غيظ ضاحك . ولقيت الفتاة بعدها مرتين فتناسيت ما كان ولم أسأل نفسي
عن شيء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جاءني الرافعي يوماً يقول : « إن بينك
وبين صديقنا الأديب ج شيئاً ! » قلت : « ماذا ؟ ،

قال : « أحسبه يغار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فإنه لا يعلم أن بينكما عاطفة ... ! »
وقال لي حميٍّ ولم تكن ابنته في داري بعد : « أترك كنت مع الرافعي أمس
في زيارة فلانة ؟ ، فتوجست من سؤاله شيئاً ...

وكادت تكون قصة كما أراد الرافعي ولكنني حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

* * *

... من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الرافعي موضوعاته ويبدع معانيه في

المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التي كان يصطنعها أو يسعى إليها ويهيئ أسبابها ، كانت تنجلي له الفكرة ويومض الخاطر وتنشقى المعاني ؛ ومن هذا الجوّ زحرت نفسه بالعواطف النابضة التي ألهمته من بعد أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص : الأجنبية ، وسموّ الحب ، والله أكبر ، واليائمان ، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يملى عليه القصة والموضوع ، إنما كان يمدّه بالمعاني والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه ؛ فما تزال هذه الخواطر والأفكار مضمرة في الواعية تزيد وتتوالد وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها ؛ فإذا هم بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعاني انثيالا حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد .

ولما قص الرافعي قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله في الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل في الرسالة وما عاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمت به ، وأحس في نفسه شعوراً جديدا ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه في الفراش بما يحمل في صدره من هم وما يضني جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعت قوتان ... وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار في العمل ... وطال الحديث بينه وبين نفسه فأزقه ليلة ... وتركته وروحت إلى دارى وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالى دعانى ليلى على « قلت . لنفسى ... وقالت لى ... » .

من أراد أن يعرف الرافعي العرفان الحق ، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة .

إن غاية ما ينشده الباحث عند ما يهيم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمير نفسه من ثانيا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولكن هاهنا إنساناً يتحدث عن نفسه وتحدث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ .

وأشهد أني رأيت قبل أن يملئ على الحديث وأن في وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاماً ؛ فما رأيت ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف : هذه هي هذه ، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة .

وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه ؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بستين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة المقتطف .

... وكما تثوب إلى الحزون نفسه إذا صرح بشكاته إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافعي بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضا ، وكأنما نفى همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تثقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية ...

ثم كان هلال رمضان ، فأنشأ مقالة « شهر للثورة » وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة .

كان خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء ، حين يعتدل الجو ، وتسكن الحركة ، وتخف المعدة : إذ كان عمله في المحكمة يملاً بياض نهاره ، فلما كان رمضان سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ الميلادية) سألتني : « كيف نصنع يا شيخ سعيد في هذا الشهر ، وأى أوقاته نجعلها للكتابة ؟ » قلت : « فانظر فيما تراه خيراً لك ، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء . » قال : « لا سبيل إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء ، ولكني سأحاول أن أكتب في العصر ، فإنه حينئذ امتلأت المعدة ثقل الرأس ، فلعل فراغها في النهار أن يشجذ الذهن ويصقل الفكر . »

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه ، ومضى يوم ويوم ويوم ، وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئاً للرسالة ، واستحيا أن يعتذر ، فلم طائفة من « فئات المكتب » وجعلها الجزء الثاني من « كلمة وكلمة » وبعث بها . في هذه الكلمات المنشورة بالعدد ٧٦ كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم ، وفيها حديث عن الزكاة والصوم ، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة ، وفيها رسائل إلى « فلانة ! » ثم كانت مقالة الأسبوع التالي هي قصة « سمو الحب » .

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة : رمضان ؛ وكتاب الأغاني لأبي الفرج ؛ وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب .

أما رمضان فسمي بروحه وأمدّه بما في القصة من المعاني الدينية التي حكّاها على لسان مفتي مكة وإمامها « عطاء بن أبي رباح » ، والعاشق الزاهد « عبد الرحمن القس بن عبد الله بن أبي عمار » .

وأما كتاب الأغاني فأعطاه صلب القصة وأساس البناء في سطور يرويهما من

خبر «سلامة المغنية» جارية يزيد بن عبد الملك . وقد وقع الرافعي على هذا الخبر اتفاقا في إحدى مطالعاته في كتاب الأغاني .

وأما أحاديث الشبان خفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضربه مثلا لسمو الحب يصحح رأى الناس فيه ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة .

في هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمرءة والحب في قلب رجل كالرافعي يعرفه الناس فيما يكتب شيخا من شيوخ الدين فيه تخرج وخشية ، ويعرفه من يعرفه من أصحابه مجنون كَلْبَيَاتٍ وقِسْ لَبَنَيَات !

... ولكي ينتفع الرافعي بوقته في رمضان كان يتخفف من طعام الفطور ، ثم يجلس مجلسه بعد العشاء للإملاء : فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السحور ، فيعوض فيه بعض ما فاتته من فطوره ثم ينام !

على أنه لم يجد راحته في هذا النظام أيضا ؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد في نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يصلح للنشر ليستريح أسبوعا من العمل ، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة ١٩٠٥ كان قد نشر بها قصته الأولى : « الدرس الأول في علبة الكبريت » ، فعاد إلى قراءتها ، فلما فرغ من القراءة التفت إلى قائلا : « هذه قصة ينقصها السطر الأخير ، قلت : « وماذا يكون هذا السطر ؟ » . قال « اسمع : هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحُكِمَ عليه ... » . قلت : « نعم ! » قال : « فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين ؟ » قلت : « أراه الآن رجلا يفلح الأرض أو يعمل بالفأس في حجارة أبي زعبل ! »

قال : « هذه الأخيرة أمثل به ؛ لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت فقاده إلى الحبس ! فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشقة ... ؟ اكتب ... اكتب ... »

وأملى على مقالة « السطر الأخير من القصة » .

لم يغير الرافعى هذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة ؛ وزاد عليها شيئاً من المحاورة بين الغلام وقاضيه . وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجاباً بها ، لكن كأتمار دته هذه المقالة إلى شيء من ماضيه تروح فيه من روح الصبا والشباب : فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليلقى فيها روح الصبا والشباب !

وفي الأسبوع التالي - وهو الأسبوع الأخير من رمضان - أملى على قصة « الله أكبر » .

وهي بسبيل مما سمع من أحاديث الشبان عن الحب ، ورقية ثانية من رقى الحب الداعر : كانت الرقية الأولى هي كلمة « برهان ربه » ، في قصة سمو الحب ، وكانت الرقية هنا هي كلمة « الله أكبر » .

وأول الأمر في هذه المقالة أننى كنت جالساً إلى الرافعى في القهوة نتحدث في شأن ما ، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد ، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام ، وقال الرافعى : « ... وأنا لو ارتدت إلى السمع لن يطربنى شيء من النشيد ما كان يطربنى في صدر أيامى نشيد الناس في المساجد صبيحة يوم العيد : الله أكبر الله أكبر ! يعجب بها المسجد ويضج الناس ... ليت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام ؟ الله أكبر ! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد ! »

ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفي كل صلاة ، فما فرغ من الحديث حتى طرقت زائر من رواد القهوة فخيا وجلس ... وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون ...

وتنهياً موضوع القصة في فكر الرافعي ، فلما دعاني ليلها على لم يجد في نفسه إقبالا على العمل ، فوقف في الإملاء عند منتصف المقالة ونسأ البقية إلى غد ، ثم كان تمامها .

وفي صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه ، وقد كان في الرافعي حرص شديد على ذكرى أبويه : فهما معه في كل حديث يتحدث به عن نفسه ، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تهيأت له الفرصة : وما إثارة الإقامة في طنطا على ضيقها به وجهلها مقداره إلا ليكون قريبا من قبر أبيه وأمه . وقد نقلته وزارة العدل مرة نقلة قريبة ، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل في وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل ، وكانت كل حجته عند الوزارة في إثارة طنطا : أن فيها قبر أبيه وأمه ! ... وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه ، فلعله الآن سعيد بقربهما في جوار الله ولعلمهما به ...

... ولما عاد من زيارة المقبرة أملى على مقالة « وحي القبور ! »

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه ، فأنشأ قصة « بنته الصغيرة » ، وهي الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص : تحدث في « قصة زواج » عن سعيد بن المسيب ، وتحدث في « سمو الحب » عن عطاء بن أبي رباح ، وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصري .

في هذه القصة يتناول الرافعي موضوع الزواج على النحو الذي تناوله به في قصة « رؤيا في السماء » على أنه باب إلى السمو بالإنسانية ، وفيها - إلى ما فيها من الدعوة إلى الزواج وبر البنات - شيء من الأدب الديني يضمنها إلى سابقاتها .

ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من « كلمة وكلمة » - العدد ٨٤ سنة ١٩٣٥ - وفيها كلمات عن السياسة ، وحديث عن المرأة ، ونظرات في أخلاق بعض الناس أوحى إليه بمعانيها قضية كانت له في المحكمة شذله أمرها وقتا ما ، وقصة ذلك أن الرافعي كان اشترى قطعة أرض للبناء في شمال المدينة ونقد البائع ثمنها وجعل لها حدودا مرسومة : ثم أعجزه أن يبنيا فظلت خلاء . وكانت هي كل ما حصل للرافعي من الاشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن ؛ ثم طمع البائع أخيرا فيما باع ؛ فتحيّف القطعة من أطرافها ، واصطنع بينه وبين الرافعي مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس ، وشكاه الرافعي وتأهب لمناضاته ، واستعان عليه خصمه بواحد من ذوى صهره يعمل مفتشا في وزارة العدل ، فانتدب للتفتيش عن أعمال الرافعي الرسمية في محكمة طنطا مهددا متوعدا ، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه !

طالت القضية بين الرافعي وخصمه ، وتعددت جلسات المحكمة ؛ وطالت كذلك دورة التفتيش وكثر تحدى المفتش للرافعي حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله ، فحس فيها عن بعض مئات من القضايا التي قدر الرافعي رسومها ، لعله يعثر له فيها على غلطة تحمله على الخضوع له ؛ وغلطة في تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غرامة مالية ... ومن أين للرافعي ؟

وكنت متعودا أن أغدو على الرافعي في المحكمة في أوقات الفراغ ؛ فلما علمت

أن مفتشا عنده أقصرت ؛ فلما علم منى سبب امتناعى عن زيارته قال : « لا عليك
وخلّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئا من عادتك ! »

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده ؛ وكان يدننى إليه فى مجلسه ، ويجعل
كرسىً إلى جانب كرسيه خلف المكتب ، ويتأبى على المفتش أن يذهب إليه حيث
يكون ، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه ؛
وفى أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا فى مجلسه ليسأله عن أمر من
الأمر ، فيدعه الرافعى واقفا ويتحدث إليه وهو جالس حديثا كله سخرية وتهكم
ثم لا ينظر إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل ، ثم يغضى عنه ويدعه واقفا ليعود إلى
ما كان فيه من الحديث معى أو المطالعة فى صحيفة أو كتاب !

وعلى أن المفتش لم يظفر بشيء مما أراد بالرافعى ، فإنه استطاع أن يشغله
بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد ؛ على رغم ما كان يبدو على الرافعى من إهمال شأنه
وعدم الاكتراث به !

... ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعى ، وانتهت
كذلك دورة التفتيش على غير طائل ؛ ولكن هذه وتلك قد شغلنا
الرافعى شطرا كبيرا من سنة ١٩٣٥ ، وأوحت إليه بكلمات وكلمات مما
نشر لقراء الرسالة فى هذه الفترة .

... ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة ،
فكانت القصة التالية « زوجة إمام » : الإمام أبو محمد سليمان الأعشى ؛ وزوجه ؛
وتلميذه أبو معاوية الضير .

قصة أراد بها أن يستوفى موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب

الزوجة . وبها تم ما أملاه عليّ في موضوع الزواج ؛ وعدته ثلاث عشرة مقالة ،
أولها مقالة « س . أ . ع » ، وآخرها الجزء الثاني من « قصة إمام » .
وددت لو أنّ الرافعي حين أعاد نشر هذه المقالات في وحي القلم ، نشرها
على الترتيب الذي كانت به والذي رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة ، فإن
ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعةً متساوقةً فصولها فصلاً
إلى فصل ؛ ولكنه جمعها في وحي القلم على ترتيب رآه ، فجعل منها القصة ،
والمقالة ، والحديث الديني ؛ وجعل كل نوع من هذه الثلاثة في باب ؛ على أنّ
ذلك لا يمنع الباحث الذي يتّبع للرأى في هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب
الذي قدّمتُ أسبابه وأسبابها معه .

كان الرافعي قلماً يجلس إلى مكتبه في المحكمة إلا أن يكون له عمل ؛ فإذا
لم يجد له عملاً في المحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من
مواعيد الوظيفة ؛ وكان يزورني أحياناً في المدرسة ليقضى معي وقتاً من الوقت
أو ليصحبني لبعض حاجته ؛ وكان يغبطني على عملي ويزعم أنه لو كان في مثل
هذا الجوّ المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان ، ويعجب لي
كيف لا أجد في صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ
في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة ...

وزارني يوماً ، وكان من تلاميذي في المدرسة طفل في العاشرة أبوه من ذوى
الحول والسلطان ، فكان يصحبه شرطى كل يوم إلى المدرسة ويعود به ،
وكان قتي لدنا ، فيه طراوة وأنوثة ، وله دلال وصلاح ؛ فاتفق أن حضر إليّ
لشأن ما والرافعي معي ، ووقف الشرطى ينتظره على مقربة من مجلسنا ،
(١٨ - حياة الرافعي)

ونظر الرافعى إليه وقد وقف يكلمنى وهو يثنى ويتخلّع لا يكاد يتقار
فى موضعه ...

ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطى وراه يحمل حقيته ، والتفت الرافعى
إلى يسألنى : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا الشَّمعون ؟ » .

وكلمة « شمعون » عند الرافعى هى عَلمٌ مشترك لكل قى جميل . وتاريخ هذا
الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافعى بالمرحوم الكاظمى ؛ إذ كان
الكاظمى له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه
« شمعون » ، حدثنى الرافعى عنه قال : « وكان قى جميلا لولا ثياب الغلمان
لحسبته أنى ... ! » ، وراه الرافعى كثيراً فى صحبة الكاظمى ، فوعى اسمه وصورته ،
ثم كان اسمه عند الرافعى من بعد علما على كل غلام متأث ...

... قلت للرافعى : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطى الذى يتبعه هو
من جنود أبيه ، وإن من خبره ... »

قال الرافعى . « وهذا موضوع جديد ! »
فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

* * *

كان الرافعى يؤمن بالغيب إيمانا عميقا لا ينفذ إليه الشك ، وكان له عن
الشياطين والملائكة ، وعن الوحي والإلهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة
والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...

... وكان له - إلى إيمانه وتدينه - نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم ،
فكان أكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا
مرت أمامه امرأة فأتابعها عينيه ، أو سمع حديثا عن غائب فتعقبه بالحديث

عن بعض شأنه أو ناله أحد بمساءة فردها إليه ، استعاذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان ! وإذا همت نفسه بشيء تنكره المرومة ، أو دعت داعية من هواه إلى ما يتخرج منه المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على ما لا تحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه ، وذم الشيطان وتجنى عليه الذنب . وفي مقالته « دعاة إبليس » حديث يحقق هذا المعنى .

... فإني لمعه ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آنسة في دمشق ، ومعها صورتها مهداة إليه ، تبته لواجبها وأشجانها ، وتشكو إليه أنها ... مفتقرة إلى رجل ! ونظر الرافعى إلى صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدا في وهمه حسنا إلى حسن ، ويرسم له خطة ... ثم وضع الصورة في غلافها وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان .. أما إنه ... » وقال شاب في المجلس : « وهل الشيطان إلا هوى النفس ؟ » وقال الرافعى : « وهل تنكر . ؟ » وطال الجدل ، ومضى الحديث في فنون ... من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشيطان »

وكان لولده سامى زوج لم يدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ماسماها وعقد عليها ؛ فأقامت زمنا في مصحة حلوان ؛ ثم ارتدت إلى طنطا لتقيم بين أسرتهما ما بقى ، وزوجها حتى بها قائم على شئونهما ، ثم جاء أجلها ؛ فدعى الرافعى ليراها ، فجلس إلى جانبها لحظات وهى تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصير ، مقالة « عروس تُزَفُّ إلى قبرها ! »

كنت ليلتشد على موعد معه في القهوة ، فظلت أنتظره ساعات ، ولم يخلف الرافعي مواعده معى مرة من قبل ؛ فلما طال بى الانتظار مضيت لشأنى . وفى الصباح جاءنى نعى الفتاة فعرفت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت فى نفر من الأصحاب لتعزيته فى دار صهره ؛ والتمسناه فما وجدناه ، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الجنازة لبعض شأنه ؛ ولقيته بعدها ، فعرفت أنه ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقاله قبل أن تذهب معانيه من نفسه !

يرحمه الله ! لم يكن يمر به حادث يألم له ، أو يقع له حظ يُسرُّ به ، إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكأنما كل مافى الحياة من مسرات وآلام مسخر لفنه ؛ فهى للناس مسرات وآلام ، وهى له أقدار مقدورة ليدع بها ما يبدع فى تصوير الحياة على طبيعتها وفى شتى ألوانها ، ليزيد بها فى البيان العربى ثروة تبقى على العصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه فى أحد غير الرافعي !

* * *

وإذ ذكرت السبب الذى دعا الرافعي إلى إنشاء مقالة « عروس متزف إلى قبرها ! » أرانى مسوقا إلى ذكر حديث بينى وبين الرافعي يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الرافعي وطبعه ، وهو بسبب مما سميت فيه من قبل « فلسفة الرضا »

لم يكن لأحد رأى فى خطبة هذه العروس إلى سامى ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ما تخرج وصار له مرتب يكفيه^(١) ؛ ذهب يعرض أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سيئيه ، ولكنه مع اعتداده

(١) كان سامى معيداً فى كلية الزراعة قبل أن يذهب فى بعثة الجامعة إلى أمريكا .

برأيه في هذه المعارضة تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ؛ فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبذل له النصيح ثم يدع له الخيرة في أمره .

وخطب سامي فتاته ، وعقد عقده ، وكان حموه يعمل في مال فأكلته الأزيمة ، وُقدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأنفق ما أنفق في طبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان ! وتداعت فنون الحديث يوما بيني وبين الرافعي حتى جاء ذكر سامي وزوجته ، وكانت ماتزال في مصحة حلوان ؛ فقال لي الرافعي : « انظر ! إنها حكمة الله فيما يجري به القدر ! ضلّت البشرية إن هي حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم في أقدار الناس ... ليس للإنسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط أسبابا بأسباب ، ويجري بالحياة وحدة متماسكة ، فما يجري هنا هو بسبب مما يجري هناك ، فلا انفصال لشيء منها عن شيء ... تُرى مَندا كان ينفق على هذه المسكينة ليطبّ لها من دائها لو لم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامي هو زوجها ؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمت له من الرأي والنصيحة إلا لأنه في تدبير القدر مرجوٌ لهذا الواجب من بعد ؟ لقد كنت مستيقنا من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإني اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمته البالغة ، لأشعر بكثير من الرضا إلى ما كان ! »

ثم كتب مقالة « بين خروفين » وهي تمت بسبب إلى مقالة « حديث قطين » وفيها حديث عن ولده عبد الرحمن

وهو أصغر بنه؛ وكان الرافعى يرجوه ليكون من أهل الأدب؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليكون كما يرجو أبوه، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمل؛ وكان الإيحاء، هو وسيلة الرافعى إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل، ويبدو مثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافعى عنه فى أول ذلك المقال.

وكان الرافعى معنيا بمستقبل أولاده عناية كبيرة، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى، وكثيرا ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة، وقد وجدت بين أوراقه حديثا له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجا ليهيئ نفسه للامتحان لو أنه اتبعه لكان اليوم غير من هو!

ومن أجل أولاده أنشأ كثيرا من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها فى المقطم؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها!

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد؛ فما نزعته إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخرو فان؛ ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً فى الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسى.

وكان للرافعى رأى فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا، تفسره مقالة «تاريخ يتكلم» وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف فى ذلك الوقت عن أحداث تجرى فى تركيا؛ رأى فيها مشابهة من حوادث سبقتها فى مصر قبل ذلك بألف سنة فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى.

وفى أحيان كثيرة كانت تشور نفس الرافعى لما يسمع من أخبار تركيا فيهم أن يكتب؛

ثم يمنعه ذلك خشيته أن يكون فيما يكتبه شيء يقفه موقف المسئول عن غلطة
تعكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث
فيها عن الحاكم بأمر الله ؛ وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية لذلك العهد ؛ وكانت
هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان الغموض فى كثير
من معانى هذا المقال ؛ فمن شاء فليعد إليه ليقرأه وقد عرف داعيه ، فلعله لا يجد
غموضاً فيه من بعد .

ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه ، كان مقاله « كفر الذبابة » الذى
أنشأه على أسلوب كلية ودمنة بعد ذلك بأشهر .

* * *

ثم هلّ هلال المحرم ، وتهايت الرسالة لإصدار « العدد الممتاز » فى ذكرى
الهجرة ، فكتبتُ إلى الرافعى فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن
يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلاً . واستبق الرافعى
الميعاد فأعد قصة « اليمامتان » وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز
بأكثر من أسبوع . وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعى المعتاد ،
وأنه ما يزال يعد موضوعاً للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ،
وكتبت إليه تستنجزه المقال ... وكان الرافعى متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً
فى أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوتت عليه الفرصة فسبقت إلى
نشر القصة التى أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته فى حيرته ، ولم يجد فى
نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق
بالنشر فى هذه المناسبة ، فوقع على مقالة « حقيقة المسلم » ؛ وكان كتبها قبل ذلك
بستين إجابة لدعوة جمعية الكشف المسلم بالشام ^(١) ونشرها بالأهرام

(١) انظر صفحة ٢٠٨ من هذا الكتاب .

في ذكرى المولد النبوي لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لتُنشر في العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ .

يتحدث الرافعي في قصة اليامتين عن الفتح الإسلامي ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها مافي نفسه من معاني الحب ؛ ثم جعل في خاتمها « نشيد اليامة » : اليامة التي تقول الرواية العربية إنها تحزمت في جوار عمرو بن العاص فنعتته أن يقوض فسطاطه !

كان لهذه القصة عند الرافعي وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ؛ ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه . ولم أعر على هذه الرسالة بين ماخلف الرافعي من رسائل أصدقائه إليه . ومن اعتداد الرافعي بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ؛ جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه « وحى القلم » .

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعاني من وجع الضرس وتعب الأعصاب ؛ فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من « كلمة وكليمة » .

* * *

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال : جلست يوماً إليه نتحدث من أحاديثنا فقال : « ... إن صديقنا الأستاذ « م »

لم يكتب إلينا من زمان ... ليت شعري مامنعه عنا ، إن بي قلقا عليه وفي نفسي أن أراه أو أعرف من خبره ! ،

وفي صبيحة اليوم التالى طالعنا الأهرام بخبر غامض : « ... أن شابا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان في يده ! ... »

وقرأ الرافعى الخبر فارتد وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! » قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا م » لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر . غفر الله له ؟ ، فجزعت وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغصّ بريقى : « م ؟ إنك لتوهم ، وإنك مما تفكر فى شأنه ليُخَيَّل إليك . إن لصديقنا دينا ، وإن فيه تحرجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يُقدم على مثل هذه الجريمة »

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيد بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان . ثم مَدَّ يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى « م » يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يُحسن أن يصفها إلا من أحسنَّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تخرج وخشية ؛ وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والدَّود عن حرَماته ، وهو شاب عزب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛

وعلى أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابعة ، فإنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دينا من معاني الألم ، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريبا في هذا العالم وبين هذا الناس ؛ فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالمها غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذي أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكان بينه وبين الرافعي ودّ وله في نفسه مكان ، فكان له سره ونجواه منذ كان قتي يافعا لم يبلغ العشرين . وكان الرافعي يعتد بصداقته ويقرّ له ويُعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

فلما بلغ الرافعي نبأ شروعه في الانتحار جزع وتطير وضاعت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقي من دنياه ، فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالات «الانتحار» . ولم يكن الرافعي يعلم من أحوال صاحبنا مادفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ؛ فما جاء جواب الأستاذ «م» إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث في هذا الجزء على لسان «أبي محمد البصري» وهو يعني به الأستاذ «م» فهو هو ، وكلامه كلامه في جملته ومعناه ، لم يغير منه الرافعي إلا قليلا من قليل ، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الست ؛ أما ماعداها مما سبق أو لحق ؛ فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفسه .

ومقالات الرافعي في «الانتحار» هي باب من الأدب لم يُنسج على منواله في العربية فيها فن القصصى ؛ وفيها روح المؤمن الذي لم تفتته دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة .

* * *

وكان بين الرافعى والأديب حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة .
فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعى يرجوه أن يكتب فصلا لقراء
اللطائف « عن سحر المرأة » فكتب فصلا بديعا يصف فيه نفسه وصاحبته
« فلانة » فى أول لقاء بينهما .

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد
وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف
« أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب .

* * *

وكان من زملاء الرافعى فى محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له
ولوع بالأدب . وعلى أنه زوج وأب ، فإنه كان بأناقته ولباقة مرعى أنظار
كثير من الفتيات ، وكان له فى الغرام جَوْلان ...

ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فأنصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته
وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية فى إحدى الصحف الصغيرة التى
تصدر فى طنطا ...

وقرأ الرافعى بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « علما جديدا » لم يدخل إليه
من باب ولم يقرأه فى كتاب ؛ فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات إليه ليُفيد
علما من علمه ومن تجاربه ...

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعى ويقتص عليه ، والرافعى صاغ إليه ملذوذ
بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعى أن يحضر
له طائفة من مذكراته ورسائل صواحيبه ، لعله يجد فيها موضوعا يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات وتلك الرسائل استملى الرافعى مقالات « الطائشة »
و « دموع من رسائل الطائشة » و « فلسفة الطائشة »

هى قصة لا افتعال فيها وليس فيها شيء من صنع الخيال ؛ وما حكى الرافعى
من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هى
فلسفتها كما فهمها الرافعى من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها .

ولقد نال الرافعى من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات ، وقرأها
أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعى ليحتج بها فيما
يحتج لمذهبه فى الحب والمرأة وتحديد الأخلاق ، والحقيقة فيها هى ما قدمت ؛
وقد زاد الرافعى إيماننا بمذهبه بعد هذا الذى سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته
ومن رسائله !

ولم يكتب الرافعى قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب
قصتها على طريقة من فنه ؛ فأثر الرافعى أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه
ويتحدث عن رأيه فى طائفة من فتيات العصر ؛ فترك صلب القصة ليكون
حديثه تعليقا وحاشية .

وقد قرأت القصة مع الرافعى كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافعى يقف عند
كثير من عباراتها موقفا بين الإعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما فى
نفسه كما هو فى نفسه ، فكان فيها وحى عاطفته ونبض قلبه وإحساس روحه ،
فجاء بأدق ما فى الفن وأبلغ ما فى التعبير غير قاصد إلى شيء من ذلك ، وما كان
يبلغ شيئا من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان فى هذه
المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل الصدق عند الرافعى
فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبه .

ولما كتب المقالة الثالثة «دموع من رسائل الطائشة» ، خلا إلى نفسه أسبوعاً
ليستجم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : «كلمة وكلمة» ، وفيها حديث
عن العقاد (١) .

وفي هذا الأسبوع كان الرافعي يجمع خواطره حول ما سمع من قصة
الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان «فلسفة الطائشة» .

ثم أملى على مقالة «كفر الذبابة» يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهب
إليه في شئون الإسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب
كلمة ودمعة .

وكانت مقالة «كفر الذبابة» هى آخر ما أملى على من المقالات ؛ وذلك في
صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهباً للسفر إلى مصيفه في سيدى بشر ، وتهبأت للسفر
إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة
فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأسبوعاً
أزوره في طنطا ، وأسبوعاً يزورنى في القاهرة . على أن الرسائل فيما بين
ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته ببضعة أشهر . ثم
تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، وكان
آخر مجلس لنا في قهوة «بول نور» بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكى ، وزكى
مبارك ، وكامل حبيب ، والسيد زيادة : ثم افترقنا بعد منتصف الليل وفي
نفسى منه أشياء ... !

وفي صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكى مبارك
حول «وحى القلم» .

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقانى ؛ وهو يشكونى إلى صحابتي وأشكوه ؛ حتى جاءنى نعيه ... غفر الله لى !

لكنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عنى وقع المصاب من بعد ؛ أو لتحملنى - غير محمول من أحد غير واجبى - على كفارة الذنب الذى أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما فى الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ لعل أقوم له بعد موته بالحق الذى عجزت عن وفائه فى حياته . يرحمه الله !

* * *

... لم يُملِ على الرافعى شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلى أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره فى المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر النبوغ فى الأدب » .

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقاله ، كليات عن حافظ ، لمناسبة ذكره ؛ ثم أصابته قرحة فى كفه منعه من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ فى الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ، ثم جعلها مقالة الأسبوع التالى . وهى مقالة من مقالات الرافعى الفريدة ، تهتم الباحث الذى يريد أن يدرس الرافعى صاحب « تاريخ آداب العرب » .

* * *

ثم توالى مقالات الرافعى يملئها على نفسه ويكتبها بخطه ، على أنى بما كنت ألقاه وبما كان بينى وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر ، لم يفتنى أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص

سأما لهذا البحث - على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التي أنشأها وحده من بعد ، غير معتبر ترتيبها في النشر ، إذ لا عماد لي فيما أكتب عنها إلا الذاكرة .

من هذه المقالات : الجمال البائس ، القلب المسكين ، المشكلة ، المجنون ، أحاديث الباشا .

أما مقالات «الجمال البائس» فقد أملأها عليه حبٌ جديد وليلي جديدة ولكنه حب كما وصف الرافي :

« ... وأنا على كل أحوال إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعا في الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني . ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ، غير أنه هو منها ! »

« ... ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحييته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شيء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

«والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيء نهائى ؛ فلا هجر ولا وصل ، ينسلك بعد ساعة ولكنك أبدا باقية بكل جمالك في نفسه ، والصغار التي تبكي الناس وتلذع في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة في وهمهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب ، تبكيه هو أيضا وتعتلج في قلبه ، ولكنها تظل عنده صغار

ولا يعرفها إلا صغائر؛ وهذا هو تجربته على جبار الحب،^(١)

حُبّ، هو سموّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السماوات يتنوّر في عوالمها الخفية نورَ الإنسانية في حقائقها العالية .

بدأ ذلك الحب في صيف سنة ١٩٣٥، وكان الرافعي يصطاف في سيدى بشر؛ ثم كان يقصد إلى الإسكندرية أحيانا ليلقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ عامر، رحمه الله؛ وكان بينهما صلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة منذ كان الأستاذ حافظ محاميا في طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته في الإسكندرية؛ مشغولا بكتاب يهم أن يصدره في شأن من شئون الإسلام وكان الرافعي يعاونه في إنشائه^(٢) ...
وكانا يتواعدان على اللقاء في ملهى من ملاهى الإسكندرية على شاطئ البحر، حيث تنهيا لهما الفرصة؛ من هدوء المسكان في النهار وقلة إقبال الناس عليه، لما هما فيه من عمل .

في هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة «بيا» فيعج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى، ليفرغ للرافعي وصاحبه في النهار يُداولان الرأى في شئون الأدب والدين والفلسفة . وبشتان ليله ونهاره !
وكثر تردّد الرافعي وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المسكان وألفا مافيه،

(١) الجمال البائس ج ١ ص ٢٩١ - ٣٢٣ - وحى القلم طبعة أولى .

(٢) رسالة الحج، أخرجها المرحوم حافظ عامر بك في سنة ١٩٣٦ وكتب على غلافها « بقلم دبلوماسى كبير، يعنى نفسه ! وكان وقتئذ قنصلا لمصر في بغداد أو في إيران، لا أذكر، وكان قبل ذلك قنصلا في جدة، ومن هناك بدأت تراوده فكرة لإخراج « رسالة الحج »، وسنعود إلى حديثها بعد .

وألّفهما فيمن ألف فتاة من راقصات الفرقة ؛ هي الإيطالية الحسنة «...»
فما كان بينها وبين الرافعى إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ...

وجلس الرافعى إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف
لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهده المرحوم حافظ عامر من بدايته إلى
منتهاه ، ثم ترك الرافعى لهواه وتركته صاحبته ...

وذاق الرافعى مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته
الآخيرة راقصةً من بنات الهوى تعمل فى مسرح هزلى من مسارح الصيف
المنتقلة بين شواطئ الإسكندرية ...
تلك هى صاحبة «الجمال البأس»

* * *

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعى إلى طنطا ، وعادت الفرقة الراقصة إلى
القاهرة ، وشتّ ما بين الحبيبين !

ولقيتُ الرافعى بعدها ، فحدثنى حديثه والكلمات ترتعش على شفّيته وفى
عينه بريق عجيب ؛ ثم رقّ صوته وتهدج وهو يقول : « مسكينة ! ليتنى أستطيع
أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر ... ليس موضعها
هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات «الجمال البأس» فدعانى
أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه ليراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له
تذكرتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى «دار الهلال» وأبطأ عليه الرسول
فلم ينتظر ؛ فتهض ونهضتُ معه واتخذ طريقه إلى «عماد الدين» ...

(١٩ - حياة الرافعى)

ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألني : « أين اسمها ؟
وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هي ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها في إطار كبير إلى جانب الباب يضم
صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ، مامنهن إلا لها جمال وفتنة ،
ولكن عينه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ؛ إلى صورتها !

ثم تحول عن الباب مسرعا عجلاً وهو يجمع بكلام لا يبين .
وقال لي وقد أسرعته إليه حتى حاذيته : « أليق أن ندخل هذا المكان ؟
أتراه من المروءة ؟ وددت لو رأيته ؛ ولكن ... »

وانتهينا إلى قهوة « بول نور » فجلس وجلست ؛ ومضى يتحدث عن السحر
والشعر وفتنة الجمال ؛ فما هي إلا لحظة ثم مرت بنا منحدره من شارع فؤاد إلى
شارع سليمان باشا ؛ فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت في مزدهم
الناس ، ثم عاد إلى نجواه وشكواه ...

وجلس مرة يتحدث إلى الأديب حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات
« الجمال البائس » ؛ فأهدى إليه صورتها ؛ فظلت هذه الصورة معه إلى أخريات
أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة ، فمن
أجلها كتب مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !
وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمت ... ؟ أتراها قرأت ... ؟ »

وما أحسبه لقي صاحباً من أصحابه إلا يتحدث إليه عن صاحبة الجمال
البائس ... جلست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعي

ونذكر من خبره فقص عليّ : قال :

« كان الرافعي يجلس على هذا الكرسي : من هذه الغرفة ؛ وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بيني وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ الرافعي يصفها لي وصفاً لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول على تصويرها كما هي في نفسه ؛ فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة ، وتمثلت صورتها لعيني كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها ؛ قدّم إليّ صورتها في ورقة لأرى بعيني مصداق ما سمعت ...

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التي صورها لي حديث الرافعي وإلى الصورة التي في الورقة ، فكأنما استيقظت من حلم جميل ... !
يرحمه الله ، لقد كان شاعراً ... ! » .

كذلك كان سلطانها في نفسه وأثرها في خياله !

* * *

وكانت نشأة هذه الفتاة في طنطا لأول عهد لها بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت « خيمتها » في طنطا بضع سنين ، ولم يكن الرافعي يعلم ذلك من خبرها يوم انتقيا في الاسكندرية في صيف سنة ١٩٣٥ فما عرف ذلك إلا متى حين رأيتها في فرقة « بيا » ونظرت صورتها ؛ فلما عرف من ماضيها في طنطا ما عرف ، أغمض عينيه وراح في فكر عميق ... أترأه قد لقيها من قبل في طنطا ولم يكن يذكر ، أم كان ينظم شعراً لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟
والعجيب أن الرافعي وهو في غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبه

« فلانة » ولم يفتر حبه لها ، بل أحسبه كان أكثر ذكراً لها وحينئذ إليها بما كان ، وكأنما كان قلبه في غفوة فأيقظه الحب الجديد وردّه إلى ما كان من ماضيه .

لقد كان قلب الرافعى عجيباً في قلوب العشاق ، ليت لى من يستطيع أن يكشف عن أعماقه !

وبسبيل وحي هذا الحب الجديد وما أذكره من ماضيه ، كانت قصة « القلب المسكين » التي نشرها في الرسالة نجوماً من بعد ؛ ثم ضمها إلى أصول الجزء الثالث من وحي القلم الذى طبع بعد وفاته .

* * *

أما موضوع « المشكلة » (١) فقد استملاه الرافعى من رسائل قرائه إليه . وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل . ح . وهى كانت أول صلته بالرافعى ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنين : هو وهى . فصارت من بعد مشكلتهما ومشكلة الرافعى معهما إذ لم يجد لها حلاً . ولقد شغلته هذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم اتصل بموضوعها عن كذب حين اتصلت أسبابه بصاحبها وصاحبه . وقد كتب الرافعى ما كتب في هذا الموضوع ، ثم مضى وخلف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدها ...

كان ذلك في الحريف من سنة ١٩٣٥ حين جمعتنى ظروف العمل بصديق الأستاذ كامل ؛ فلم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعنى كل السر ...

... فقد أمه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها في بيت أبيه . وكان أكبر ثلاثة إخوة ، فاقضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معانى الرجولة

وما يزال في باكر الشباب . ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير ، فسمّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دوراً فى هذه القصة ، فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب . . . ومضت سنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبغي أن يكون ، وكان يبغضها بغضَ الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية ، وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية ؛ فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ؛ وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهين نفسه ليكون من أساتذة « العلوم » فإنه كان ولوعاً بالأدب مشغولاً بمطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب فى قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى المللحة ...

وأحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته ، فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها ، وما كان لها ...

- وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعم بالحب ويحققا المثل الذى ينشدانه ؛ وكان قد مضى على الباب المخلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضعة عشرة سنة ... فما يذكرها ولا يفكر فيها ...

وكان نائماً يحلم حين تراسى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ؛ فما وجد أبوه وسيلة لإنقاذه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاءً بوعد مضى في ذمة التاريخ !... غضب الفتى واحتج وثار كبرياؤه ورجولته ، وأبى أن ينزل على رأى أبيه في شأن هو من خاصة شئونه ، ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبته على إرادته ، وساقته في عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها في السيارة من ليلته مرغماً إلى بيته في القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هي بنت خاله ، وهي زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ وإن فتاةً أخرى تنتظره ؛ وإن عليه لها واجبا تحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنح زوجه نظرةً أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار في القاهرة ... كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبه التي فتنته واشتولت عليه ؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حرياً أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التي كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سجنانه الذي يحرمه أن يستمتع بالحرية التي وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأزثت في نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ... !

وعاشت في بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف : لا يقاسمها الفراش ، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا في الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفي المساء حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل ؛ وما كان

بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التي توج في صدره ، والحسرة التي تتساقط
دموعاً من عينيها ، وإلا هذه الخادم التي تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها ...
ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبه والاختلاف إلى ملتقاهما .

على أن ذلك لم يزد إلا ولوعاً بحبيته وتبرماً بزوجه ... ومضت الأيام
تباعداً من ناحية لتقرب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذي وجد صاحبنا فيه
أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل ... ففضى يدبر أمراً
للخلاص من هذه المشكلة ؛ ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد
وسيلة إلى الحل ... !

كان كل طريق يفكر فيه للخلاص مخفوفاً بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق
زوجه ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ، وليس في استطاعته أن يجمع على نفسه
همين ؛ وكان تفكيره في ذلك همياً ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه !
وكتب إلى الرافعي يستفتيه في مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعي ؛ وفي مساء اليوم التالي كنت في
مجلس الرافعي بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفضّ غلافها بعد ...
وقرأ الرافعي الرسالة ثم دفعها إليّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدي قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ؛ وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأني ،

وأطرق الرافعي هنيهة يفكر وفيه إلى الكركرة (الشيشة) كما هي عادته حين
يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إلى قائلاً : « تعرف ؟ إن صاحبك لمفتون

بصاحبه إلى درجة الحق والسفه ، وما تنحل هذه المشكلة إلى أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ويكون له سلطان على هواه ، وهيات أن يكون له افا هنا إلا وسيلة واحدة ترده إلى رشاده فتتحل المشكلة

قلت : « فما هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبه دخول الشيطان فتفرق بينهما ... أترك تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا ،

قال : « فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر ، وإذا بدا لها ... انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادما ؛ وإن مرور الأيام لخلق أن يؤلف بينهما من بعد ،

قلت : « فهمت ، ولكن ماذا تراني أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ما تريد ؟ وهبني عرفت أن أقول له فن أين لي أن أستطيع لقاءها فأحدث إليها ؟ »

قال : « اسمع : أراها تقرأ ،

قلت : « إني لأعرف مما حدثني عنها أنها قارئة أدبية ، وأنها من قراء الرسالة ، وقد كان فيما أهدى صاحبها إليها كتاب أوراق الورد ، وأحسبها تنتظر ماتكتبه في هذه المشكلة ؛ فقد حدثها صاحبها أنه كتب إليك ... »

قال : « حسن ! فسا جرب أن أكون شيطانا بينهما ، بل ملكا يحاول أن يرذ الزوج الآبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية ... »

* * *

وكتب الرافعي المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها أن ينتقص صاحب المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند

صاحبه ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وأن فيها كما يعيها ويثلبها ويضعها بإزاء صاحبها موضعاً لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه في الرأي ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد في تصويرهما الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في محكمة الرأي العام ، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يرى من القراء .

ولقيتُ صاحب المشكلة من الغد ، فسألني : « هل رأيت الرافعي ؟ »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتى إليه ! »

قلت : « بلغته ! »

قال : « وماذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيي في الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بيني وبين الرافعي من حديث وما دبّر من خطة ... ونشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبي غاضباً يقول : « كيف صنع الرافعي هذا ؟ لقد نخلني من القول ما لم أقل . أتراني قلت عنها كما يزعم : لقد خلطتني بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت ... ! لقد ساءها ما نخلني الرافعي من الكلام ، وقد تركتها الليلة غاضبة لا سبيل إلى رضاها ! »

... وتحقق للرافعي بعض ما أراد ، واثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم في هذه المشكلة ، وجاءه فيما جاء من الرسائل ، رسالة من صاحبة المشكلة نفسها ... وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقياً حسناً ، ومضى يتحدث عنها حديثاً ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ،

ولكنه إيجاء ، إيجاء إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس جبا وإن زعمت لنفسها هذا الرأي ؛ ولكنه شيء يشبه أن يكون صورة عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به ... ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكلة بالإيجاء والإغراء والحيلة ...

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة . وفرغ الرافعي من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت سنوات وفي الأتون ثلاثة قلوب تحترق ... وعلى مقربة من النار صبي يحبو ينادى أباه ، وأبوه في غفلة الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلها على يدي هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ؟ أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة في أتون الشهوات ... ! ومعدرة إلى صديق كامل ... !

* * *

أما حديث « المجنون » ، فأعرف من سببه ما ذكر الرافعي في أول مقاله (١) ؛ والمجنون في هذه المقالات هو شخص حقيقي كما وصف واصفه ؛ رأيت لأول مرة في مجلس الرافعي ذات مساء في قهوة « لمنوس » ، فرأيت شابا أمرد يلبس جلبابا رخيصا وعلى رأسه عمامة ، وقد جلس بين يدي الرافعي مجلس من لا يحتشم ؛ فأنكرت موضعه ؛ وأشارت إلى الرافعي أسأله عنه ، فقال : « سله أنت من يكون ؟ »

فالتفت الفتى مضطرباً يسأل : « أوليس يعرفنى ؟ أو ينكر موضع نابغة القرن العشرين ... ؟ »

... ثم كان مجلس طويل وصفه الرافعى فيما وصف من مجالس المجنون . وهو قى كان طالبا فى مدرسة المعلمين الأولية بطنطا ، ثم أصابه ما أصابه فانقطع عن المدرسة ولكنه لم يقطع صلته بالأدب . وصديقنا الأستاذ حسنين مخلوف يعرف هذا النابغة ، فإنه كان بين تلاميذه فى مدرسة المعلمين .

أما المجنون الآخر الذى وصف الرافعى من حاله ما وصف بعدد ، فهو طالب فى إحدى كليات الأزهر . ولم ألقه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافعى عنه ما كتب : كنت يوما فى إدارة الرسالة ، حين دخل علينا قى أزهرى فى جلباب حائل اللون ، فحيا وقاله : « ألسنت تعرفنى ؟ »

فخبرنى هذا السؤال ولم أدريهم أجيبه ، فقال : « إن بيننا نسبا وقرابة ، وإن بينى وبين الرافعى ... إتنى أنا الذى يكتب عنه الرافعى مقالات المجنون ! » قال ذلك وفى وجهه أمارات الجد ، وبدأ لى كأنه يفاخرنى بما يقول ! قلت : « ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ! » قال : « نعم ، فهل عرفت الآن من يكون الآخر ... ؟ »

وقد كانت صلة الرافعى بهذين الفتيين بابا من العبث والمجانة ؛ على أنهما قد استطاعا أن يحملاه على العناية بأمرهما والتفكير فى كتابة شىء عن المجانين ... وقد احتفل لهذه المقالات احتفالا كبيرا . فبعث لى فى القاهرة لأشترى له نسخة من كتاب « عقلاء المجانين » ، ثم بعثنى بكتاب خاص إلى الدكتور محمد فؤاد مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة - وكان زميله فى المدرسة الابتدائية - يرجوه أن يأذن لى فى زيارة مستشفى المجانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم ،

لعله يجد فيها مادة تعينه على تمام موضوعه .
ولم يَفُتْهُ مع ذلك أن يلتبس علم مالم يعلم عند كثير من الأطباء ؛ فكان له
حديث طويل عن المجانين مع الدكتور محبوب ثابت ، والدكتور محمد الرافعى ،
والدكتور عبد الحميد المحلاوى طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه .
وقد أفاد من حديثهم بعض النوارد الطريفة التى حكها فى مقالاته ونسبها
إلى نابغة القرن العشرين وزميله ؛ على أن أكثر ما فى هذه المقالات هو صحيح فى
جملته وفى نسبه إلا بضع نوارد !

• • •

أما « أحاديث الباشا » فأكثرها خيال وأقلها حقيقة ، وقد اختار الرافعى أن
يجعل بعض حديثه فى الشئون الاجتماعية على هذا النظم حتى لا يُعْمَل قراءه .
وقد تخيل أخاه الأستاذ محمود الرافعى المحامى بدمهور ، كاتم سر الباشا الذى
سَمَّاه ونسب إليه ، لأنه كان يستوحيه كثيرا من الحقائق فيما يكتب ، وقد كان
الأستاذ محمود الرافعى فى صدر أيامه زعيما من زعماء الشباب فى طنطا ، يقودهم
ويرى لهم الرأى فى مسائل الوطنية وتديرات السياسة فى إبان الثورة المصرية
سنة ١٩١٩ وكان يومئذ طالبا فى مدرسة الحقوق .

أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقية كان منها وكان مماروى الرافعى ،
ولكنها شخصية من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال .
على أن أكثر مماروى الرافعى من الروايات على لسان (م) باشا هو حقائق ،
ولكنها لا تنتسب جميعا إلى شخص واحد .

نقد اجتماعية

لم يكن بين الرافعى وقراءه صلةً ما قبل أن يبدأ عمله فى الرسالة ، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد ، إلا طائفة تربطه بهم صلات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه ؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة ، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة ، حتى بلغ ما يصل إليه منها فى اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد . وأستطيع أن أقول غير مبالغ : إن الرافعى قد عرف من هذه الرسائل عالماً لم يكن له به عهد ، وانتقل بها نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ فى حياته وتفكيره وأدبه . وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطلحوا على وجوب دراسة البيئة التى يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التى أثرت فيه ، فإن مما لا شك فيه أن الحقبة التى كان الرافعى يكتب فيها للرسالة - كانت تطوراً جديداً فى حياته الاجتماعية نقله إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدد الحياة . وقد عاش الرافعى حياته بعيداً عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته ، فكان منهم كالذى يتكلم فى المذياع : يسمعون عنه ولا يسمع منهم ، وليس له ما يستمد منه الوحي والإلهام إلا ما تجيش به نفسه ويختلج فى وجدانه ، غير متأثر فى عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه .

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس ، وكان له من علته سبب يبعد بينه وبينهم ؛ فمن ذلك كان يسره ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم ، ويحصل من علم الحياة وشئون

الناس ما لم يكن يعلم ...

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرّفته طائفة لم تكن تعرفه ، وتذوق أدبه من لم يكن يسيغه ؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها جديدة على قرائها ؛ وجدوا فيها شيئاً يعبر عن شيء في نفوسهم ؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه ، فانفتح له الباب إلى دنيا واسعة ، عرف فيها ما لم يكن يعرف ، ورأى ما لم يكن يرى ، واطلع على خفيّات من شئون الناس كان له منها علم جديد ... فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران ؛ لا يسمع إلا صوته ؛ ولا يرى إلا نفسه ؛ ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس ، فانتقل من جو إلى جو ، ومن حياة إلى حياة ...

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الرافعي وأدبه ، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله .

والآن وقد وصلت إلى جلاء هذا المعنى كما شاهدته وعانيت أثره ، فإني أتحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الرافعي من قرائه ، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الرافعي بها ، وأيّ المعاني ألهمته وقدحت زناد فكره ؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بيني وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلفها لثم لي بها دراسة التاريخ ، فحسبي ما أقرأني الرافعي منها في أيام صحبته وما اطلعت عليه بنفسى من بعد ...

* * *

نستطيع أن نردّ الرسائل التي كانت ترد على الرافعي إلى أنواع ثلاثة :

١ - رسائل الإعجاب والثناء .

٢ - رسائل النقد والملاحظة .

٣- رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى .

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شيء كثير ، وحسب الإشارة إليهما ؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الرافعى من رسائل الإعجاب كان عن مقالاته فى الزواج ؛ وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات ، وقبلما كانت تخلو رسالة من هؤلاء وأولئك ، من شكوى صاحبها أو صاحبها وتفصيل حاله . وأطرف هذه الرسائل هى رسالة من آنسة أدبية كتبت إلى الرافعى تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها - وقد سمَّته فى رسالتها - يعيب عليه أن يعضل ابنته ويرد الخطاب عن بابہ حرصا على التقاليد ...

... ثم رسالة من (مآذون شرعى) يحصى فيها للرافعى بعض مامر عليه من أسباب الطلاق فى الأسر المصرية ، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية ، وفى هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يحكمها على أسلوب فنى يكسبها معنى القصة .

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثانى ، رسالة جاءت بعقب نشره مقالة « الأجنبية » عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلافها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من عدد (الرسالة) الذى نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر :

سيدى الأستاذ :

إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد ، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك هى تلك الكلمة التى ختمت بها هذا الكلام المردود إليك « مصرى »

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل ، كان استمداد الرافعى ووحيه وديناه الجديدة ، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل :

١ - هذه رسالة قتي في العشرين ، يكتب إلى الرافعى من الإسكندرية يقول :
« أستاذى الكبير :

« ليس لى الآن إلا ربى وأنت يا أستاذى ، وإن من حقه على أن أسألك حتى عليك ، وقد هدانى الله إليك .

« ... قرأت وتدارست ما كتبته عن الانتحار ، فهاذا تقول فى امرئ علم عمن الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلت . فهو يتحين الفرصة ليقتلها . إني أبكى يا أستاذى إذ أعيد هذا القول ؛ أبكى دما . لى أخوة وأنا أكبرهم ، ولا أخاف إلا أن لى أختا . وأبى - غفر الله له - ليس له ما يكون للرجل من معانى الرجولة ليضمن ألا يكون فى بيته شيء مما قد كان ...

« الشك يساورنى منذ أكثر من عامين ؛ واليوم فار التور ، إذ سمعت أنها حبلى ، ووقع فى يدى نما ملأنى يقينا بتصديق إثمها ؛ ولقد هممت أن أفعل ما لا يفعل ؛ وأنا أخشى ألا يتداركنى حكمك .

« ... ماذا تقول يا أستاذى ؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من نفسى ، أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضيع من يدى . أنا كالمجنون لا أيقينى شبه عاقل إلا أنت ، فهاذا تقول يا أستاذى وبماذا تحكم ؟ يكتبها الله لك فتداركنى برأيك ...

« ولك منى شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات تربيتك ، وأن يكون فى اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم ...

« ومعذرة لى من لدنك إن أغفلت الآن اسمى ، فى ١٤ - ٥ - ١٩٣٥

٢ - وهذه معلمة في إحدى مدارس الحكومة ، حامت حولها ريبة فوقفتها وزارة المعارف حتى تحقق أمرها ، فكتبت إلى الرافعي تسأله أن يعينها بجاهه حتى تعود إلى عملها الذي تعول منه أبويها ؛ فيشفق عليها الرافعي ويسعى سعيه لبرائها... وعادت إلى عملها ، وحفظت الجليل للرافعي ، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة تبثه خواطرها وتصف له من أحوالها وما تعمل ؛ وتكثر رسائلها إلى الرافعي حتى يزول الحجاب بينهما ، فتصرح له بما لا تصرح فتاة ، ويثول أمرها في النهاية أن تكتب إلى الرافعي بأنها عاشقة... وأن معشوقها الصغير - التلميذ في إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة - لا يعلم ما تكنُّ له ! هي تلقاه ، وتماشيه ، وتخلو به خلوات « بريئة » ! ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها ، وتأكلها النار في صمت... ! وتقول في رسالتها إلى الرافعي :

« ... فدبرني يا سيدي في أمري ؛ قلبي يحس أنه يحبني ، لقد قالتها لى عيناه ، ولكنه لم يتحدث إليّ ، ولست أجد في نفسي القدرة على التصريح له ... »

وتتوالى رسائلها إلى الرافعي تصف له ما تلاقى من الوجد بحبيبها الذي تكبره بسنوات ، ويقرأ الرافعي رسائلها فيبتسم ، ويتناول قلبه الأزرق فيثور فيها علامات يشير بها إلى مواضع وفقر تلهمه معاني جديدة وفكرا جديدا ؛ ويشتط الحب بالمعلمة العاشقة حتى تنظم الشعر ؛ فتبعث إلى الرافعي بقصائدها ليرى رأيها فيها...

بين يدي الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعي . بعثت بها إليه قبل منعاه بقليل . ليت شعري كيف انتهت قصة هذا الحب ؟

٣ - وهذه رسالة من (حلب) يدعش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعي مطربشا حليق اللحية أنيق الثياب ، فيكتب إليه :

(٢٠ - حياة الرافعي)

«... لقد رأيت رسمك يا مولاي فتأملت... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ؛ فهل لك يا مولاي في مجارة المدينة ومماشة الحضارة رأى دعاك إلى هذا المظهر الأنيق...؟»

٤ - وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها في هوى مغنية مشهورة، يحسن بها الظن إحسانا يمثلها لعينه مَلَكًا أنثى ! لا يترك مجلسا من مجالس غنائها، ولا يفكر في خلوته إلا فيها... ثم يأتيه النبأ أنها قد سُمِّيت على رجل من ذوى اليسار والنعمة، وأنها موشكة أن تصير له زوجة، فيطير به هذا النبأ ويؤمله أيما إيلام؛ فيكتب إلى الرافعي يقول :

«... إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق؛ متقلب القلب، دنس الذيل؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته. وأنا أحبها وأشفق عليها وأتمنى لها السعادة...»

«هل يجب عليّ أن أقف وقفة المحذّر بإقناعها بالعدول عن هذا الزواج الذى لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة، أو ألزم الصمت وأدع الأمور تجري في مجاريها وأقطع علائقي معها فأرذ لها صورها ورسائلها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها في ركن من أركان قلبي؟»

٥ - وذلك طالب في الجامعة، له دين وخلق ومروءة؛ بلغ مبلغ الرجال. وفاردم الشباب في عروقه؛ فسلطت عليه غرائزه؛ تغالبه شهواته فلا يكاد يغلبها؛ ولا يجد له سلطاناً على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أيما في غرفته الموحشة؛ ومع ذلك لا تزال «المرأة» تتخيل له بزيبتها في خلوته وفي جماعته؛ فليس له فكر إلا في المرأة، وإنه ليخشى الله؛ ومابه قدرة على الزواج، ولقد

جَزَبَ الصَّوْمَ فَمَا أَجْدَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَفْقَدَ نَفْسَهُ بَيْنَ شَهَوَاتِ
تَجَاذِبُهُ وَدِينِ يَأْبَى عَلَيْهِ .. فَمَاذَا يَفْعَلُ ؟

٦ — وهذه فتاة متعلّمة ، تعيش بين أبيها وزوج أبيها في همٍّ لا يطاق ، كل
سلوتها في حياتها أن تقرأ ، وهي لا تحسن عملاً ولا تجد لذة في عمل غير
القراءة ، ولكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه ، إنهما ينكران عليها كل شيء
مما تراه هي من زينتها بين الفتيات ، فعلها حذقة ، وآراؤها فلسفة فارغة ،
ومطالباتها عبث ولهو وسوء خلق ، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة !
وتمضي السنون وهي في هذا العذاب من دار أبيها : فلا هي تستطيع أن تحمل
أبائها وزوجه على رأيها في الحياة ولا هي تستطيع أن تنزل إليهما ، والمنقذ
الذي تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد ،
ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرصة في وجل ، لأنها تسيء الظن بكل
الرجال ، فَمَاذَا تَفْعَلُ ؟

٧ — وهذا فتى مثالي يحسن الظن بالأيام ولكن الأيام تخلفه مواعده :
أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج ، ولكن أهلها زوجوها من
غيره ، والتمس الوظيفة التي يؤمل أن يصل إليها بعد تخرجه ، فهاها ولكنه
وجد لها غلا في عنقه وكأمة على فمه ، وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس
فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء ، وكلما غرس زهرة هبت عليها أعاصير
الحياة فافتلتعتها وألقتها في مواطئ النعال وبرم بالحياة وضاعت به الدنيا وما يزال
في باكر الشباب ... فَمَاذَا يَصْنَعُ ؟

٨ — وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين ، يخاف الله
ويخشى عذابه : أحب فتاة من جيرته حبا « عُذْرِيَا » وأحبته ، وبرح بهما الحب

حتى ما يطيقان أن يمضى يوم دون أن يلتقيا ، ولقيته ذات مساء فى خلوة بعيدين عن أعين الرقباء ، وما أكثر ما التقيا فى خلوة ، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما ... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له ... ولما فأت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكي ! وكان فى نيته أن يتزوجها حين ينتهى من دراسته بعد سنتين أو ثلاث ، وكان صادقا فى نيته ، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه ، ولكنها لم تطق الانتظار حتى تمضى السنوات الثلاث ، ولم تطق أن تراه بعد ، وجاءه النبأ بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة ... وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعا سبب موتها ... ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتها فى نومه وفى يقظته ، ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه ما يزال يذكرها كأنها كانت بالأمس ؛ وكتب إلى الرافعى يقول فى رسالته :

« ... إتنى أنا الذى قتلتها ؛ إن دمها على رأسى ؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرّها أحد غيرى وهذا أشد ما يؤلمنى ، ولقد احتملت بصبر وثبات كل ما نالنى فى هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب ؛ ولكنى اليوم أحس بأن صبرى قد انتهى ولم يبق لى قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت ... فماذا أفعل ... ؟ » .
ألوان وصور ، ملائكة وشياطين ، نفوس تتعذب ، قلوب تحترق ، أنات وابتسامات - دنيا لم يكن للرافعى بها عهد ، ولم تكن تخطر له على بال .

* * *

وثمة لون آخر من الرسائل :

.. المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم ... شاب له خلق ودين ؛ وفيه اعتزاز بالعربية والإسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعى وينتصر له ؛ ويتبع بشوق وشغف

كل ما ينشر من كتب ومقالات : ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ؛ ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب جديرا بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيبا - فيما أظن - أن يجتمع الرأي لأديب من الأدباء على محبة الرافعي والعقاد في وقت معا ، كما أنه ليس عجيبا أن يتعادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا مادام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب ، ولن يمنع ما بينهما من الخلاف ، أو من الوفاق ، أن يكون لكل منهما قراءه المعجبون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما ينشئ كل منهما في فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارئ بالكاتب الذي يؤثره درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ولا يعترف لغيره بأن يكون له مكان بين أهل الأدب .

على أن شأن صاحبنا المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعي والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعي ويؤثره ؛ ويعجب به إعجابا يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب العقاد كذلك ، ويعجب به ، ويتعصب له . . لكل منهما في نفسه مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يحبهما معا ، ويتعصب لهما معا !

رأيان يتواثبان ، وشخصيتان تتأخران ، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبيه اللذين يؤثر كلاهما بالحب والإعجاب والاستاذية ؟

صورة طريقة وقعت عليها فيما وقعت بين رسائل الرافعي
وهذه رسالة منه إلى الرافعي يقول فيها (١) :

(١) ليست الرسائل تحت يدي في اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها في نفسي كما قرأتها منذ قريب .

« سيدى ، إني أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ، ولكن موقفك من العقاد ياسيدى ... لست شعرى لماذا تتخاصمان ؟ ... لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »

ثم لآتمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعى رسالته الثانية : « معذرة . إنك لتتجنى على العقاد تجنيا ظالما ، فما لك وجه من الحق فى عدائه والحملة عليه . لقد عقلت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير فى نفسى ، كبير جدا ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يدى فلا أجد غير الرافعى ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامى الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعى من أوراق : تملأ النفس عجبا ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعى من رسائله ، رسالتان . كتب إحداهما فى المساء ، وكتب الثانية فى صباح اليوم التالى ، ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا فى الطريق لتضاربا بالألف ... !

على أن الرافعى مع ذلك كان يرد على رسائله ! وددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعى إليه (١) !

والآنسة الأدبية « ف. ز. » معلمة فى إحدى مدارس الحكومة ، كان أبوها

(١) لما نشر هذا الفصل فى مجلة الرسالة . بعث إلى المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم رسالة ، فيها عتب وفيها أدب ، وفيها إلى هذين حديث لا أدرى أيقصده أن يثبت هذه الرواية أو ينفيها : ثم يمنيى بنشر رسائل الرافعى إليه ، على شرط أن تنشر إلى جانبها رسائله ، ولقد كان يسرنى أن أعرف بماذا رد الرافعى ، ولكن الوفاء بشرطه ليس لى به سلطان ، وإنه ليستطيع أن ينشر ما يشاء حيث يشاء !

زميلاً للرافعى فى محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ؛ فلما مات لم تنس
ابنته صديق أبيها ، فكانت تستعينه فى بعض شئونها ، ومن ثمة نشأت بينهما
مودّة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد
فى شئون وشئون .

صحبه إلى زيارتها مرة فى ليلة من ليالى الشتاء مع الصديقين كامل حبيب
وسعيد الرافعى ، فلقيناها مع بعض صديقاتها : وكانت جلسة طالت ساعات ،
أعتقد أنّ الرافعى قد أفاد منها بعض معانيه فى قصة « القلب المسكين ! »

* * *

.. وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود ؛
فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسى الاعتراف » فترة غير
قصيرة من حياته تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أنّ يصل
إليها من رحل وطوف ؛ وكان له فى كل دار أذن وعلى كل باب رقيب عتيد !
ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التى ظفر بها الرافعى من قرائه ؛
ولكننى أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلاً لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسرّ أحد
فسماء أو عزف به ؛ وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيرى ؛ إلا قليلاً من
الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجره
إليه بعض الحديث فى موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني
- وما كان بينى وبينه حجاب أو سرّ - فما عرفت خبرها إلا بعد موته ؛
ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئئنا إلى ؛ فستظل أسرارهم - فى يدى -
مصونة عن عيون الفضوليين ؛ فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعونى
الواجب لجلاء بعض الحقائق فى هذا التاريخ .

وكان له مراسلون دائمون ... يحدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم ،
فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شيء من تطورات حياتهم ؛ وقد أكسبهم
طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأنس به والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى
صديق عرفوه وجزبوه وعاشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإنّ القارئ ليلح في هذا
النوع من الرسائل الدورية التي كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ،
مقدار ما أثر الرافعى في حياتهم منذ بدأت صلتهم به ، فتطورت بهم الحياة
تطورات عجيبة ؛ وأدى الرافعى إليهم دينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم
من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية . وإنى لأضرب مثلاً لواحدة
من هؤلاء الأصدقاء .

هى فتاة من أسرة كريمة فى دمشق ، نشأت فى بيت عز وغنى وجاه ، وهى
كبرى ثلاثٍ نشأت نشأةً يفاخرن بها الأتراك ؛ ثم تقلبت بهن الحياة ، فإذا هنّ
بعد الغنى والجاه ناش من الناس ، واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة
ناصبة لتعول أسرتهما ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها معينٌ ساعدها دون أختيها
فى ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجمل الثلاث وأولاهن بالاستقرار فى بيت
الزوج الكريم ، فقد سبقتها أختها إلى الرفاء والبنين والبنات وظلّت هى ...
وما كان ذلك لعب فيها ، ولكنه سر لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت
هى وحدها - من دون أختيها - التى تستطيع أن تعول أسرتهما لأنها عاملة ...
وتألمت حين عرفت السرّ ، ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت
الأيام متابعة والأمانى تخلف موعدها ؛ وتحزّكت فيها غريزة الأمومة ؛ ولكنها
قمتها بإرادة وعنف ، ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بعزيمة لا تلين ؛
ولكنها لم تلبث أن أحسّت بوادى الهزيمة بعد طول الكفاح ، فشرعت قلبها

وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعي يامضاء « الصابرة » .
وقرأ الرافعي رسالتها ، ثم قص على خبرها وتندت عيناه بالدمع وهو يقول :
يا لها من فتاة بأسلة !

وأجابها على رسالتها بتذييل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة ...
وعادت تكتب وعاد يجيبها ؛ وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها
عن كل أحد - وكانت كتبته إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسائلها ليمزقه وحده
إن عنه أن يحتفظ برسائلها - وكان الرافعي لها كما أرادت : أباً وصديقاً ومرشداً
ومشيراً ، ولم يَأْبَ عليها في بعض رسائله أن يتبسط في الحديث إليها عن قصة
« القلب المسكين » ، لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية ... وتعزّت
المسكينة عن شيء بشيء ، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا ، وبدأ في
رسائلها لون جديد لم يكن في رسالتها الأولى ، وأخذت تكتب إليه عن كل شيء
تحس به أو تراه حولها ، وتستشيريه فيما جلّ وما هان من شئونها : في سفرها ،
وفي إقامتها ، وفي رياضتها ، وفي عملها ، وفي يقظتها ، وفي أحلامها ... في كل
شيء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ؛ حتى في صلاتها مع
صديقاتها وأصدقائها ؛ وفي الخطّاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها ...
ولم يكن يضنّ عليها بشيء من الرأى أو المشورة ...

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ، وتحققت أمانها على أكمل ما تتحقق أمانى
فتاة ، وجاءها العروس الذي لم تكن أحلامها تتناول إليه في منامها ، وبرق في
إصبعها خاتم الخطبة ، فانهرت منه عيون ... لا أريد أن أذكر من صفات
خطيبها حتى لا أعترف بها وبه ، فليس من حق أن أكشف ما تريد هي أن

يظلّ مستورا . لو قلت إن خطيبها وزيرٌ من وزراء ذلك البلد لما بعدتُ !
واستمرت تكتب للرافعي والرافعي يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها
كانت تبعث بها إلى الرافعي ليشير عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل
الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعي ورأيه ...

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة في ٣-٤-١٩٣٧ (نعي الرافعي في ١٠-٥-١٩٣٧)
تقول فيها :

« الصديق الكريم ...

« ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشدها تأثيرا على نفسي ! لقد شعرت
وأنا أقرأها بسرور عميق ، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة ...
ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أمّا .

« أعتقد أنك تعرف تماما أن حنيني للزواج فيما مضى ، وتمردى وثورتي
على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنني رأيته وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنهت
في غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذي .. صرت أكره الأطفال
لأنني ليس لي بينهم ولد ، وكنت إذ أرى أمّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها
أحس بألم مرير يحز بقلبي ويكاد يقطعه ؛ وكثيرا ما كنت أتشاغل وأشبح
بوجهي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر ، لست حسودة والله ؛ ولكن شدة
إحساسي كانت تجعلني بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود
السرور ؛ وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع ...

« ... والله يعلم أن ليس لي أي غاية مادية من وراء هذا الزواج ؛ وليس
قصدي منه إلا الحماية والستر ، لأنني مللت ومرض قلبي من فضول الناس ... »

وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعى مع زوجها ، اعترافا بحقه عليها ،
ولكن القدر لم يممه حتى يحين الموعد ، وحان أجله ولم ينظر بعينه الفتاة التى
تبناها على بعد الدار وشغلته أحزانها زمانا ، فلما ابتسم لها القدر وتحققت
أحلامها ، ناداه أجله قبل أن يشاركها فى ابتسامة الفرح وتهانى المسرة ... !

تقول له فى رسالتها المؤرخة ١٥ - ١ - ١٩٣٧ :

« الصديق الكريم ... »

« ... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ ؟ وهل أنت تخيف لهذه الدرجة .. !
على كل حال إذا وجدت ما يرعبنى فسأختبئ » وراء فلان ^(١) ، ولا بد أنه يحسن
الدفاع عني . لا ، لا ، سألبس درعا متينة تقينى (شرًّا) هذه المغناطيسية القوية ،
ولكنى أخاف يا أستاذى أن يكون الحديد أكثر انجذابا ، وأكون حينئذ
أسأت من حيث أردت الإحسان ... صحيح أننى معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى
دائما ، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و ... قد يتفقان أحيانا وقد يختلفان ؟ ثم
أليس ل ... معانى كثيرة وأساليب عديدة ... ؟ »

« تريد رأى فى صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيدا فلماذا تريد
إحراجى ... ؟ »

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو أكثر ، ومع ذلك فصاحب
القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . اسمع ، سأبدى رأى . لا لا ، ما بدى
أقول ، أستحي ... ! »

وكانت تعرف من أمره مع « فلانة » ما قص عليها فى رسائله . وفى رسائلها
حديث كثير عنها ؛ وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها ...

وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض في قصة الرافعي و « فلانة » ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ، فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها في هذه الرسائل فتهديها إلينا لنتم لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسلة التاريخ !

إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في هذه الرسائل ؛ ولها علينا ما تشترط فثنويه ؛ فلعل صوتي أن يبلغ إليها في مأمنها . ضمن الله لها سعادتها وحقق لها ما بقي !

هذه قصة فتاة يجد القارئ بين أولها وآخرها أشتاتا من تاريخ الرافعي ؛ وفيها مثال يبين معنى ماسميته (النقلة الاجتماعية) في حياة الرافعي بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل ؛ على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعي حظ أي حظ ؛ وقد كان على أن يكتب - بما اجتمع له من فصول هذه القصة - مقالة بعنوان « الصابرة » جمع لها فيما جمع من نثار الأفكار قدرا غير قليل ؛ وما أخره عن كتابتها - إلى أن وافاه الأجل - إلا انتظار الخاتمة فيما أظن ، وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع ؛ وهكذا نجد شدة احتفال الرافعي بموضوع ما تكون سببا في تعويقه عن كتابته أو عن تمامه .

كان يحتفل بكتابه « أسرار الإعجاز » فلم يتم ؛ وبمقالتي « الزبال الفيلسوف » و « الصابرة » فلم يكتبهما ؛ ولكن التاريخ لم ينس له .

مقارنت منحوتة

كثيرا ماتدعو الدواعى كاتباً من الكتاب إلى إنشاء مقال لا يذيله باسمه ؛
ويكاد يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالا فى صحيفه من الصحف غير
معزوة إلى قائله أو مرموزا إليه رمزا ما ولكن من غير المألوف أن ينشئ كاتب
من الكتاب مقالة أو فصلا من كتاب ، أو كتابا بتمامه ، ثم ينسب ما ينشئه إلى كاتب
غيره وللرافعى فى تاريخه الأدبى حوادث من مثل ذلك ، فثمة مقالات ورسائل ،
وكتب متداولة مشهورة ، يعرفها القراء لغير الرافعى ، وهى هى من إنشائه وكذ
فكره وعصارة قلبه ، ولكنه آثر بها غيره زهدا عنها أو التماسا للنفع من ورائها ،
ولو أنى أردت أن أستقصى ما عرف من ذلك لأغضبت كثيرا من الأحياء أحرص
على رضاهم وأخشى غضبهم ؛ ولقد كنت على أن أطوى هذا الفصل حرصا على
مودتهم ، ولكنى وقد وضعت نفسى بهذا الموضع لا كون مؤرخا بعيدا
عن التهمة - لم تطب نفسى بكتبان الشهادة ، فإذا لم يكن بوسعى أن أذكر
كل ما أعرف فحسبى اللجة الدالة والإشارة الموجزة ، ومعذرة إلى أصدقائى ...

فى سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول
حسن ؛ وكتبت عنه المقالات الضافية فى كبريات الصحف ، ولكن ذلك لم يكف
الرافعى ؛ ففى ذات يوم قصد إلى جريدة "المؤيد" ؛ فلقى هناك صديقه المرحوم
أحمد زكى باشا ، فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلا عنه ؛ فقال زكى باشا :

« وماذا تريدني أن أكتب ؟ » قال الرافعي : « تقول وتقول ... » قال زكي باشا :
« فاكتب ماتشاء وهذا إمضائي ... ! » وجلس الرافعي إلى مكتب في دار الجريدة
فكتب ماتشاء أن ينسب إلى صديقه في تقريره كتابه ؛ ثم دفعه إليه فذيله باسمه
ودفعه إلى عامل المطبعة ...

وقرأ الناس في اليوم التالي مقالا ضافيا بإمضاء « أحمد زكي باشا » في تقريره
« تاريخ آداب العرب » سَـجَّل الصفحة الأولى كلها من الجريدة . ولكن
أحدا من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعي نفسه ؛ يثنى على
كتابه ويطرى نفسه !

ولهذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه : فإنه لما أنشأ نشيده « أسلمى
يا مصر ... » قرأ القراء مقالا في الأخبار بإمضاء أحمد زكي باشا ؛ يثنى على النشيد
ويطرى مؤلفه ؛ ولم يكن كاتب هذا المقال أحدا غير الرافعي ؛ بل إن أكثر
المقالات التي يراها القارئ في الكتيب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده
هذا ^(١) هو من إنشائه أو من إملائه !

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقا بين المرحومين زكي باشا والرافعي إلى أخريات
أيامهما ؛ ومنه أن زكي باشا كان على نية إعداد معجم لغوى كبير قبيل وفاته ؛ وكان
للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال ؛ وفيه فصول ألفها الرافعي بتمامها وأعدّها
للإمضاء ... ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم ؛
وأحسبه ما يزال محفوظا بين خلفاته المخطوطة .

ويتمّ بسبب إلى هذه المقالات التي كان ينحلها الرافعي صديقه زكي باشا ،

(١) نشيد سعد باشا - المطبعة السلفية .

ما نحل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعى من شرح ديوانه الذى أصدر منه ثلاثة أجزاء سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٥ ؛ فإن شارحها هو الرافعى نفسه ؛ وفيها عليه ثناء وإطراء (١) .

* * *

فى الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التى كانت تحمل الرافعى على أن ينحل أصدقائه بعض ما يكتبه ؛ رهنالك أسباب أخرى :
فى سنة ١٩١٧ وقعت فى طنطا جريمة قتل مروعة ، وكانت القاتل امرأة عجوزا مسموعة بالغنى والشح والكزازة ، تزوجها قبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعاً فى مالها ، فلم يلبث معها إلا قليلاً ثم وقعت الجريمة !
وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب ؛ ثم انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام ؛ وكانا شيخين عجوزين ، فيهما بلاهة وغفلة ؛ فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما وهيناً بغفلتهما وبلاهتهما الفرصة للمجرم الحقيقى أن يحوك حولهما الشبكة وأن يصوب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة ...

كان المجرم الحقيقى معروفاً للجميع ، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفلين ، فألقت بهما إلى السجن المؤبد ؛ وقضيا فى السجن بضع سنين !

شيخان على أبواب الأبدية ، يساقان إلى ظلام السجن ليس من وراءه إلا ظلام القبر ، ولم يقترفا جريمة أو يرتكبا إثماً ... ولكن القانون قد قال كلمته ، والقانون حق واجب الاحترام ؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية شفيعاً من قسوة القانون .

وسعت أسرة السجينين إلى المحامى الأديب المرحوم حافظ عامر تطلب إليه أن يكتب استرحاما في أمرهما إلى أمير البلاد ، لعل في عطفه ما يأسو الجرح ويخفف وقع المصاب ؛ وجعلت له أجرا على ذلك مائة جنيه ! وماذا يقول المحامى في قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته ؟ ليس هذا سبيل المحامى الذى يرتب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض ؛ لقد فات أو ان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذى يخاطب النفس الإنسانية فيجتلب الرحمة ويستدر العبرة ويحسن الاعتذار عن النفس البشرية من أخطائها فيذكرى العاطفة الخالية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنسانى حديث الوجدان والشعر والعاطفة . وقصد المرحوم حافظ عامر إلى صديقه الرافعى ، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد ، وسمى له أجرة إن توفى في مسعاه . وقرأ الرافعى القضية وأحاط بها من كافة نواحيها ، ثم شرع قلبه وكتب ... وبلغت صيحتة حيث أراد فأفرج عن السجينين في مايو سنة ١٩٢١ وتناول الرافعى أجرته على ذلك من المحامى سبعة عشر جنيها ، واستبقى المحامى لنفسه ثلاثا وثمانين (١) ...

في هذا الاسترحام الذى كتبه الرافعى في بضع وأربعين صفحة ونحله صديقه المحامى لطبعه باسمه . لو أن من أدب الرافعى غير معروف لقراءته ؛ وفيه تحليل ونمى بديع ؛ وفيه شعر إنسانى يبلغ الغاية من سمو ؛ وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مثلها في أساليب الأدباء .

وقد ظل هذا (التعاون) الأدبى متصلا بين الرافعى وصديقه الأستاذ حافظ عامر

(١) حدثنى حديث هذه القضية الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ، صديق الرافعى وملازمه من لدن نشأته .

إلى ما قبل موت الرافعي؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحادثات إلى نطاق أدبي آخر ليس من حق أن أتحدث عنه اليوم... وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر، تحدث به الرافعي إليه في مجلس ضمنا نحن الثلاثة...

* * *

أشرنا في بعض ماسبق من هذه الطبعة إلى ما أوجلنا ذكره في الطبعة الأولى من خبر «رسالة الحج» المنسوبة للرحوم حافظ عامر قنصل مصر في جدة سابقاً^(١) على أن ما ذكرناه إجمالاً في الطبعة السابقة لم تخف حقيقته عن كثير من القراء، ففهموا ما قصدنا إليه، وإن كنا لم نقطع برأى أو خبر في نسبة تلك الرسالة؛ وقد كتب إلينا صديقنا الأديب السيد حسين نصيف من جدة في سنة ١٩٤٣ يقول: إن هذه الرسالة ليست من تأليف حافظ عامر، ولا من إنشاء الرافعي، وإنما نقلها أولهما عن ترجمة انجليزية مخطوطة لكتاب بالأردنية عن «أسرار الحج»، ولم يكن يعلم أن النسخة الأردنية قد نشرت على قرائها في الهند قبل ذلك بسنين، وأن ترجمتها الانجليزية قد سبقت النسخة العربية التي نشرها حافظ عامر في القاهرة بمعونة صديقه الرافعي، ولكي يبرهن صديقنا الأستاذ نصيف على دعواه بعث إلينا بالنسخة الأردنية لنوازن بينها وبين رسالة حافظ عامر، فدفعناها إلى صديقنا الأستاذ محمد حسن الزيات - ردة الله غربته - ليقارن بين الأصل و«الصورة» ففعل؛ ولا تزال تلك النسخة الأردنية عنده حتى اليوم. وقد نشرت مجلة «الرسالة» في ذلك الحين دعوى السيد حسين نصيف والرد عليها، وتناولنا موضوعها بالتعليق في بعض ما كنا نكتبه وقتئذ في مجلة «الثقافة» بتوقيع «قاف» تحت عنوان «الصحافة والأدب في أسبوع».

(١) انظر ص ٣٢٠ من هذا الكتاب.

فإذا صح هذا الذى رويناه - ونحن نميل إلى تصحيحه - فإن عمل الرافعى فى تلك الرسالة التى نشرها المرحوم حافظ عامر منسوبة إليه ، لا يعدو عمل المنشئ وصاحب البيان لفكرة زعم له صديقه أنها فكرته !

* * *

ونعود إلى حديث المقالات المنحولة فنقول :

فى شهر ديسمبر من سنة ما ، قصد الأستاذ جورج إبراهيم صديقه الرافعى ، يطلب إليه أن يُعد كلمة عن المسيح لتلقيا فتاة مسيحية فى حفلة مدرسية فى ليلة عيد الميلاد ...

وكتب الرافعى المسلم كلمة مسلية فى تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه ؛ وألقاها الفتاة فى حفل حاشد من المسيحيين المثقفين فخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الإعجاب . وفى الشهر التالى كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة فى « المقتطف » منسوبة إلى الفتاة ؛ وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلا من الإنجيل .

تحت يدى الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعى ؛ وهى النسخة التى بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة ، وفى صدرها بخطه إلى صديقه : « هذا ما تيسر لى على شرط الفتاة ؛ فنقع فيه ماشئت ، واضبط لها الكلام . والسلام ،

وفى آخرها يتفكه مع صديقه « وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة ، والمضرة ، والمعرة يا عم جورجى » .

* * *

وكان المرحوم الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي - صهر الرافعى - من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المقربين ، وكان أدنى إليه منزلةً من كثير من

تلاميذه ، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب ، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصا بالرواية عنه في الناحية الدينية ، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته .

فلما هم البرقوقي أن يصدر مجلة البيان^(١) - وكان السيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار - قصد البرقوقي إلى الرافعي يقول له : «إنتى لا أتصوّر كيف يصدر العدد الأول من «البيان» وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الإمام أصفه لقرائى ، وأنا كنت أدنى إليه مجلسا من رشيد رضا الذى لا يكاد يصدر عدد من مجلته - المنار - إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ ! ، قال الرافعي : « فابدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه ! ، قال البرقوقي : « ولكنى لا أجد عندى ما أرويه عن الإمام ؛ لقد ترك الشيخ فى نفسى أثره ولكنه لم يترك فى ذاكرتى من حديثه ومجالسه شيئا يستحق الرواية ، قال الرافعي : « ... ولا بد من ذكر شيء عنه فى البيان ؟ ، قال : « بلى ، وإلا غلبنى رشيد رضا واستطال علىّ عند قرائه بأنه هو وحده تلميذ الإمام وراويها ،

وضحك الرافعي وأطرق هنيهة ، ثم تناول قلما وورقة وكتب ... وصدر العدد الأول من مجلة البيان ؛ وفيه حديث يرويه البرقوقي عن الشيخ محمد عبده فى مجلس من مجالس درسه ؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان فى مثل بيانه ؛ وما قال المرحوم الإمام شيئا من ذلك ولا تحدث به ، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعي على لسان الأستاذ الإمام ونشره

(١) مجلة البيان : هى مجلة أدبية كان لها فى حلبة الادب صولة وسلطان ، وهى غير «البيان» التى كان يصدرها المرحوم إبراهيم اليازجى .

البرقوقي ليقضى لبانة في نفسه...

... ألقى إلى الرافعي هذا الحديث ساخرا ، ثم دفع إلى العدد الأول من مجلة البيان وهو يقول : « اقرأ ؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام ؟ »

وضحكْتُ وضحك الرافعي ، وعاد يقول : « ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع ، التفت إلى جلسائه قائلاً . وأى حديث هذا الذى يبدأ به البرقوقي مجلته ؟ لقد كنت حاضرا مجلس الشيخ ، وسمعت منه هذا الحديث ، ولكنى لم أجده من القيمة الأدبية ما يحملنى على روايته (١) ... »

... واستمر هذا (التعاون) أيضا بين الرافعي والبرقوقي طول المدة التى كانت تصدر فيها مجلة البيان ، فأى مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت فى نسبته إلى مُذيله باسمه ، فاحمله على أنه مما كتب الرافعي من الأدب المنحول ...

ومن ذلك مقدمة شرح ديوان المتنبي الذى نشره البرقوقي

ويدخل فى هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعي يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتأذنين ؛ ليدفع عن نفسه فى معركة ، أو يدعو إلى نفسه لمغنم ، أو ليعين صاحباً على العيش ، أو ليوحي إلى (صاحب الإمضاء) إيحاء يدفعه إلى الاستمرار فى الأدب والأمل فى أن يكون غدا من الكتّاب المشهورين ... وليس يعينى فى هذه الناحية أن أسمى أحدا أو أشير إليه ، إذ كان الذى كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه ، وأكثره لغو مما ينشر فى بعض الصحف لملء الفراغ .

(١) أروى هذا الخبر عن الرافعي على علاته ، على أن صديقنا الأستاذ محمود أبو رية ينكره ، وقد نفى المرحوم السيد رشيد رضا نسبة هذا الحديث إلى الأستاذ الإمام فى بعض كتبه ، أفتراه تذب لها من بعد ؟

من سُوءِ الاجتماعية

لم يكن الرافعى عضواً فى جماعة من الجماعات ، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف ؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال فى رأى . وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأى يراه مجاملة لصديق أو خضوعاً لرأى جماعة ينتسب إليها ؛ وكان له من علته سبب آخر نَبَّهَتْ إليه عند الحديث عن نشأته . ثم إن الرافعى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ الناس فيما يليق وما لا يليق ، فهو لا يعتبر إلا رأيه ، أو حاجته ، أو مصلحته ، فيما يكون بينه وبين الناس من صلّات ، ولم يكن يعرف هذا النفاق الاجتماعى الذى يسميه الناس التقاليدَ ، أو الأدب اللائق ... ، فهو بذلك كان عالماً منفرداً يسير فى نهجه إلى الهدف المؤمل على وحنى الفطرة أو هدى الإيمان . سمَّ هذا شذوذاً فى الخلق ، أو سمَّه استقلالاً فى الرأى وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها ؛ فما يعنينا هنا إلا إثبات هذه الحقيقة فى التاريخ كما شهدتها فى معاملاته وفى صلّاته بالناس ، وكما لاحتها فى جملة من أحاديثه .

... هذه الأسباب هى أهمّ ما كان يباعد بين الرافعى والاشترك فى الجماعات ، أو يباعد بينها وبينه !

على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب فى وقت ما لسبب ما ، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى بعض الجماعات . وأول أمره فى ذلك - على ما أعرف - أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين

في تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الديني : وكان معه ، على هذا الرأي صديقان من أترابه ، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح المرقى المحامى بطنطا : وقد اتخذوا « مسجد الهى » في طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ دعوتهم ، وطنطا كما قد يعرف كثير من القراء ، مركز هام من مراكز الثقافة في مصر ، وفي أهلها حفاظ وتخرج ، ولها صبغة دينية نشأت من أن فيها معهداً دينياً كبيراً في « الجامع الاحمدى » كان في وقت ما يشتد عدواً في مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة . والأزهريون في طنطا ، كالأزهريين في القاهرة ، إلى عهد قريب ، أكثر أهل العلم في مصر حفاظاً على القديم ، وأسرعهم إلى سوء الظن بكل إصلاح جديد : من ذلك لقي الرافعى وصاحبه في دعوتهم ما لقوا من عداة طلبة الجامع الاحمدى وعلماؤه ، حتى هم الطلبة مرة أن يذلوهم بالأذى في أبدانهم ... فلم يجد الرافعى وصاحبه في النهاية بداً من التسليم . وانحلت الجمعية الرافعية الصغيرة .

حدثنى الرافعى حديث هذه الجمعية في خريف سنة ١٩٣٢ بعد ثلث قرن مما كان : وكنت ذهبت إليه يومئذ في وفد ثلاثة ندعوه إلى الاشتراك معنا في جماعة أنشأناها بطنطا في ذلك الوقت باسم « جماعة الثقافة الإسلامية ، تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية ، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجاً : وكانت تضم فيمن تضم طائفة متنازلة من أهل الرأي والعلم والأدب لكل منهم صوت ورأى وجاء في قومه ...

ولبى الرافعى دعوتنا بعد تمنع ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد ، فلما استكملنا الأهبة ، دعونا الشباب المثقفين في طنطا إلى اجتماع عام في ناد كبير ، وكان الرافعى من خطباء الاجتماع .

صعد الرافعى إلى المنصة ، فوقف برهة يحيل نظره فى ذلك الجمع الحاشد ، ثم انطلق فى خطبته .

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة ، وعلى أن موضوعه هو الثقافة الإسلامية ، فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ « الجامع الأحمدي » ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ ؛ ولم يفت الرافعى أن يلاحظ ذلك ؛ فقال فى خطبته إلى هذه الناحية ، ينعى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبهم فى مثل هذه الدعوة ، وأن يؤثروا القعود على الجهاد ! وكان فيما قاله : « إن أدبياً كبيراً من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى فى الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالماً ! وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد فى كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا ... ! »

قالها الرافعى فى حماسة وانفعال وفى لهجة خطابية نائرة ، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله ، أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافعى ، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ فى الأزهر قد خافوا أن تقول كلمة الرافعى تأويلاً يناههم بالشر من إخوانهم الأزهريين ...

وعلى أن الرافعى كان برىء الصدر فيما قال ، وعلى أن الأزهريين كانوا يعلمون قبل غيرهم أن هواء معهم ، وعلى أن صدر كلامه وخاتمته لم يكن ينبئ عن قصد الإساءة ؛ فإن هذه الكلمة التى قالها قد أحدثت دويماً بين الأزهريين تهدد الجماعة فى نشأتها .

وسعى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدي (المرحوم الأستاذ محمود الدينارى) فأنبأه أن الرافعى قد قال فى خطبته : « لو قعد حمارى فى الأزهر بضع سنين لخرج

أعلم من شيخ الأزهر ... !»

وكتبها كاتب في رسالة خاصة إلى المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الطواهرى شيخ الجامع الأزهر .. !

وتسامع بها الشيوخ على ما حكاها الراوى فراحوا يتناولون الرافعى وجماعته بما وسعهم من التجريح فى أعراضهم ودينهم ومقاصدهم ، وقال قائل منهم : « وما حاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه ؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله فى العالم على حد السيف ، فما يغنى غناه فى هذه الدعوى كاتبٌ يكتب أو خطيبٌ يخطب ! » وامتدت هذه القالة الطائشة على لسان طائفة ...

وعرف الطلاب من الأمر ما عرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب ، وسعت طائفة أخرى فى وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يجمع هذه الفتنة بسلطانه ، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية ؛ إذ كان للأزهريين يومئذ فى السياسة دولة وسلطان. وإذا اتصل الأمر بالسياسة ، فإن طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة قد فزعوا فآثروا البراءة منها على الدفاع عنها ، وأشفقت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفدا إلى الأستاذ الدينارى شيخ الجامع يحقق له الرواية ويمحو سوء الظن ويعتذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد رداً غير جميل وقال عن الرافعى ما قال ...

وجاء الخبر إلى الرافعى بما أحدثت كلمته ، فما أفرغه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نُقل إليه منسوباً إلى الرافعى وإنهما لصديقان من زمان ... فكتب إليه :

« ... وإن شيخنا من علماء الجامع الأحمدى يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف ! وهذا كلام ، وسيتبقى كلاماً مادمت ساكتاً عنه ، فإذا عرضتُ له

بالمناقشة فقد تغير وجهه ، لو كان وجه النهار لاسودا .

وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التي ادعاها خصوم الرافعى عليه بما زادوا فيها ونقصوا ، فكتب يعتذر إليه ، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدى ... وكان الرافعى جالسا إلى مكتبه في المحكمة حين جاءه الرسول يدعوه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدى ، فردده ؛ وعاد يدعوه ثانية ويلح في الرجاء ، فحدد الرافعى موعدا .

وذهب إلى لقاء الشيخ ، فاستقبله العلماء بالباب في حفاوة بليغة ، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ ؛ قال الرافعى : « ووجدت الشيخ في انتظاري وبين يديه » إعجاز القرآن ؛ فما لقيني حتى قال : أتعرف ياسيدى أننى مدين لك ؟ هذا كتابك لا أجد لى رفيقا خيرا منه ، إنه زادى وعمادى . ثم عيَّثَ فى درج مكتبه قليلا فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب ، فدفعها إلى وهو يقول : وهذه قصيدة أعدتها لأنشدها بين يدى المليك فى طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه ؛ لا أجد من يصلحها خيرا منك ، فأنت أنت للشعر وللبيان ! »

قال لى الرافعى : « وبدون هذا كانت تقنع نفسى وترضى ، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائى ؛ طاعة لأمر شيخ الأزهر بعد الذى قال عنى منذ أيام ... »

تم الصلح بين الرافعى والأزهر ، ولكن الأزمة التي كانت ، لم تُبَقِ على الجماعة ، فأنحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة . وكان للسياسة يومئذ حديث طويل ...

ولم يشترك الرافعى على ما أعلم فى غير هاتين الجماعتين ،

ولم تنهيا للرافعى رحلة من الرحلات يفيد منها علما أو تجربة طول حياته ،
غير رحلة أو رحلتين - لا أذكر - إلى الشام ، لم يفارق مصر إلى غير الشام من
بلاد الله ؛ فزار طرابلس حيث مازال أسرة الرافعى لها ذكر وجاء ، وزار
لبنان حيث عرف صاحبة حديث القمر في سنة ١٩١٢ .

على أن الرافعى كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتحت له ؛ ولكن
موارده المحدودة كانت تقعده به ؛ ولما كان في بطانة المنفور له الملك فؤاد ،
كان له جواز سفر مجانى في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية ؛
فكان يعد حصوله على هذا الجواز ظفرا بأمنية عزيزة ، لأنه أتاح له أن يتنقل
ما شاء بين البلاد من غير غرم ، حتى ما يكاد يستقر في بلد ، فيوما في القاهرة ،
ويوما في الإسكندرية ، ويوما في بور سعيد ؛ يفيد من هذه الرحلات ما يفيد
لأدبه أو لبدنه وأعصابه ، حدثني مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية ،
فأحس شيئا من التعب والملال ، فقصده إلى المحطة فاتخذ مقعده في قطار كان
على أهبة السفر إلى بور سعيد ، فأتى قصيدته هناك ثم عاد ...

وقد كان هذا الجواز هو سبب ما بينه وبين الإبراشى مما فعلت مجمله
في فصل سابق ، وكان الرافعى قد قصد إليه يطلب إليه مد أجل هذا الجواز
بعد انتهائه !

وكان يغبط الذين يجدون في طاقهم أن يقضوا الصيف من كل عام في
أوروبا ويتمنى لو أتى له ، ليفيد من ذلك شيئا يجدى على أدبه . على أنه مع ذلك
كان يرحل إلى أوروبا أيا ن يريد ، ولكن في السينا ...

كان يسمى السينا : خارج القطر ! ويزعم أن في ذهابه لمشاهدتها كلها سنحت
له الفرصة غناء عن السفر ، فسواء عنده أن يرحل إلى أوروبا في قطار أو باخرة ،

وأن ترحل إليه أوربا بجالها في رواية يشاهدها على ستار السيماء ؛ فلكل منهما أثر متشابه في نفسه ؛ وذلك بعض مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة !
وكم كان ظريفا أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلا : « هل لك أن تصحبني الليلة إلى خارج القطر ؟ » يلقي هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة ، لأن كلمة « خارج القطر » كانت عنده علما عرفيا على السيماء لا يحتاج إلى تعليق !

وكان عجيبا في إيمانه بالغيب ، وتناجى الأرواح ، وتنادى الموتى والأحياء ؛ وكان يؤمن بالسحر والعرافة ؛ وكثيرا ما كنت تسمع منه : « حدثتني نفسي ... ألقى إلى ... هتف بي هاتف » وكان يعنى ما يقول على حقيقته ، جلست إليه مرة في منزله ، فأخذنا في حديث طويل ... وعلى حين غفلة سكنت ، ثم قال : « كيف صديقنا مخلوف ؟ » قلت : « لم أره من زمان ! » قال : « إنه قادم الساعة ... لقد ألقى إلى ... أحسبه الآن يصعد في السلم ... » فما كاد يتم حتى دق الجرس . وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم ، وسألت الأستاذ مخلوفا : أكان على موعد مع الرافعى ؟ فتنى لي كل ظنة !

وسألني مرة أخرى : « ماذا تعرف عن صديقنا م ، قلت : « لا جديد من أخباره ! » قال : « يهتف بي الساعة هاتف أنه في شرا » وفي صباح اليوم التالي كان نبأ شروعه في الانتحار منشورا في الصحف ! وفي الرسائل التي تبادلناها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعى كان يعلم شيئا !

وكان بينه وبين رجل قضية ، فغاضه ، وجاءني الرافعى يوما محنقا وهو يقول : « سينتقم الله منه ! سينتقم الله منه ! قلبي يحدثني بأن القصاص قريب ! » وفي الغد

جاء ناعى الرجل ، وكنت مع الرافعى وقتئذ ، فتندت عيناه بالدمع ، وتناول سبخته وأخذ يتمم فى صوت خافت وشفقة تحتلج من شدة الانفعال !
هذه حوادث ثلاث رأيته بعينى ، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض القراء ، وأحسبنى قد رأيت له غير ذلك ولكنى لا أتذكره الآن . . .

وحدثنى أن أباه كان مسافرا مرة إلى بلد ما ، وكان عليه صلاة ، فاقترش مصلى وأخذ يصلى على رصيف المحطة ، وإنه لكذلك إذ جاء القطار . قال الرافعى : « وكان أبى حريصا على ميعاد هذه السفرة ، يخشى شيئا لو تأخر عن مواعدها ، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ ؛ ولكن الشيخ استمر فى صلاته على ونى وأطمئنان ؛ وما تحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته وأطمأن فى كرسيه وحيئا مودعيه ووصى ؛ وكان سبب تأخير القطار شيئا غير مألوف يتصل بشأن من شؤون المحطة ! »

وأحسبه ذكر مرة فى بعض ما كتب ، كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خف ! وأخبرنى أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعى استحضر روحه فلبت نداءه ، وكان بينهما حديث لا أذكره . وحاول مرة أن يعلنى وسيلة لتحضير الأرواح ولكنى لم أعلم !

وكان يحفظ كثيرا من الأدعية والدعوات لأسبابها !
ولما وقع فى حب « فلانة » ونال منه الوجد بها ، لجأ إلى العرافين فى أمل يأمله ، فكتب تيمة فعلقها فى خيط فربطها فى سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح .. (١) قال : « ولكن أمورا عجيبة مفرعة وقعت لى ولأهلى ولسكان الدار جميعا فى خلال اليومين اللذين كانت التيمة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك ؛

فإن لكل تممة غائتين : إحداهما مما تأمل وثانيتها مما تخاف ، وكان ما وقع لي وما يتهددني من شر ، أكبرَ عندي من الأمل الذي كنت أرجو ؛ فندمت على ما كان ، وتسملت إلى السطح خللت رباط التيمة وفضضت خاتمها ... قال : فما فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها في رفق وأناة ؛ وزال ما كنت أحذر وهدأت نفسي من ناحيته : فما كان شأني في الحالين إلا كراكب سفينة هبت عليها عاصفة ثم قزت ا .. قال : وما كان الذي وقع لي في هذين اليومين مما يقع في العادة ، ولا كانت نهايته وقد فضضت خاتم التيمة بالنهاية التي تنتظر ... ا ، وكان يؤمن إيمانا لا شك فيه بأن يوما ما سيأتي فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة ، لأن بشيرا من الغيب هتف بهذه البشرى في نفسه ؛ فهي لا بد واقعة ! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه المرحوم فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذي فقدته منذ ثلاثين سنة أويزيد ، ورسالة أخرى من صديقه المرحوم حافظ عامر فيها شيء يشبه ذلك ! وأحسبه قال لي مرة أو مرات وكنت جالسا أتحدث إليه : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول ا ، ولو أتني ذهبت أستقصى ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وسعني الوقت ، وفي بعض ما قدمت الكفاية لمن يلمس أسباب العلم .

وكان الرافعي ولوعا بالرياضة البدنية من لدن نشأته ، يعالج أسبابها في أوقات رتيبة ، وكان المشي الطويل أحبَّ رياضة إليه . خرجت مرة في جماعة من صبحي يوم « شم النسيم » للرياضة بعيد الفجر ، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضى اليوم كله في الحلاء ، فلما صرنا

على بعد ميل من المدينة والشمس لما تشرق ، لمحت الرافي على بعد يخبى مشيته على حافة قناة بين زرعين : فلما دنوت منه رأيت يميل فينزل كئنه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط منسوط : وأقبلت عليه أسأله ، قال : « هذه رياضة تحلو لى كثيرا ، فما أتركها إلا لعارض ، بل إنى لطيب لى أحيانا أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة ، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان ... » قلت : وهذا الندى الذى تغسل به وجهك ؟ قال : « إنه ينضّر الوجه ويردّ الشباب ! » ثم سأل : « وأنتم أين تقصدون ؟ » قلت : هذه رياضة لانقوم بها فى العام إلا مرة ، وإن معنا لطعاما وماء وحلوى ؛ فهل تصحبنا ؟

قال : « وددت ولكن فى غير هذا اليوم ... أسأل الله لكم العافية ! » ونالنا فى هذا اليوم شر لم توقعه ، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين ... وسمع الرافي بما نالنا فقال : « هو ذلك ! إن الشر ليربص بالمسلم الذى يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم ! هذه وصية أب ! » (١) . وكان يعالج كثيرا من وسائل الرياضة غير المشى ، وقد أتقن تمرينات « صاندو » الرياضى الفرنسى المشهور ...

ولو أن أحدا دخل منذ سنوات الغرفة التى كان فيها مكتب الرافي ، لرأى (عُقْلَةً) تتدلى من السقف ، وكُرّاتٍ وأساطين من الحديد ملقاة إلى جانب ، وأثقالا من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط .

وقد كان إلى قريب يملك عودا طويلا من الحديد الغليظ يعلق فى طرفيه

(١) وصفت هذا الحادث فى مقال نشرته بمجلة الرسالة المصرية منذ أعوام ، بعنوان « يوم لا أنساه ! » .

ولديه الشابين سامى ومحمد ، ثم يرفعهما بيده كما يفعل أبطال الحمل حين يحملون من أثقال الحديد ... !

وكان ولعه بالرياضة يحمله على السعى إلى أبطالها يلتمس صداقتهم : ومن أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبد الحليم المصرى ، والبطل المصرى المشهور السيد نصير !

ومن عجائب الازدواج فى شخصية الرافعى أنك كنت تنظر على مكتبه ثلاث صور لا تجتمع فى مكان ؛ هى صورة المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وصورة الرياضى الفرنسى المشهور صاندو ، وصورة ... كريمان هانم خالص ، ملكة الجمال التركية فى وقت ما ؛ واسترعى اجتماع هؤلاء الثلاثة ملاحظتى ذات يوم ؛ فقال وأشار إلى صورتى صاندو والشيخ محمد عبده :

« هاتان قوتان تعملان فى نفسى : قوة فى روحى ، وقوة فى جسدى ! » قلت : « وهذه ... ؟ »

قال : « وهذه ... ! ما أجملها ! انظر ! ألا تقرأ شعراً مسطوراً على هذه الجبين ؟ »

وكان سباحاً ماهراً ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة وجهه ، وكان يمزح ويسميه « بلاج الرافعى » ، إذ قل أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطفائين فى سيدى بشر غير الرافعى وأسرته . ولا يطعن فى قدرة الرافعى على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة ؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر ، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم .

والرافعى صورة عاريفة تصوّر ها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله فى زى أبطال
الرياضة المشهورين : عارى الجسد ، بارز العضلات !
وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها مسلسلّة فى مجلة « المضمار »
الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة .
وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوّته البدنية ، ومن أسباب قوّته العصبية
أيضا ؛ ومن هاتين كان اصطبار الرافعى على العمل الشاق فيما يعالج من
شؤون الأدب .

ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأنّ القدر أقوى من احتيال البشر !

• • •

قلت فى أوّل هذا الفصل : إنّ الرافعى لم يكن رجلا اجتماعيا يلتزم ما تفرض
عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق ...
فلعلّ قراء الصحف المصرية ما يزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذى كان
يطالعهم فى كل جريدة وكل مجلة « عن الفسفورين » وفى رأسه صورة الرافعى
وشهادته بخطه عن مزايا الفسفورين الذى « شربه فكأنما شرب فيه الكهرا ... »
ولعلّ كثيرا من الذين قرءوا هذا الإعلان ورأوا فى رأسه صورة الرافعى
وشهادته بخطه - قد عجبوا وسألوا أنفسهم : كيف يرضى رجل كالرافعى أن يضع
نفسه هذا الموضع ؟

ولعلّ كثيرا منهم كذلك كانوا يعتقدون أنّ الرافعى لم يكتب هذا الإعلان
إلا مأجورا كما يؤجر « نجوم » السيامى وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف
العطر والصابون وأدوات الزينة ... !

... ولكن هذا الذى كان يدور فى تحلّد جميع القراء ، أو أكثر القراء ،

لم يكن يخطر للرافعى أو يدور بخله ؛ بل لعله كان يراها مفخرة له على أدباء الجيل أن يؤخذ بشهادته من دونهم جميعا ، وأن تُنشر صورته كلَّ يوم في كل جريدة مع لقب « إمام الأدب وحجة العرب ... » الذى نحله إياه الأمير شكيب أرسلان فى بعض ما كتب عنه ! وأحسبه قال لى مرة : « إن الأديب فلانا ليا كله الغيظ كلما رأى هذه الصورة مقترنة إلى هذا اللقب الذى لا يتناول إليه أديب من أدباء الجيل ! »

أتراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين ؛ أم شهادة من الفسفورين بإمامته ... ؟

ولكنه - يرحمه الله - لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليرى أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان عمل لا يليق !

والسبب الذى دعاه لكتابة هذا الإعلان ، أنه ذهب مرة ليشترى دواء من صيدلية ؛ فأهدى إليه من أهدي شيئا من الفسفورين زعم أنه يعينه على المجهود العصبى الذى يبذله فى معاناة الأدب ؛ ثم دعاه بعدُ إلى كتابة هذا الكتاب ؛ فلما أجابه الرافعى إلى ما طلب ، بعث إليه فى منزله بهدية من مركبات الفسفور فى صندوق ... ثم كان كتاب الرافعى - كما رآه القراء - إعلانا بأبخس الأثمان ، وهو راضٍ مسرور !

وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان ؛ نشره منذ سنين فى مجلة المقتطف (١) ، يُشيد بفرن مهندسٍ مشهور ؛ لأنه وضع له رسما لمنزله الذى مات قبل أن يبنيه ؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذى وضعه ! وإلى القراء هذا الإعلان ؛ أثبتته هنا طرفة أديبة لا يقع القراء على كثير من أمثالها !

إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس ...

عزيزى الأستاذ رمسيس

تأملتُ رسمك الجميل الذى وضعته لمنزلى ، و تتبعتُ مواضعَ الاتصال فيه بين قريحتك المبدعة وبين شكل الطبيعة ورؤوحها ؛ فأشهدُ لكأن هذا الرسم بما فيه من القوة يُحاولُ أن يحيا فى نظر من يتأمله .

إنك بهذا الذوق السليم الحى لتعطينا السرورَ فى شكل من الفن ؛ حتى لو مَلَكَ المسالكُ رُقعة من الأرض كالبقعة من الظلمة لوضعت لها من هندستك مُغرةً فجر يضىء عليها .

وأراك بهذه الدقة وهذا العلم كأنما ترغمُ الطبيعة أن تقدم لك حسابا عن كل مكان تتناوله منها ؛ وأحسبها لو هى صنعت بناءً كما تصنع ثمارها وأزهارها لجاءت به فى موضعه على الرسم الذى تتخيَّله أنت لموضعه ، كأنك أُعطيتَ بالعلم سرَّ إظهار الجمال فى أشكاله كما أُعطيتُ هى بالقُدرة سرَّ تكوين الأشكال فى جمالها ...

ما أبدعَ ما تمزجُ أيها الساحرُ بين القريحة والمادة ، وما أدقَّ ما تصلُ بين الجمال والمنفعة ، وما أكمل ما تحققُ بين الخيِّلة والواقع ! إن هذه الخطوط التى رسمتها لتكون ميلادَ بيت جميلٍ ، هى نفسها ميلادُ فنٍ بليغٍ يقيمُ لك بناءً نفخا من إعجاب محبك ؟

مصطفى صادق الرافعى

ديسمبر سنة ١٩٢٨

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلانا عن فنه بشهادة الرافعى ؛ وحسبك بها من شهادة !

ولئن كان في هذين الإعلانين الكفاية لإثبات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية ، إن في الحادثة التالية لشاهداً حقيقاً بالنظر :

عاد الأستاذ حافظ عامر من الحجاز ذات سنة في إجازته ، فأهدى إلى الرافعي سُبُحة نادرة لمناسبة عودته ، زعم له أنها تساوى بضعة جنيهات .

وعرض الرافعي السبحة على وقال : « كم تساوى ؟ » ، قلت : « لا أدري ! » قال : « فهل لك أن تقومها في السوق ؟ » فذهبت بها - ولم أكن أعرف أنها مهداة إليه - فلم أجد لها شيئاً في السوق ، ولكن تاجراً أنبأني أنها لا تساوى أكثر من جنيه !

وأنبأت الرافعي بما سمعت ، فما لبث أن تناول قلبه وكتب رسالة إلى صديقه يعتب عليه أن يغالى بقيمة الهدية إلى خمسة أمثالها !!

وعلمتُ بعدُ بما كتب الرافعي فتأملت لذلك ولم أكنم عليه رأيي ؛ فنظر إلى مدهوشاً وهو يقول : « أترأه خطأ أن أكتب إليه بهذا ... ؟ »

قلت : « نعم ! » فسكت هنيهة ثم قال : « وهل تراه يغضب لهذا ؟ » قلت : « أظن ! »

فعاد إلى سكوته وفي وجهه الأسف !

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد ، فيه عذْل ، وفيه عتاب ، وفيه

ورقة بجنيه يطلب إليه أن يشتري به سبحة مثلها إن وُجد ... !

وقرأ الرافعي رسالة صديقه ؛ وكان حرياً أن يشتد به الأسف لجواب

صديقه ، لولا أن هذا الجنيه قد محا ما كان في نفسه ... فاستبقاه لنفسه ... !

في يومه الأخير

في الساعة الثانية بعد ظهر الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧ ، نهض الراجعي عن مكتبه في المحكمة منطلقاً إلى داره ، يرافقه صديقه الأديب أمين حافظ شرف - وهو كان رفيق أوبته كل يوم - وتحت إبطه عديد من الكتب والصحف والمجلات . تعود ألايسير إلا ومعه مثلها ، وفي يمينه عصا لا يعتمد عليها ولكنه تعود ألا يمشي إلا بها .

واقترق الصديقان وبينهما ميعاد على اللقاء مساءً في مكان ما ، ليذهبا معا لمشاهدة فرقة راقصة هبطت المدينة منذ قريب . وتغذى الراجعي وصلى الظهر ونام ، ثم نهض بعد ساعتين ، فصلى العصر وجلس إلى أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسط لهم ، على عادة تعودها : ثم ذهب إلى عيادة ولده الدكتور محمد ، حيث لقي هناك أخاه الدكتور محمد النبوي ، وصهره الأستاذ مغازي البرقوقي : فجلس يمزح ويضحك ويتندر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندر في يوم من الأيام : ثم صلى المغرب والعشاء في العيادة ، وصحب أخاه إلى مأتم جار من العامة ليعزيا أهله . والمعروف عن الراجعي أنه كان يكره حضور المآتم وتقديم التعازي كراهة ظاهرة : وقبلما كان يشاهد في مأتم ، حتى إنه لما توفيت زوج ابنة سامي ، لم يجلس في المآتم إلا لحظات ، ثم انفراد في خلوته يستوحى الحادثة مقالته المعروف « عروس تزف إلى قبرها ! » وجاء المعزّون يلتمسون الراجعي

فلم يحدوا له ولده وصهره... (١).

أولئك الرافعي يحضرون هذا المآتم في يومه الأخير يريد أن يصل نسبا
ويعقد أسرة بالعلم الثاني، أم كان ذلك ميعادا إلى لقاء قريب...!

ثم ذهب الرافعي بعد التعزية إلى موعد صديقه ماشيا . واتخذا طريقهم
رجلين إلى حيث أرادا : فتمترجا ، وشاهدا ما شاهدا في الحفلة الراقصة . وأخذ
الرافعي ما أخذ من وحي الرقصات اللثة وأدبه ، وأخذ صديقه ما أخذ...
أولئك الرافعي يريد من هذه السهرة أن يصل ما انقطع من قصة (الجدل
الناس) و (القربى) و (في القربى ولا تحرق)...؟

... وفي منتصف الساعة شية عشرة ، كان الرافعي في طريقه إلى بيته .
بعد ما ودع صديقه في منتصف الطريق : فلما بلغ الدار . خلع ثيابه ، وتناول
غداء حقيقته من حبز والبطارخ : والبطارخ كان طعام الرافعي الذي يحبه
ويؤثره على كل شيء في المساء : لأنه كان يؤمن بفائدته لأعصابه : وكان
يستورده من بور سعيد جملة .

والتيقظ مع حجر على عادته كل يوم ، فتوضأ وصلى ، وجلس في مُصَلَّاه
يسبح ويدعو ويتلو قرآن الفجر ، وأحسن بعد لحظة حرقا في معدته ، فتناول
دواء وعاد إلى مُصَلَّاه : وعحا ولده الدكتور محمد لموعده ، فشكا إليه ما يجد في
معدته . وما كان إلا شيتا ما يعتاده ويعتاده الناس كثيرا من حموضة في المعدة ،
وأعطاه ولده شيد من دواء وأشار عليه أن ينام ، ثم لبس محمد ثيابه ومضى ليدرك
القطار الأول إلى القاهرة كعادته كل يوم . ومضت ساعة ثم نهض الرافعي من

فراشه لا يحس الماء ولا يشكو وجعا وما به علة : فأخذ طريقه إلى الخلاء .
فلما كان في البهو سمع أهل الدار سقطعة عنيغة أحدثت صوتاً شديداً : فتهبوا
مدعورين ليجدوا الرافعى جسداً بلا روح !

قال الدكتور محمد : « ولما وجدت البرقية تنتظرنى فى محطة القاهرة وليس
فيها سبب ما يدعوتنى إليه ، تحيرت حيرة شديدة : بلى ، قد أيقنت أن شيئاً
حدث وأن كارثة وقعت ، ولكن لم يخطر فى بالى قط أنه أبى . لقد تركته منذ
ساعتين سليماً معافى قوياً القلب أقوى ما يكون قلب رجلٍ فى سنّه . . . كل
المفاجآت المروعة قد خطرت فى بالى إلا هذا الخاطر ، ولكن . . . ولكن
الذى مات كان أبى . . . ! »

يا صديقى ، لك العزاء ولى : أحسبت أن الرافعى سيموت فى فراشه وهو قد
نذر أن يموت فى الجهاد وفى يده الراية ينافح بها الشرك والضلال ويدعو إلى
الله « ويواصل حملة التطهير » (١) . . . ؟ »

طبعت نفساً يا مصطفى ! لكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم انقراش
وثقل الأيام التى تُعَدُّ من الحياة وماهى من الحياة ! فأى كرامة نلت ؟ وأى مجاز
جزت ؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد ؟ وهل كانت
إلا خُمُقة نَفْسٍ نَقَلْتُكَ من مَلَأ إلى مَلَأ أَرْحَبَ فى كنف الخلد وفى ظلال الجِمة ؟
يرحمك الله يا صديقى ويرحمنا !

* * *

وَحَمِلَ جِثْمَاهُ بَعْدَ ظَهْرِ الْاِثْنَيْنِ ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، إلى حيث رقد رقدة

(١) ما بين القوسين ، نص عبارة الرافعى فى رسالة بعث بها إلى صديقه
الاستاذ صاحب الرسالة قبل موته ، بأيام ، يحدد نهجه فى العمل ! .

الأبد في جوار أبويه من مقبرة الرافعي بطنطا . لم يشيعة إلا بضعة عشرات من زملائه في المحكمة . أو من جيرانه في الدار !

وبلغ نعيه أقطار العرب وأدباء العربية : فسكت القارئ وتلفت السامع ، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكون ووحشة وانقباض .

وطالت فترة الصمت ، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون ، إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتموج . وذاكريات تلبعث محرقة لاذعة ، تذكر بما كان وتنبه إلى ما ينبغي أن يكون ...

وهمس همس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلا للدين ولعربية هيبات أن تجد بديلا منه أو يقضى زمان من عمر التاريخ ! »

ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ، والخواطر المناجحة ، والذاكريات والأمانى ...

وهنك هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون : « إن للتقيد حقا على اللغة ، وحقا على المسلمين ، لا يجرئ فيهما أن نقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرؤوس ، وتجاوبت النظرات . واثالت الأفكار ، وتزاحمت

الأمانى : ثم لم يلبث أن عاد الصمت وعم السكون !

ثم عاد القارئ يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحي اثنان يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت في سماء الندى غائمة ، وانعقدت على رؤوس السامرين عجاجة ، وضج المكان كسالف عهده ، واختلطت الأصوات فسا يبين صوت من صوت ، واشتغل كل بما هو فيه ...

وصاح صائح في نبرة اليأس المحزون : « ويحكم يا بني يعرب ! لقد شغلناكم

دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ! لقد كان هنا إنسان
منكم ، وإنه لأرفعكم صوتا ، وأبلغكم بيانا ، وأبعدكم غاية ومدى : فهلا ذكره
منكم إنسان !

وبرقت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرؤوس ، وانبعث صوت
السامرين يحوقل ويسترجع في همس خافت ، وقال قائلهم : « يرحمه الله !
لقد كان ... ! »

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراجلين من أدبائها : يتهاوون من الذروة إلى بطن
الودى فردا فردا ، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت ،
لا تشيعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنه وأهله ، هو حُسبهم من الطعام
والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العَوَضُ كل العَوَض من عائلهم
الذى طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذى ضمنته العربية لمن يموت من أدبائها وهو فى ميدان الجهاد
يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، ويبدل نفسه لينشئ أدبا يسمو بضمير
الامة ، ويشرع لها طريقا تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء ، وكل ما يملكه أدباء العربية من
أساليب المواساة ، وكل ما يقدر عليه ناطق يبين ، وصديق يتحجب ، وحبيب

يشعر أن عليه حقاً لمن يموت من أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ، و تراث ليس فيه غناء ، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ ، وخلود
لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يخفف دمة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب
طفل سلبه الموت أباه وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلّوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها
الخطباء المصاقع : خلّوا عنكم غناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها : سيرحمه
بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمّل من جهد التضحية ومشقة
الحرمان : وسيرحمه ثانية بما لقي من العقوق وكان بَرّاً ، وبما لقي من
الغدر وكان وفياً ، وبما قوبل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل :
وسيرحمه بدموع اليتامى ، وبأنات الأيامى ، وبدعوات كثيرٍ من أهل الإيمان
وفوّا له ما وسعهم الوفاء !

مضى عام وأوشك عام ثانٍ منذ مات الراحل^(١) ، فهل سأل أحد : كم
خلف وكم ترك ؟ .

سأقول وإن لم يطلبها أحدٌ إلى ...

أما المال فلا سبيل ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد ،
وأما العيال ... فواحرزنا لو كان يجدى الحزن !

هذا « سامى » كبيرهم فى بعثة الجامعة بأمريكا ما يزال بينه وبين الغاية خطوة :

(١) كتب هذا الفصل فى الذكرى الأولى لوفاة ، فى ١٠ ما يو سنة ١٩٣٨ .

وهذه « سعدية » الصغيرة تلثغ في الرأ وتضم شفيتها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد » ! الله لهذا الشاب العائل ! لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ، فكأنما كان هو في تلك الغربة وديعةً إلى أجل ، وذخيرةً إلى ميعاد ؛ وعاجلته تبعات الحياة ولم يزل في باكر الشباب !

والحكومة ... ؟ خلى عنك يا وزارة الحقانية ، خلّى عنك يا وزارة المعارف ، خلّ عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعي في خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ؛ فأى مكافأة نالها وأى جزاء ؟ بضعة عشر جنيهاً في كل شهر تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث ... !

إنه الرافعي ، إنه الرجل الذي كان اسمه في مقدمة الأسماء المصرية التي تؤكد زعامة مصر للأمم العربية ، وترفع اسمها ، وتبني مجدها الممتاز ، وتسن طرائقها التي يحتذيها الأدباء في العالم العربي . إنه هو ... ولكنها هي مصر !

وكتب رئيس الرافعي في وزارة العدل كتاباً غداة منعاد إلى وزارة المالية ؛ يصف لها من حال الرافعي ومن خبره ، ويقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث في (معاش) الرافعي لأولاده ... ولكن وزير المالية يأبى ^(١) .. ولكن الله أكرم !

« يرحمه الله ! يرحمه الله ! » .

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

لقد مضى عام وأوشك عام . فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعي ؟

(١) كان وزير المالية لذلك العهد هو مكرم عبيد .

وهل ذكرت الأمة والحكومة ما عليهما من واجب الوفاء للرافعي ؟
لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يختلفون فيه بتأبين الرافعي ، وجاء الميعاد وتختلف
المدعو والداعى ؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد : ومضى عام ، وعلى مكتب كل
أديب دعوة لتأبين الرافعي ، وفي ذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه :
« يرحمه الله : يرحمه الله ! »

وعند دكاكين الوراقين أسئلة عن كتب الرافعي ، ولكن السوق ليس فيه
كتاب من كتب الرافعي (١) : وقال قائل : « أعيديوا طبع الديوان ، أعيديوا طبع
إعجاز القرآن ، أعيديوا ... أعيديوا ... »

وقال الطابع والناسخ والوراق : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »
وعلى مكتب الرافعي كتب لم تطبع ، وقصاصات لم ترتب ، وثمرة عقل خلّاق
كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكراً جديداً .
وقلنا : « يا وزارة المعارف ، هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها الغث
والفيران فيضيع على العربية كنز ما لها منه عوض ! ولكن وزارة المعارف في
أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تجيب ، إلا همساً في أمثال أنفاس النائم تردّد قول
الناس : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وفي الأمة مع ذلك أدباء ، وفي الأمة كتاب وشعراء ، وفي الأمة ناشئة غافية
ما تزال ترجو الخلود في الأدب ...

وفي الأمة عقول ناضجة في أجسام مهزولة من الفقر والجوع : وفي الأمة

(١) لم يكن في السوق من كتب الرافعي إلا « وحى القلم » في مكتبة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، التي طبعته قبل نعي مؤلفه بأشهر : ثم تراحت مكتبات القاهرة على
نشر مخطوطاته ، وإعادة طبع ما نفذ من مؤلفاته . وتكاد كتبه جميعاً أن تكون اليوم
متداولة في أيدي الوراقين بمختلف العواصم العربية .

رءوس ممتلئة على أناسيَّ تضطرب كل مضطرب للبحث عن القوت .
وفي الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعاً ورياً ؛ وفي الأمة
قلوب خاوية في أناسيَّ تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير ...
وفي الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً : « لماذا ... لماذا لانجد في الأمة
العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »
يرحمك الله يا مصطفى ... بل يرحمك الله أيتها الأمة !

الخاتمة

مات الرافعي فانطوت صفحة من تاريخ الأدب في مصر ، وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهج ، ولكن الرافعي الذي مات وغيبته الصفائح قد خلف وراءه تراثا من الذكريات والآثار الفنية ستتعاقب أجيال قبل أن يفرغ الأدباء من دراستها والحديث عنها ؛ وإنها لذكريات تثير في كل نفس ما تثير من عوامل السكره أو الحجة . وإنها لآثار ...

أما هذه الذكريات ، على ما تبعث في نفوس من معاني الغضب أو معاني الرضا ، فقد أثبتت منها في هذه الفصول ما قدرت عليه : وليس يعنيني ما تترك من أثر في نفس قارئها . إذ كانت غايتي التي أحرص عليها هي جلاء هذا التاريخ لقراء العربية كما أجد صورته في نفسي وأثره في وجداني ، متجردا ما استطعت من غلبة الهوى وسلطان العاطفة وتحكم الرأي : لأضع بين يدي كل قارئ - اليوم أو غدا - المادة التي تعينه على الدرس والحكم والموازنة .

وأما آثاره الأدبية فقد فصلت الحديث عن بعضها في بعض ما سبق من هذه الفصول ، وإلى القارئ جملتها مرتبةً على تاريخ إنشائها :

١ - ديوان الرافعي : ثلاثة أجزاء . صدرت بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .
وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ونهجه ، وهي مذيلة بشرح ينسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي وهو من إنشاء المترجم نفسه .

٢ - ديوان النظرات : أنشأه بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ .

- ٣ - ملكة الإنشاء : كتاب مدرسى يحتوى على نماذج أدبية من إيشاء ، أعد أكثر موضوعاته وتبياً لإصداره فى سنة ١٩٠٧ ، ونشر منه بعض نماذج فى ديوان النظرات ، ثم صرفته شئون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله ، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق إلا النماذج المنشورة منه فى ديوان النظرات .
- ٤ - تاريخ آداب العرب : صدر فى سنة ١٩١١ بسبب من إنشاء الجامعة المصرية ، ويراه أكثر الأدباء كتاب الرافعى الذى لا يعرفونه إلا به .
- ٥ - إعجاز القرآن : وهو الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ، طبع ثلاث مرات ، أخرها فى سنة ١٩٢٦ على نفقة المغفور له الملك فؤاد ^(١) .
- ٦ - حديث القمر : أول ما أصدر الرافعى فى أدب الإنشاء ، وهو أسلوب رمزى فى الحب تغلب عليه الصنعة ، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان فى سنة ١٩١٢ حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأدبية (م . ي) فكان بينهما ما كان مما أجملت الحديث عنه فى بعض الفصول من قصة حبه .
- ٧ - المساكين : فصول فى بعض المعانى الإنسانية ألهمه إياه بعض ما كان فى مصر من أثر الحرب العامة ، أنشأه فى سنة ١٩١٧ .
- ٨ - نشيد سعد باشا زغلول : كتبت صغير عن نشيده : « اسلمى يا مصر ! » الذى أهداه إلى المرحوم سعد زغلول فى سنة ١٩٢٣ ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ؛ وأكثر ما فى الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعى أو إملائه .
- ٩ - النشيد الوطنى المصرى : « إلى العلا . . . » ضبط ألحانه الموسيقية ، الموسيقار منصور عوض .

(١) طبع بعد ذلك عدة طبعات فى القاهرة .

١٠ — رسائل الأحزان : كتاب أنشأه في سنة ١٩٢٤ يتحدث فيه عن شيء

ما كان بينه وبين فلانة ، على شكل رسائل يزعم أنها من صديق يئنه ذات صدره

١١ — السحاب الأحمر : هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة ، أو الطور

الثاني من أطواره بعد القطيعة ، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر

١٢ — المعركة تحت راية القرآن : هو كتاب « الجديد والقديم » وفيه قصة

ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين بمناسبة كتابه « في الشعر الجاهلي » ، صدر

في سنة ١٩٢٦

١٣ — على السفود : قصة الرافعي والعقاد ، نشرته مجلة العصور في عهد

منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر ، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة :

« إمام من أئمة الأدب العربي » .

١٤ — أوراق الورد : الجزء الأخير من قصة حبه ، يقوم على رسائل في

فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حاله فيما كان بينه وبين فلانة ،

وما كان بينه وبين صديقه الأولى صاحبة حديث القمر .

وتعتبر كتبه الأربعة : حديث القمر ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ،

وأوراق الورد - وحدة يتم بعضها بعضا ، لأنها جميعا تنبع من معين واحد

وترمى إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها .

١٥ — رسالة الحج : أنشأه في صيف سنة ١٩٣٥ ، استجابة لرأى صديقه

المرحوم حافظ عامر وإليه ينسب !

١٦ — وحى القلم : مجموع مقالاته في الرسالة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ إلى

مقالات أخرى ، طبع منه جزءان في حياته ، ثم أعيد طبعه مع الجزء الثالث

أكثر من مرة بعد موته .

* * *

وله عدا ذلك كتب لم تطبع ، أهمها ما يأتي :

١ - الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب : تام التأليف والتصنيف تقريباً^(١)

٢ - أسرار الإعجاز : فيه فصول تامة التأليف ، وفصول أخرى أجمل فكرتها في كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها ، وكان الرافعي يعتد بهذا الكتاب اعتداده كبيراً ، وهو جدير بذلك حقاً : وقد أطلعني - رحمه الله - على فصول منه ، كما تحدث إلى عن نهجه في تأليفه ، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتي :

(أ) - يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية ، فيردها إلى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماءها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولاً أخرى

(ب) - ويتحدث في الفصل الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه ، مسترشداً في ذلك بما قدم في الفصل السابق من قواعد .

(ج) - ويتناول في الفصل الأخير من الكتاب ، آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة : ويعتبر هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه : وقد أتم الكتابة - إلى آخر يوم كنت معه فيه - عن بضع وثمانين آية على هذا النسق : وقد نشر منها في الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج ، وجعلها في بعض أقاصيصه .

٣ - ديوان أغاني الشعب : وهو ديوان من الشعر جعل فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيتها : وقد أنجز الرافعي طائفة كبيرة من هذه الأغاني نشر بعضها

وما يزال سائرهما بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر . وأكثر الأعمالي في هذا الديوان مأنوس اللفظ رشيق المعنى نما يحمل وقعه في النفس ويحف جرسه على الأذن .

٤ - الجزء الثالث من وحى القلم . وفيه سائر المقالات التي كتبها . سواء منها ما نشر في الرسالة وغيرها من المجلات والصحف ، وما لم ينشر من قبل (١) .

٥ - الجزء الأخير من الديوان : وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩٣٧ ، بما فيه من شعر الحب ، والمدائح الملكية التي أنشأها للعقيد له الملك فؤاد .

هذا إلى شتيت من المقالات والرسائل الأدبية أنشأها لمناسباتها ومنها كثير من مقدمات الكتب المطبوعة ، بعضها منسوب إليه وبعضها منحول لجهول النسب : أما المطبوع من هذه الكتب فقد أعيد طبع أكثره ، وأما غير المطبوع فما يزال ورقات وقصاصات على مكتبه ، وإنى لأخشى أن يمضي وقت طويل قبل أن تنتبه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التي خلفها الراحل ورقات مخطوطة يكاد يلبسها الإهمال والنسيان !

ولدى الدكتور محمد الراجعي مشروع لإحياء تراث أبيه ، لست أدري أي أحد الوسائل لتنفيذه أم تحول دونه الحوائل وتمنع منه الضرورات ؟ على أنى أكاد أومن بأن هذه ليست هي الوسيلة للمحافظة على تراث الراجعي : فليس من الوفاء له وحسن الرعاية لأولاده أن نحمل عايم هذا العبء . وما انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انتفع كل أديب وكل مسلم وكل عربي في مصر وغيرها من بلاد العربية .

(١) طبع سنة ١٩٤٢ .

لقد كان الرافعى صاحب دعوة فى العربية والإسلام يدعو إليها؛ فحقه على العربية، وحق العربية على أدبائها، وحق الإسلام على أهله، أن نجدد دعوته، وأن نبقي ذكره، وأن ننشر رسالته، وأن نُعنى بآثاره؛ فإذا نحن قد وُقِّعنا إلى كل أولئك فقد وقينا له بعض الوفاء!

والآن فلننظر لنرى مقدار ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوة من النجاح؛ وأمانا إلى ذلك وسيلتان:

أولاهما: أن نعرف مدى تأثير الناشئة من المتأدين اليوم بأدب الرافعى ومذهبه؛ والثانية: هى البحث عن آثار الرافعى ومنشأته الأدبية وتراثه الفكرى لنحرص عليه من الضياع.

فأما الأولى: فإن بين الرافعى والأكثرين من ناشئة المتأدين فى هذا الجيل حجابا كثيفا يمنعهم أن ينفذوا إليه أو يتأثروا به، لعوامل عدة:

فالرافعى أديب الخاصة، كان ينشئ إنشاءه فى أى فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلوبها وتعرِّض مكانا بين اللغات؛ وشبابنا أصلحهم الله لا يعرفون الأدب إلا ملهاةً وتسلية: لا ينشدونه للذه العقلية وسمو النفس، ولكن ينشدونه لمقاومة الملل وإزجاء الفراغ؛ فهذا سبب.

والثانى أن الرافعى - رحمه الله - لم يكن يكتب الكتابة الصحافية التى ينشئها أكثر كتابنا ليملقوا غرائز القراء بالعبارة المتهافئة والقول المكشوف. وعند المتأدين من ناشئة اليوم أن قيمة الأدب هى بمقدار انطباقه على أهواء النفس وارتياحها إليه وقدرتها على أن تسيغه بلا تكلف ولا عناء!

وثمة سبب آخر، هو طغيان السياسة على الأدب فى هذا الجيل طغيانا أقبح

على الأدب ما ليس فيه وعلى الأدباء من ليس منهم : بحيث يتخرج أكثر الأدباء أن يقولوا قالة أو رأياً أدبياً في أدب أو شاعر إلا متأثرين بما كان له من مذهب سياسى أو رأى فى السياسة المصرية .

والرافعى رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ، ولم يكن يعتبر له مذهباً فى النقد إلا المذهب الأدبى الذى لزمه منذ نشأ فى الأدب . فمن ذلك كانت خصوماته الأدبية تنتهى نهايتها إلى اتهامه فى وطنيته وفى مذهبه السياسى : ورائها أكثر خصومه من كتاب الشعب فرصة سانحة لينالوا منه عند القراء ، فاتهزوها ، وبالغوا فى اتهامه . وأغرقوا فى الطعن على وطنيته وتأولوا مذهبه ، حتى صار عند بعض القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص فى عقيدته . وما زال السياسة عند أكثر شبابنا ذات سلطان . وما زال الأدب يجرى فى غبار السياسة وهو أعلى مكاناً وأرفع منزلة ...

ولقد يضف إلى كل أولئك سبب أخير ، هو أن أكثر ما كان يتناوله الرافعى من شئون الأدب هو ما يتصل بحقيقة الإسلام أو معنى من معانيه . على أن الكثرة من ناشئة المتأدبين اليوم يريدون أن يفرقوا بين الأدب والدين ، فلا يرون ما ينشأ فى هذا الغرض لوناً من ألوان الأدب أو مذهباً من مذاهبه .

تلك جملة الأسباب ، أو يحمل الأسباب ، التى باعدت بين أدب الرافعى وبين انجهاور من ناشئة المتأدبين ، مابذ من النظر فيها والبحث عن علاجها حين منهم بأن نجدد دعوة الرافعى وننشر رسالته إن كان ثمة يقين بأن أدب الرافعى حقيق بالخلود : وأن اليقين به ليعمر قلب كل أديب يؤمن بأن الدين واللغة هما أول المقومات لقوميتنا العربية المسلمة .

... ذلك شيء... أما آثار الرافعي فإن كل مافي يد العربية منها هو صدى كلمات وعنوانات كتب ، أما حقيقتها ومعناها فقد انفرط الجيل الذي درسها أو كاد فلم يبق للجيل الناشئ منها غير عنوان : فليسأل كل أديب نفسه : ماذا قرأ من كتب الرافعي وماذا حصّل وماذا أفاد ؟

إنها لمكتبةٌ حافلةٌ جديرة بأن تنشئ مدرسة جامعة لمن يريد أن يتزوّد من العربية زاداً مربئاً وغذاء شهياً ، ليكون أديباً له لسان وله بيان وله منزلته الأدبية في غد... .

إني لأكاد أوقن أنّ تسعين من كل مائة من القراء لا يعرفون من هذه الكتب إلا أسماءها ؛ وإنّ منهم لمن يتوهم أنّ من حقه أن يتحدث عن الأدب ويؤرخ لأدباء الجيل .

وما عيبٌ على مَنْ لم يقرأها أنه لم يقرأها ؛ ولكن العيب كل العيب علينا عاقبة نحن المشتغلين بالأدب أن يكون كل وفائنا لمن يموت من أدباء العربية أن نقول : كان وكان ويرحمه الله .

لقد أذى الرجل واجبه ما استطاع وبقي علينا فرض واجب الوفاء .

* * *

لقد أورثني الرافعي بعض تبعاته ، وإني لأحس بثقلها على عاتق أكثر ما أحس بحاجة إلى التحدث عن ماضيه .

لقد عاش الرافعي حياته يجاهد لأمته مالم يجاهده أديب في العربية منذ قرون ، وقضى حياته يلقى من العقوق ونكران الجيل مالم يلقى أديب في العربية منذ كانت العربية ، ومات فما كان حظه منا في أخراه أحسن منه في دنياه . فهل لي أن أوّمل

أن تتنبه الأئمة والحكومة إلى ما ينبغى أن يكون ؛ وفاءً لهذا الراحل الكريم ؟
ليس يكفي أن يكون كل وفائنا للرافعى ؛ حفلة لتأبينه وبضع كلمات برثائه ،
ولكن الوفاء حق الوفاء أن نعمل على تخليد ذكره ؛ بتخليد أديبه ، وتجديد
دعوته ، وإبقاء ذكره ، ونشر رسالته ؛ فليكن هذا الذى أنشأته عن « حياة
الرافعى » أولاً له ما بعده ، لنفكر فى الوسائل النافعة التى تجدى على الأدب
والعربية أكثر مما تجدى رسائل التأبين وكلمات الترحم والاسترجاع !

أما هو فقد انطوى تاريخه على هذه الأرض ، فلن يجدى عليه شيئاً ما نفعل
وما نقول ؛ ولكن ما نفعله وما نفكر فيه إنما هو لخيرنا وجدواه علينا ، فلنفكر
فى أنفسنا وفى ذواتنا وفيما يعود علينا وعلى العربية من تجديد ذكرى الرافعى ،
إن كان يعز علينا أن نعمل أو أن نفكر إلا فيما تكون منفعة إلينا ولنا
من ثمراته نصيب !

* * *

أما بعد ، فهذه « حياة الرافعى » مبسطة لمن يريد أن يدرس ؛ وأنا لم أجد
جهدى فى جمعها وترتيبها لكى أقول ويقول الناس : كان وكان من أمره ؛
وحسب ؛ فما فى ذلك كبير فائدة ؛ ولكنى أنشأت هذه الفصول لتكون تمهيداً
لدراسة الرافعى فى أدبه وفنه ومذهبه ؛ فما أسميتها كتاباً ؛ ولكنها مقدمة تتلوها
فصولٌ وكتب إن شاء الله ؛ وهذا كتاب « حياة الرافعى » اليوم فى سوق
الأدب ؛ فما يكون عنوان الكتاب التالى عن الرافعى ومتى يطالع القراء ؟

أترانى أحسن الظن بأهل العربية فى هذا التساؤل ؟

لقد مات الرافعى ؛ ولكن اسمه سيقى ما بقيت العربية ؛ وليس بعيداً ذلك

اليوم الذى يتداعى فيه أدباء العربية من كافة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعى
موسما من مواسم الأدب وحلبة يتسابق فيها أهل البيان .

ألا إنه إذا كان أكثر الأدباء المعاصرين قد عقّوا الرافعى وأغفلوا شأنه
وتناسوه ، فإن جيلا جديدا يوشك أن يبسط سلطانه زاحفا متفحّما لا يثبت
أمامه شيء ؛ ويومئذ ... ويومئذ تذهب العداوات بأصحابها ؛ وتنطفئ هذه
الفقاعات العائمة ؛ ويخبو الرماد ؛ ويخلص وجه الحق للحق !
... ويومئذ ... ويومئذ تعلو كلمة الله !

١ - الموضوعات

صفحة	صفحة
٨٨ اسلمى يامصر	٣ فاتحة الكتاب :محمود محمد شاكر
٩٠ نشيد الاستقلال	١١ تمهيد
٩١ البحر المنفجر	٢١ صورته
٩٣ الرافعى العاشق	٢٣ نسبه ومولده
٩٦ الحب عند الرافعى	٢٨ علمه وثقافته
٩٩ هو وهى	٣٤ فى الوظيفة
١٠٧ شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء	٤٣ شاعر الحسن
١١٤ هى وهو	٥٢ شعراء عصره
١٢٠ تعقيب	٥٩ بين أهله
١٢٦ رسائل الأحزان	٦٤ من الشعر إلى الكتابة
١٣٢ السحاب الأحمر	٦٤ ملائكة الإنشاء
١٤٠ أوراق الورد	٦٥ إنشاء الجامعة المصرية
١٤٧ فى النقد	٦٧ تاريخ آداب العرب
١٥١ الرافعى وطه حسين	٦٩ إعجاز القرآن
١٦٢ تحت راية القرآن	٧٤ حديث القمر
١٦٥ كلية ودمنة	٧٥ شيوخه فى الآداب
١٦٨ شاعر الملك	٧٧ فى سنوات الحرب
١٧١ الرافعى والإبراشى	٧٩ كتاب المساكين
١٧٥ الرافعى وعبد الله عفيفى	٨٣ أغانى الشعب
١٨٣ الرافعى والعقاد	٨٥ النشيد القومى

صفحة	صفحة
٢٥١ قصص الرافعي	١٨٩ على السفود
٢٥٦ عود على بدء	١٩٥ وحى الأربعين
٣٠١ نقلة اجتماعية	٢٠٨ فترة جمام
٣٠٢ من رسائل القراء	٢١٢ القتل أنفى للقتل
٣١٧ مقالات منحولة	٢١٤ أديب صغير
٣٢٥ من شئونه الاجتماعية	٢١٥ البلاغة النبوية
٣٤١ فى يومه الأخير	٢٢٠ كيف كان يكتب ؟
٣٤٩ الخاتمة	٢٢٩ عمله فى الرسالة
	٢٣٣ مقالات وحى القلم

ب - الاعلام

١٦٩، ١٧٩، ١٩٣، ٢٠٦	إبراهيم إبراهيم على ٢٠٨ - ٣١٠
أحمد الكاشف ٥٣	إبراهيم الرافعي ٢٧٨
أحمد لطفى السيد ٦٩	إبراهيم عبد القادر المازني ٢١٨، ٨٦
أحمد محرم ٥٣	إبراهيم اليازجي ٣٢٣، ٧٦، ٤٨، ٤٦
الأخطل ١٦٨	أبو العتاهية ١٦٨
أرسطو ٢٥٩	أبو الفتح الفقي ٢٩
أسعد حسني ٢٣١	أبو محمد سليمان الأعمش ٢٧٢
إسماعيل صبري ١٠٢، ٥٦، ٥٣، ٤٦	أبو معاوية الضير ٢٧٢
إسماعيل صدق ٢٤٦، ٢٠٠	أبو النصر الشاعر ١٦٨
إسماعيل مظهر ١٨٩، ١٧٧، ١٧٤	أبو نواس ١٦٨
١٩١، ٢٠٣، ٢١٧، ٣٥١	أبو هلال العسكري ٢١٠
الأصمعي ٢١٩	أبو وداعة ٢٥٥
أكثم بن صيفي ٢١٣	ابن الرومي ٩٨
إلياس عجان ٤٧	ابن المقفع ١٦٥
إمام العبد ٥٣	أحمد أمين ٢١٧
أمين الحداد ٥٣	أحمد بن أيمن ٢٥٦
أمين حافظ شرف ٣٤٠، ٣٤٤، ٢٣٦	أحمد حسن الزيات ١٦٠، ٩٤، ١٥
أمين الرافعي ١٧٢، ٨٦	٢٠٧، ٢١٧، ٢٢٤، ٣٢١
أمين المعلوف ٢١٧	٣٤٢
البحري ١٨٠، ١٦٨، ٩٨	أحمد الرافعي ١٣٨، ١٣٤
البستاني ٤٦	أحمد زكي باشا ٣١٧، ٨٢
بشار بن برد ١٨٠، ٩٨	أحمد زيور ١٥٩
تودري ٤٧	أحمد شوقي ٨٥، ٥٦، ٥٣، ٤٦

خليل مطران ٥٣، ٤٦	توفيق البكري ١٤٩، ٥٣
داود عمون ٥٣	توفيق الحكيم ٢٩١، ١٥
دياب العراقي ٢٣٣	توفيق دياب ٢٠٦
رشيد رضا ٣٢٣	جعفر ولي ٨٥
زكي الابراشي ١٦٩، ١٨٣، ٢٢٩،	جوته ٨٢
٣٣٠، ٢٤٧	جورج ابراهيم حنا ٤٢، ٤٦، ٤٨،
زكي مبارك ١٢٤، ١٤٩، ١٥٧،	١١٢، ١٢٢، ٣٢٠، ٦١
٢٨٥	جورج زيدان ٦٧، ٤٦
رمسيس صوراتي ٢٣٨	الجاحظ ٧٥، ٢٢٣
زهير بن أبي سلمي ١٦٨	حسن بدوي الفطاطري ٢٦
سعد زغلول ٨٨، ١٥٤، ١٥٦،	الحسن البصري ٩٣، ٢٧٠،
١٥٩، ١٦٣، ١٨٦، ١٩٠،	حسن القاياتي ١٦، ٢١٢،
٣٥٠	حسن مظهر ٢٨٣، ٢٩٠،
سعدية ٣٤٦	حسين نصيف ٣٣١
سعيد الرافعي ٢٥	حسين مخلوف ١٩٦، ٢٣٤، ٢٩٩،
سعيد الرافعي الصغير ٢٤١	٣٣١
سعيد بن المسيب ٩٣، ٢٥١، ٢٥٨،	حسام الدين القدسي ٢١٠
٢٨٠، ٢٧٠	حسين الهراوي ١٣٧
سلامة موسى ٢٣، ١٧٩،	حسين والي ٢١٥
سلامة المغنية ٢٦٨	حفي ناصف ٤٠، ٥٣،
سليم سركتيس ٤٦	حافظ ابراهيم ٤٤، ٥٣، ٨٥، ١٦٩،
سامي الرافعي ٣، ٦٦، ٢٤٠، ٢٧٥،	٢١٤، ٢٨٦،
٣٣٥، ٣٤٠، ٣٤٥،	حافظ عامر ٢٨٨، ٣٢٠، ٣٢١،
سيف الدولة ١٦٨	٣٣٩، ٣٥١،
السيد ابراهيم العراقي ٥٤	الحاكم بأمر الله ٢٧٩

عبد العزيز الأزهرى ٢١٣
 عبد الفتاح المرقى ٢٢٦
 عبد القادر حمزة ٢١٧
 عبد القادر الرافعى ٢٥
 عبد القادر المغربى ٢١٥
 عبد الكريم سلمان ٥٦
 عبد الله غففى ٥٣ ، ٩٨ ، ١٤٩ ،
 ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٩ ، ٢٤٧
 عبد الله عمار ٢٣٦ ، ٢٤٤
 عبد الله باشا فكرى ٣٢٧
 عبد المحسن الكاظمى ٣٥ ، ٤٥ ، ٥١ ،
 ٥٦ ، ٢٧٤
 عبد المعطى المسيرى ١٥٢
 عبد الوهاب عزام ٢١٧
 الخديو عباس ٢٥ ، ١٥٩
 عباس الجمل ١٩٦
 عباس فضلى ١٥٥
 عباس محمود العقاد ٥٢ ، ٨٦ ، ١٤٩ ،
 ١٦٧ ، ١٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٥١
 عدلى يكن ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٣
 العزبى ٥٣
 عصفورة ٣٥ ، ٩٧
 عطاء بن أبى رباح ٢٦٧ ، ٢٧٠
 عفيفة السيد ٢٣١
 على بن أبى طالب ٣٣

السيد البدوى ٢٥
 السيد زيادة ٢٨٥
 السيد قطب ٢١٩
 السيد نصير ٢٣٥
 شخاشيرى ٢١٧
 شكسبير ٨٢
 شكيب أرسلان ٥٣ ، ٦٩ ، ١٥٥ ،
 ٣٣٧
 شمعون ٢٧٤
 الإمام الشافعى ٢٦
 صروف ٤٦ ، ٢١٧
 صفر على ٨٩
 صاندو ٣٣٤ ، ٣٣٥
 طه حسين ٥٢ ، ٦٨ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ،
 ١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٨
 ٢٥٨ ، ٣٥١
 الشاعر عبد الحلیم المصرى ١٦٩
 المصارع عبد الحلیم المصرى ٣٣٥
 عبد الحميد البنان ١٥٩
 عبد الحميد المحلاوى ٣٠٠
 عبد الرحمن البرقوقى ٥٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤
 عبد الرحمن الرافعى ٢٣٥ ، ٢٧٧
 عبد الرحمن صدقى ٨٦
 عبد الرحمن القس ٢٦٧
 عبد الرازق الرافعى ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٣٢

محمد إسعاف النشاشيبي ٢١٣
 محمد البحراوى ٢٤
 محمد بنحيت ٢٤
 محمد توفيق نسيم ٢٦٧
 محمد حسين هيكل ١٥٣
 محمد الرافعى ٦٦، ١٠٤، ١٦١، ١٧١،
 ٢٢٩، ٢٤٧، ٢٦٥، ٣٠٠،
 ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٥٣
 محمد سعيد الرافعى ٤٧، ٢٥٩
 محمد الطاهر الرافعى ٢٤
 محمد عبده ٢٥، ٤٤، ٥١، ٦٠، ١٣٤،
 ١٣٨، ٣٢٢، ٣٣٥
 محمد عبد الواحد خلاف ٢٤٣
 الدكتور محمد فؤاد ٢٩٩
 محمد كامل الرافعى ٢٧، ٨٣، ٣١٩،
 ٣٣٢، ٣٤٩
 محمد محب ٣٩، ٦٨
 محمد النبوى الرافعى ٣٤٠
 محمد النجفى ٥٤
 محمد نجيب ١٦٨، ١٧١
 محمد الهراوى ٨٥
 محمد هلال إبراهيم ٥٣
 محمود أبورية ٣٢٤
 محمود أبو الوفا ٢٠٦، ٢٣٢
 محمود الدينارى ٣٢٧، ٣٢٨

الشيخ على الجناجى ٧٩، ١٣٤،
 ١٣٨
 على الليثى ١٦٨
 على محمود طه ٢٠٦، ٢١٧
 على ماهر ١٥٤
 عمر بن الخطاب ٢٨، ١٧٣، ٢٣٣
 عمر بن عبد الله بن عمر ٢٤
 عمرو بن العاص ٢٨
 الإمام الغزالي ٩٣
 الملك فؤاد ٧٠، ٧٣، ٨٤، ١٦٨، ٢١٤،
 ٢٤٧، ٣٣٠، ٣٥٠، ٣٥٣
 فؤاد صروف ١٢٢، ١٨٧، ٢١٧
 فرح أنطون ٧٦
 فيكتور هيجو ٧٦، ٨٢
 فلانة ٩٩، ١٤٦، ١٦٩، ٢١٧، ٢٤٦
 ٢٦٧، ٢٨٣، ٢٩١، ٣١٥،
 ٣٣٢، ٣٥١
 فليكس فارس ٢٥٧، ٣٣٣
 فارس نمر ٩٢، ٢١٤
 كامل محمود حبيب ٢٨٥، ٢٩٢
 كريمان هانم ٣٣٥
 المبرد ٦٩
 المتنبي ٩٨، ١٥٣، ١٦٨، ١٨٠
 المتوكل ١٦٨
 محمد الأحمدى الظواهري ٣٢٨

منصور عوض ٣٥٠، ٨٨	محمود الرافعي ٢٧
منصور فهمي ١٣٠	محمود سامي البارودي ٣، ٤٤، ٥١،
مهدي خليل ٢٨، ٢٩	٥٦، ٥٣، ٥٢
مهمل بن ربيعة ٩٨	محمود عبد الرازق الرافعي ٣٠٠
ماري قدسي ٩١، ٢٦٠، ٢٦٢	محمود محمد شاكر ١٥، ٢١٢، ٢١٧،
مالك بن دينار ٢٧٠	٢٨٠، ٢٨٥، ٢٣١
نسيم الشاعر ٥٣	محمود واصف ٥٣
نسيم يارد ٤٧	مصطفى درويش ٩١
النعمان بن المنذر ١٦٨	مصطفى صادق الرافعي الصغير ٢٤١
نقولا رزق الله ٥٣	مصطفى كمال ١٦٧، ٢٧٩
النابعة الذيباني ١٦٨	مصطفى كامل ٥١
هرم بن سنان ١٦٨	مصطفى لطفى المنفلوطي ٥٣، ١٤٩
الوليد بن عبد الملك ٢٥٥	مصطفى الماحي ٢١٨
وهيبة ٦٦، ٢٤٠، ٢٤١	مغازي البرقوقي ٣٤٠
يزيد بن عبد الملك ٢٦٨	مكرم عبيد ٣٤٦

ج - الصحف والمجلات

سر كس ٤٦	الأخبار ٨٦
السياسة الأسبوعية ١٤٩، ١٥١،	الأسبوع ٢٤٢
١٥٨، ١٥٣	الأهرام ٢٤٨، ٢٨١
الضياء: لليازجي ٤٦، ٤٩، ٧٦	البلاغ ١٤، ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٢،
العصور ١٧٤، ١٧٧، ١٨٩، ٢٠٣،	٢١٧، ٢١٢
٣٥١	البيان: للبرقوقي ٥٧، ٣٢٣
كوكب الشرق ١٦، ١٥٥، ١٥٨،	البيان: لليازجي ٤٦، ٧٦، ١٤٩،
٢١٢، ٢٠٦	٣٢٣
اللطائف المصورة ٢٨٣، ٢٩٠،	النشيد ٤٠، ٤٦، ٥٣، ٥٧، ٨٧،
المؤيد ٦٩، ٣١٥	١٤٨
المضمار ٣٣٦	الثقافة ٣٢١
المقتطف ٤٦، ٦٩، ٨٧، ١١٣، ١٢٢، ١٧٩،	الجريدة ٦٥، ٦٦، ٦٧، ١٥٢،
١٨٥، ١٨٧، ٢١٧، ٢٢٩،	الجهاد ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٦،
٢٥١، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٨٦، ٣٢٢،	الجامعة ٥٥
المقطم ١٩٨، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٧٨،	الرسالة ١٦٠، ١٧١، ٢٠٧، ٢٠٩،
المكشوف ١٢٢	٢١٤، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٤،
المنبر ١٤٩	٢٢٩، ٣٤٢، ٣٥١
الهلل ٥٩، ٢٢٩	الزهراء ٤٦، ١٤٩،

د - الكتب

ديوان النظرات ٥٠، ٦٤، ٨٤،

١٦٩، ٢٤١، ٣٤٩

رسائل الأحزان ١١، ٦٣، ٩٩،

١٠١، ١٢٠، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٥،

١٣٨، ١٤٩، ١٥١، ١٦٤، ٣٥١

السحاب الأحمر ٦٣، ١٢٠، ١٣٢،

٣٥١

شرح ديوان المتنبي ٣٢٤

في الشعر الجاهلي ٦٨، ١٥٥، ١٦١،

١٦٤، ٣٥١

الشوقيات ٥٦

صحيح البخاري ٢١٥

عقلاء المجانين ٢٩٩

على السفود ١٦٧، ١٧٦، ١٨٩،

٣٥١

الفاروق - عمر بن الخطاب ٢٣٣

القاموس المحيط ٢٢٥

القصص المدرسية ٢٠٩

في القهوة والأدب ١٥٢

قول معروف ٢٠٨

كليلة ودمنة ١٦٥، ٢٧٩،

المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء

١٧٩

في الأدب الجاهلي ٦٨

أسرار الإعجاز ٩٣، ٢٠٨، ٢١٢،

٣٥٢، ٣١٦

الإسلام الصحيح ٢١٣

إعجاز القرآن ٦٩، ٧٤، ٩٣، ١٧١،

١٨٥، ١٩٠، ٢١٦، ٣٢٩،

٣٥٠، ٣٤٧

الأغاني ٧٥، ٢٢٣، ٢٦٧،

أغاني الشعب ٨٣، ٣٥٢،

أوراق الورد ٦٣، ٧٣، ١١٧، ١٢٠، ١٣١،

١٤٠، ٢٣١، ٢٨٣، ٢٩٦، ٣٥١،

تاريخ آداب العرب ٦٧، ٧٤، ١٤٣،

١٥١، ٢٨٦، ٣١٧، ٣٥٠، ٣٥٢،

حديث القمر ٧٤، ١٣١، ١٣٤،

١٤١، ١٥١، ٢٢٨، ٣٥٠،

الديوان ٨٦

ديوان الأعشاب ٢٣٢

ديوان حافظ ٤٨

ديوان الرافعي ٤٨، ٥٥، ٦٤، ٨٣،

٢٤١، ٣٤٧، ٣٤٩،

ديوان العقاد ١٩٠

ديوان المعاني ٢١٠

ديوان الماسحي ٢١٨

نشيد سعد زغلول ٨٣ ، ٣١٨ ،

٣٥٠

النشيد الوطني ٨٦ ، ٣٥٠

نهج البلاغة ٣٣

وحى الأربعين ١٦٦ ، ١٩٦

وحى القلم ٤ ، ٩٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٧٣ ،

٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ،

٣٥١ ، ٣٤٧

المخصص ٢٢٦

المساكين ٧٧ ، ٧٩ ، ٣٥٠

مصر الشاعرة ١٨٠

المعركة : تحت راية القرآن ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ،

١٩٢ ، ٣٥١

مكتبة القصبي ٦٨

ملكة الإنشاء ٦٤ ، ٧٤ ، ٣٥٠

الملاح التائه ٢١٨

تمت الفهارس

